صالحان على وزارته.

و ثوب صمصام الدولة بفارس وأخباره مع أبي علي ابن أخيه مشرف الدولة

قد تقدم لنا أن صمصام الدولة اعتقله أخوه مشرف الدولة بقلعة ورد قرب شيراز من أعمال فارس عندما ملك بغداد سنة ست وسبعين وثلاثمائة.

فلما مات مشرف الدولة وكان قد بعث ابنه أبا علي إلى فارس، ولحقه موت أبيه بالبصرة فبعث ما معه في البحر إلى أرجان، وسار إليها في البر مخفاً.

والتف عليه الجند الذين بها، وكاتبه العلاء بن الحسن من شيراز بخبر صمصام الدولة، فسار إلى شيراز واختلف عليه الجند، وهمّ الديلم بإسلامه إلى صمصام الدولة، فتحرك الأتراك وقاتل الديلم أياماً، ثم سار إلى نسا والأتراك معه، فأخذوا ما بها من المال وقتلوا الديلم ونهبوا أموالهم وسلاحهم.

وسار أبو علي إلى أرجان، وبعث الأتراك إلى شيراز فقاتلوا صمصام الدولة والديلم ونهبوا البلد، وعادوا إليه بأرجان.

وجاءه رسول عمه بهاء الدولة من بغداد بالمواعيد الجميلة، ودس مع رسوله إلى الأتراك، واستمالهم فحسنوا لأبي علي المسير إلى عمه بهاء الدولة، فسار إليه ولقيه بواسط منتصف ثمانين وثلاثمائة وقد أعد له الكرامة والنزول، ثم قبض عليه لأيام وقتله، وتجهز للمسير إلى فارس.

مسير فخر الدولة صاحب الري وأصفهان وهمذان إلى العراق وعوده

كان الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بن ركن الدولة يحب العراق ويريد بغداد، لما كان بها من الحضارة واستثثار الفضائل.

فلما توفي مشرف الدولة سلطان بغداد رأى أن الفرصة قد تمكنت فدس إلى فخر الدولة من يغريه بملك بغداد، حتى استشاره في ذلك، فتلطف في الجواب بأن أحاله على سعادته فقبل إشارته، وسار إلى همذان ووفد عليه بدر بن حسنويه ودبيس بن عفيف الأسدي، وشاوروا في المسير فسار الصاحب بن عباد وبدر في المقدمة على الجادة، وفخر الدولة على خوزستان.

ثم ارتاب فخر الدولة بالصاحب بن عباد خشية من ميله مع أولاد عضد الدولة فاستعاده، وساروا جميعاً إلى الأهواز فملكها فخر الدولة وأساء السيرة في جندها وجنده، وحبس عنهم العطاء فتخاذلوا وكان الصاحب منذ اتهمه ورده عن طريقه معرضاً عن الأمور ساكتاً، فلم تستقم الأمور بإعراضه.

ثم بعث بهاء الدولة عساكره إلى الأهواز فقاتلوهم وزادت دجلة إلى الأهواز، وانفتقت أنهارها فتوهم الجند وحسبوها مكيدة فانهزموا، وأشار عليه الصاحب بإطلاق الأموال فلم يفعل، فانفضت عنه عساكر الأهواز، وعاد إلى الري وقبض في طريقه على جماعة من قواد الديلم والري، وعادت الأهواز إلى دعوة بهاء الدولة.

مسير بهاء الدولة إلى أخيه صمصام الدولة بفارس

ثم سار بهاء الدولة سنة ثمانين وثلاثمائة إلى خوزستان عازماً على قصد فارس، وخلف ببغداد أبا نصر خواشاده من كبار قواد الديلم، ومر بالبصرة فدخلها، وسار منها إلى خوزستان، وأتاه نعي أخيه أبي ظاهر فجلس لعزائه، ودخل أرجان وأخذ جميع ما فيها من الأموال، وكانت ألف ألف دينار وثمانية آلاف ألف درهم، وهرعت إليه الجنود وتفرقت فيهم تلك الأموال كلها.

ثم بعث مقدمته أبا العلاء بن الفضل إلى النوبندجان فهزموا بها عسكر صمصام الدولة، فأعاد صمصام الدولة العساكر مع فولاد بن ماندان فهزموا أبا العلاء بمراسلة وخديعة من فولاد، كبسه في أثرها، فعاد إلى أرجان مهزوماً.

ولحق صمصام الدولة من شيراز بفولاد.

ثم ترددت الرسل في الصلح على أن يكون لصمصام الدولة بلاد فارس وأرجان ولبهاء الدولة خوزستان والعراق، ويكون لكل منهما إقطاع في بلد صاحبه، فتم ذلك بينهما وتحالفا عليه، وعاد بهاء الدولة إلى الأهواز، وبلغه ما وقع ببغداد من العيارين وبين الشيعة وأهل السنة وكيف نهبت الأموال وخرجت المساكين فأعاد السير إلى بغداد وصلحت الأحوال.

القبض على الطائع ونصب القادر للخلافة

قد ذكرنا أن بهاء الدولة وقد شغب الجند عليه لقلة الأموال، وقبض وزيره فلم يغن عنه.

وكان أبو الحسن بن المعلم غالباً على هواه، فأطمعه في مال الطائع، وزين له القبض عليه.

فأرسل إليه بهاء الدولة في الحضور عنده، فجلس على العادة، ودخل بهاء الدولة في جمع كبير وجلس على كرسيه، وأهوى بعض الديلم إلى يد الطائع ليقبلها، ثم جذبه عن سريره، وهو يستغيث ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، واستصفيت خزائن دار الخلافة فمشى بها الحال أياماً ونهب الناس بعضهم بعضاً.

ثم أشهد على الطائع بالخلع ونصبوا للخلافة عمه القادر أبا العباس أحمد المقتدر، استدعوه من البطيحة وكان فر إليها أيام الطائع كما تقدم في أخبار الخلفاء، وهذا كله سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

رجوع الموصل إلى بهاء الدولة

كان أبو الرواد محمد بن المسيب أمير بني عقيل قتل أبا طاهر بن حمدان آخر ملوك بني حمدان بالموصل وغلب عليها، وأقام بها طاعة معروفة لبهاء الدولة، وذلك سنة ثمانين وثلاثمائة كما مر في أخبار بني حمدان وبني المسيب.

ثم بعث بهاء الدولة أبا جعفر الحجاج بن هرمز من قواد الديلم في عسكر كبير إلى الموصل فملكها آخر إحدى وثمانين فاجتمعت عقيل مع أبي الرواد على حربه وجرت بينهم عدة وقائع، وحسن فيها بلاء أبي جعفر بالقبض عليه، فخشي اختلاف أمره هناك وراجع في أمره، وكان بإغراء ابن المعلم وسعايته.

ولما شعر الوزير بذلك صالح أبا الرواد وأخذ رهنه، وأعاده إلى بغداد فوجد بهاء الدولة قد نكب ابن المعلم.

أخبار ابن المعلم

هو أبو الحسن بن المعلم قد غلب على هوى بهاء الدولة وتحكم في دولته، وصدر كثير من عظائم الأمور بإشارته، فمنها نكبة أبي الحسن محمد بن عمر العلوي، وكان قد عظم شأنه مع مشرف الدولة وكثرت أملاكه.

فلما ولي بهاء الدولة سعى به عنده وأطمعه في ماله، فقبض عليه واستصفى سائر أملاكه، ثم حمله على نكبة وزيره أبي منصور بن صالحان سنة ثمان واستوزر أبا النصر سابور بن أردشير قبل مسيره إلى خوزستان، ثم حمله على خلع الطائع واستصفى أمواله وحمل ذخائر الخلافة إلى داره، ثم حمله على نكبة وزيره أبي نصر سابور واستوزر أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، وبعد مرجعه من خوزستان قبض على أبي خواشاده وأبي عبد الله بن ظاهر سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة لأنهما لم يوصلا لابن المعلم هداياهما، فحمل بهاء الدولة على نكبتهما.

ولما استطال على الناس وكثر الضجر منه شغب الجند على بهاء الدولة وطالبوه بإسلامه إليهم، وراجعهم فلم يقبلوا، فقبض عليه وعلى سائر أصحابه ليسترضيهم بذلك فلم يرضوا إلا به، فأسلمه إليهم وقتلوه.

ثم اتهم الوزير أبا القاسم بمداخلة الجند في الشغب على الوزير، فقبض عليه واستوزر مكانه أبا نصر سابور وأبا نصر بن الوزير الأولين وأقاما شريكين في الوزارة.

خروج أولاد بختيار وقتلهم

كان عضد الدولة قد حبس أولاد بختيار فأقاموا معتقلين مدة أيامه وأيام صمصام الدولة من بعده.

ثم أطلقهم مشرف الدولة وأحسن إليهم وأنزلهم بشيراز وأقطعهم.

فلما مات مشرف الدولة حبسوا في قلعة ببلاد فارس، فاستمالوا الموكل الذي عليهم والجند الذي معه من الديلم، فأفرجوا عنهم وذلك سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة. واجتمع إليهم أهل تلك النواحي وأكثرهم رجالة، وبلغ الخبر إلى صمصام الدولة فبعث أبا علي بن أستاذ هرمز في عسكر، فافترقت تلك الجموع وتحصن بنو بختيار ومن معهم من الديلم، وحاصرهم أبو علي، وأرسل أحد الديلم معهم فأصعدهم سراً وملكوا القلعة وقتلوا أولاد بختيار.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ورجوعها منه

ثم انتقض الصلح سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة بين بهاء الدولة صاحب بغداد وأخيه صمصام الدولة صاحب خوزستان، وذلك أن بهاء الدولة بعث أبا العلاء عبد الله بن الفضل إلى الأهواز، وأمر إليه أن يبعث العساكر متفرقة، فإذا اجتمعوا عنده صدم بهم بلاد فارس.

فسار أبو العلاء، وتشاغل بهاء الدولة عن ذلك، وظهر الخبر فجهز صمصام الدولة عسكر ه إلى خوزستان، واستمد أبو العلاء بهاء الدولة فتوافت عساكره، والتقى العسكران وانهزم أبو العلاء وأخذ أسيراً، فأطلقته أم صمصام الدولة.

وقلق بهاء الدولة لذلك، وافتقد الأموال فأرسل وزيره أبا نصر سابور إلى واسط، وأعطاه جواهر وأعلاقاً يسترهنها عند مهذب الدولة صاحب البطيحة فاسترهنها، ولما هرب الوزير أبو نصر استعفى ابن الصالحان من الانفراد بالوزارة فأعفي.

واستوزر بهاء الدولة أبا القاسم علي بن أحمد، ثم عجز وهرب.

وعاد أبو نصر سابور إلى الوزارة بعد أن أصلح الديلم.

ثم بعث بهاء الدولة طغان التركي إلى الأهواز في سبعمائة من المقاتلة فملكوا السوس، ورحل أصحاب صمصام الدولة عن الأهواز، وانتشرت عساكر طغان في أعمال خوزستان، وكان أكثرهم من الترك، فغص الديلم بهم الذين في عسكر طغان، فضلً الدليل وأصبح على بعد منهم، ورآهم الأتراك فركبوا إليهم وأكمن ألوفاً، واستأمن كثير منهم وأمنهم طغان حتى نزلوه، بأمر الأتراك فقتلوهم كلهم، وانتهى الخبر إلى بهاء الدولة بواسط، وسار إلى الأهواز وسار صمصام الدولة إلى شيراز وذلك سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وأمر صمصام الدولة بقتل الأتراك في جميع بلاد فارس سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، فقتل منم جماعة وهرب الباقون، فعاثوا في البلاد ولحقوا بكرمان، ثم ببلاد السند حتى توسطهم الأتراك فأطبقوا عليهم واستلحموهم.

استيلاء صمصام الدولة على الأهواز ثم على البصرة

ثم بعث صمصام الدولة عساكره الديلم سنة خمس وثمانين وثلاثمائة إلى الأهواز، وكان نائب بهاء الدولة قد توفي وعزم الأتراك على العود إلى بغداد، فبعث بهاء الدولة مكانه أبا كاليجار المرزبان بن سفهيعون، وأنفذ أبا محمد الحسن بن مكرم إلى رامهرمز مدداً لنائبها لفتكين، وقد انهزم إليها أمام عسكر صمصام الدولة، فترك أبا محمد بن مكرم بها، ومضى إلى الأهواز وسار إلى خوزستان، فكاتبه العلاء بن الحسن يخادعه، ثم سار إلى رامهرمز وحارب ابن مكرم ولفتكين وبعث بهاء الدولة ثمانين من الأتراك يأتون من خلف الديلم، فشعروا بهم وقتلوهم أجمعين، وخام بهاء الدولة عن اللقاء، فرجع إلى الأهواز، ثم سار إلى البصرة ونزل بها، وانتهى خبره إلى ابن مكرم، فعاد إلى عسكر مكرم واتبعه العلاء والديلم فأجلوه عنها إلى قرب تستر.

وتكررت الوقائع بين الفريقين، فكان بيد الأتراك من تستر إلى رامهرمز، وبيد الديلم من رامهرمز، ورجع الأتراك واتبعهم العلاء فوجدهم قد سلكوا طريق واسط فرجع عنهم، وأقام بعسكر مكرم.

ورجع بهاء الدولة إلى بغداد، وكان مع العلاء قائد من قواد الديلم اسمه شكراستان، فاستأمن إليه من الديلم الذين مع بهاء الدولة نحو من أربعمائة رجل فاستكثر بهم، وسار إلى البصرة وحاصرها، ومال إليهم أبو الحسن بن جعفر العلوي من أهل البصرة، وكانوا يحملون الميرة.

وعلم بهاء الدولة فأنفذ من يقبض عليهم فهربوا إلى ذلك القائد وقوي بهم، وجمعوا له السفن فركبها إلى البصرة، وقاتل أصحاب بهاء الدولة وهزمهم وملك البصرة واستباحها.

وكتب بهاء الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة بأن يرتجها من يد الديلم ويتولاها، فأمده عبد الله بن مرزوق، وأجلى الديلم عنها، ثم رجع للقاء شكراستان، وهجم عليها في السفن فملكها وكاتب بهاء الدولة بالطاعة والضمان فأجابه وأخذ ابنه رهينة، وكان يظهر طاعة بهاء الدولة وصمصام الدولة.

وفاة الصاحب بن عباد

وفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة توفي أبو القاسم إسماعيل بن عباد وزير فخر الدولة بالري، وكان أوحد زمانه علماً وفضلاً ورياسةً ورأياً وكرماً وعرفاً بأنواع العلوم، عارفاً بالكتابة ورسائله مشهورة مدونة.

وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد حتى يقال: كانت تنقل في أربعمائة حمل.

ووزر بعده لفخر الدولة أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبي الملقب بالكافي.

ولما توفي استصفى فخر الدولة أمواله بعد أن أوصاه عند الموت، فلم ينفذ وصيته.

وكان الصاحب قد أحسن إلى القاضي عبد الجبار المعتزلي وقدمه وولاه قضاء الري وأعمالها.

فلما مات قال عبد الجبار: لا أرى الترحم عليه لأنه مات

على غير توبة ظهرت منه، فنسب إليه قلة الوفاء بهذه المقالة.

ثم صادر فخر الدولة عبد الجبار فباع في المصادرة ألف طيلسان وألف ثوب من الصوف الرفيع.

ثم تتبع فخر الدولة آثار ابن عباد وأبطل ما كان عنده من المسامحات، وقبض على أصحابه والبقاء لله وحده.

وفاة فخر الدولة صاحب الري وملك ابنه مجد الدولة

ثم توفي فخر الدولة بن ركن الدولة بن بويه صاحب الري وأصفهان وهمذان في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة بقلعة طبرك، ونصب للملك من بعده ابنه مجد الدولة أبو طالب رستم وعمره أربع سنين، نصبه الأمراء وجعلوا أخاه شمس الدولة بهمذان وقرميس إلى حدود العراق.

وكان زمام الدولة بيد أم رستم مجد الدولة وإليها تدبير ملكه، وبين يديها في مباشرة الأعمال أبو ظاهر صاحب فخر الدولة، وأبو العباس الضبي الكافي.

وفاة العلاء بن الحسن صاحب خوزستان

ثم توفي العلاء بن الحسن عامل خوزستان لصمصام الدولة بعسكر مكرم، فبعث صمصام الدولة أبا علي بن أستاذ هرمز بالمال ففرقه في الديلم، ودفع أصحاب بهاء الدولة عن جند نيسابور بعد وقائع كان الظفر فيها له، ثم دفعهم عن خوزستان إلى واسط واستمال بعضهم فنزعوا إليه، ورتب العمال في البلاد وجبى الأموال سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

ثم سار أبو محمد بن مكرم من واسط مع الأتراك فدافعهم، وكانت بينه وبينهم وقائع.

ثم سار بهاء الدولة في أثرهم من واسط، وكان لحق بهم في واسط أبو علي بن إسماعيل الذي كان نائباً ببغداد عند مسيره إلى الأهواز سنة ست وثمانين وثلاثمائة وجاء المقلد بن المسيب من الموصل للعيث في جهات بغداد، فبرز أبو علي لقتاله، فنكر ذلك بهاء الدولة مغالطة، وبعث من يصالحه ويقبض على أبي علي، فهرب أبو علي إلى البطيحة، ثم لحق بهاء الدولة وهو بواسط فوزر له وزير أمره وأشار عليه بالمسير لإنجاد أبي محمد بن مكرم في قتال أبي علي بن أستاذ هرمز بخوزستان، فسار بهاء الدولة ونزل القنطرة البيضاء، وجرت بينه وبين أبي علي بن أستاذ هرمز وقائع، وانقطعت الميرة عن عسكر بهاء الدولة، فاستمد بدر بن حسنويه فأمده ببعض الشيء، وكثرت سعاية الأعداء في أبي علي بن إسماعيل فكاد ينكبهم، وبينما هم على ذلك بلغهم مقتل صمصام الدولة فصلحت الأحوال واجتمعت الكلمة.

مقتل صمصام الدولة

كان أبو القاسم وأبو نصر ابنا بختيار محبوسين كما تقدم، فخدعا المتوكلين بهما في القلعة، وخرجا فاجتمع إليهما لفيف من الأكراد، وكان صمصام الدولة قد عرض جنده وأسقط منهم نحواً من ألف لم يثبت عنده نسبهم في الديلم فبادروا إلى ابني بختيار والتقوا عليهما في أرجان.

وكان أبو جعفر أستاذ هرمز مقيماً، فثار به الجند ونهبوا داره فاختفى، ثم انتقضوا على صمصام الدولة ونهبوه، وهرب إلى الرودمان على مرحلتين من شيراز فقبض عليه صاحبها، وجاء أبو نصر بن بختيار فأخذه منه وقتله في ذي الحجة سنة ثمان لتسع سنين من إمارته بفارس، وأسلمت أمه إلى بعض قواد الديلم فقتلها ودفنها بداره حتى ملك بهاء الدولة فارس، فنقلها إلى تربة بني بويه.

استيلاء بهاء الدولة على فارس وخوزستان

ولما قتل صمصام الدولة وملك ابنا بختيار فارس بعثا إلى أبي علي بن أستاذ هرمز يستميلانه، ويأمرانه بأخذ العهد لهما على الذين معه من الديلم، ومحاربة بهاء الدولة.

وكتب إليه بهاء الدولة يستميله ويؤمنه ويؤمن الديلم الذين معه ويرغبهم، واضطرب رأي أبي علي لخوفه من ابني بختيار لما أسلف من قتل إخوتهما وحبسهما فمال عنهما، ومال الديلم عن بهاء الدولة خوفاً من الأتراك الذين معه، فما زال أبو علي بهم حتى بعثوا جماعة من أعيانهم إلى بهاء الدولة، واستوثقوا يمينه ونزلوا إلى خدمته، وساروا إلى الأهواز ثم إلى رامهرمز وأرجان.

واستولى بهاء الدولة على سائر بلاد خوزستان وبعث وزيره أبا علي بن إسماعيل إلى فارس، فنزل بظاهر شيراز وبها ابنا بختيار فحاربهما، ومال بعض أصحابهما إليه.

ثم انفضوا عنهما إلى أبي علي وأطاعوه، واستولى على شيراز ولحق أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم وأخوه أبو القاسم

ببدر بن حسنويه ثم بالبطيحة.

وكتب الوزير أبو علي إلى بهاء الدولة بالفتح، فسار إلى شيراز وأمر بنهب قرية الرودمان فملكها، وأقام بهاء الدولة بالأهواز، واستخلف ببغداد أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز ولقبه عميد العراق.

وبقي ملوك الديلم بعد ذلك يقيمون بفارس والأهواز ويستخلفون على العراق مدة طويلة.

مقتل ابن بختيار بكرمان واستيلاء بهاء الدولة عليها

لما استقر أبو نصر بن بختيار ببلاد الديلم كاتب جند الديلم بفارس وكرمان واستمالهم، فاستدعوه إلى فارس، فاجتمع إليه كثير من الريض والديلم والأكراد.

ثم سار إلى كرمان وبها أبو جعفر بن السيرجان، ومضى ابن بختيار إلى جيرفت فملكها وملك أكثر كرمان، فبعث بهاء الدولة وزيره الموفق أبا علي بن إسماعيل في العساكر، ولما وصل جيرفت استأمن إليه أهلها وملكها، وهرب ابن بختيار فاختار الوزير من أصحابه ثلاثمائة رجل وسار في أتباعه، وترك باقي العسكر بجيرفت.

ولما أدركه أوقع به وغدر بابن بختيار بعض أصحابه فقتله، وجاء برأسه إلى الموفق، واستلحم الباقين، وذلك سنة تسعين وثلاثمائة.

واستولى الموفق على كرمان، وولى عليها أبا موسى سياه جشم، وعاد إلى بهاء الدولة فقبض عليه واستصفاه، وكتب إلى وزيره سابور بالقبض على أنسابه وأصحابه، فدس إليهم سابور بذلك وهربوا.

ثم قتل بهاء الدولة الموفق سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، ثم استعمل بهاء الدولة على خوزستان وأعمالها أبا علي الحسن بن أستاذ هرمز، ولقبه عميد الجيوش، وعزل عنها أبا جعفر الحجاج بن هرمز لسوء سيرته، وفساد أحوالها بولايته، وبكثرة مصادراته، فصلحت حالها بولاية أبي علي، وحصل إلى بهاء الدولة منها الأموال مع كثرة العدل.

مسير ظاهر بن خلف إلى كرمان واستيلاؤه عليها ثم ارتجاعها

قد تقدم لنا أن ظاهر بن خلف خرج عن طاعة أبيه خلف بن أحمد السجستاني، وحاربه فظفر به أبوه، فسار إلى كرمان يروم التوثب عليها، وتكاسل عاملها عن أمره، فكثر جمعه واجتمع إليه بحيالها كثير من المخالفين، فنزل بهم إلى جيرفت فملكها وملك غيرها سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة.

وكان بكرمان أبو موسى سياه جشم، فسار إليه بمن معه من الديلم فهزمه ظاهر وأخذ ما بقي بيده، فبعث بهاء الدولة أبا جعفر أستاذ هرمز في العساكر إلى كرمان فهزم ظاهراً إلى سجستان وملك كرمان وعادت الديلم.

حروب عساكر بهاء الدولة مع بني عقيل

كان قرواش بن المقلد قد بعث جمعاً من بني عقيل سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة فحاصروا المدائن، وبعث أبو جعفر الحجاج بن هرمز وهو ببغداد نائب لبهاء الدولة عساكره فدفعوهم عنها، فاجتمع بنو عقيل وأبو الحسن بن مزيد من بني أسد، وبرز إليهم الحجاج، واستدعى خفاجة من الشام وقاتلهم فانهزم واستبيح عسكره، وانهزم ثانياً، وبرز إليهم فالتقوا بنواحي الكوفة فهزمهم وأثخن فيهم ونهب من حلل بني يزيد ما لا يعبر عنه من العين والمصاغ والثياب.

الفتنة بين أبي علي وأبي جعفر

لما غاب أبو جعفر الحاج عن بغداد قام بها العيارون واشتد فسادهم وكثر القتل والنهب، فبعث بهاء الدولة أبا علي بن جعفر المعروف بأستاذ هرمز لحفظ العراق، فانهزم أبو جعفر بنواحي الكوفة مغضباً.

ثم جمعوا الجموع من الديلم والأتراك والعرب، فانهزم أبو جعفر وأمن أبو علي جانبه، فسار إلى خوزستان وبلغ السوس. فأتاه الخبر بأن أبا جعفر عاد إلى الكوفة فكر راجعاً، وعادت الحرب بينهم، وبينما هم على ذلك أرسل بهاء الدولة إلى أبي علي يستدعيه سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة لحرب ابن واصل بالبصرة فسار إليه، وكانت الحرب بينه وبين ابن واصل كما يأتي في أخبار ملوك البطيحة، ورجع إلى بغداد ونزل أبو جعفر على فلح حامي

طريق خراسان وأقام هنالك، وكان فلح مبايناً لعميد الجيوش أبي علي، وتوفي سلخ سنة سبع وتسعين وثلاثمائة فولى أبو علي مكانه أبا الفضل بن عنان، وكان بهاء الدولة في محاربة ابن واصل بالبصرة، فأتاهم الخبر بظهور بهاء الدولة عليه، فأوهن ذلك منهم وافترقوا ولحق ابن مزيد ببلده، وسار أبو جعفر وابن عيسى إلى حلوان.

وأرسل أبو جعفر في إصلاح حاله عند بهاء الدولة فأجابه إلى ذلك، وحضر عنده بتستر، فأعرض عنه خوفاً أن يستوحش أبو علي.

وحقد بهاء الدولة لبدر بن حسنويه فسار إليه، وبعث إليه بدراً في المصالحة فقبله وانصرف، وتوفي أبو جعفر الحجاج بن هرمز بالأهواز سنة إحدى وأربعمائة.

الفتنة بين مجد الدولة صاحب الري وبين أمه واستيلاء ابن خالها علاء الدين بن كاكويه على أصفهان

قد تقدم لنا ولاية مجد الدولة أبي طالب رستم بن فخر الدولة على همذان قرميسين إلى حدود العراق، وتدبير الدولتين لأمه وهي متحكمة عليهما، فلما وزر لمجد الدولة الخطير أبو علي بن علي بن القاسم استمال الأمراء عنها وخوف مجد الدولة منها، فاسترابت وخرجت من الري إلى القلعة، فوضع عليها من يحفظها فأعملت الحيلة حتى لحقت ببدر بن حسنويه مستنجدة به.

وجاءها ابنها شمس الدولة في عساكر همذان وسار معهما بدر، وذلك سنة سبع وتسعين وثلاثمائة فحاصروا أصفهان وملكوها عنوة.

وعاد إليها الأمر فاعتقلت مجد الدولة ونصبت شمس الدولة للملك، ورجع بدر إلى بلده ثم بعد سنة استرابت بشمس الدولة، فأعادت مجد الدولة إلى ملكه.

وسار شمس الدولة إلى همذان، وانتقض بدر بن حسنويه لذلك، وكان في شغل بفتنة ولده هلال.

واستمد شمس الدولة فأمده بعسكر وحاصر قم فاستصعبت عليه، وكان علاء الدين أبو حفص بن كاكويه ابن خال هذه المرأة، وكاكويه هو الخال بالفارسية، فلذلك قيل له ابن كاكويه، وكانت قد استعملته على أصفهان، فلما فارق أمرها فسد حاله، فسار هو إلى بهاء الدولة بالعراق، وأقام عنده.

فلما عادت إلى حالها هرب أبو حفص إليها من العراق، فأعادته إلى أصفهان، ورسخ فيها ملكه وملك بنيه كما يأتي في أخبارهم.

وفاة عميد العراق وولاية فخر الملك

كان أبو جعفر أستاذ هرمز من حجاب عضد الدولة وخواصه، وصير ابنه أبا علي في خدمة ابنه صمصام الدولة، فلما قتل صمصام الدولة رجع إلى بهاء الدولة، وبلغه ما وقع ببغداد في مغيبه من الهرج وظهور العيارين، فبعث بهاء الدولة مكانه على العراق فخر الملك أبا غالب، وأصعد إلى بغداد فلقيه الكتاب والقواد والأعيان في ذي الحجة من السنة، وبعث العساكر من بغداد لقتال أبي الشوك حتى استقام.

وكانت الفتنة قد وقعت بين بدر بن حسنويه وابنه هلال، واستنجد بدر بهاء الدولة فأنجده من يده وأخذ ما فيها من الأموال، وفتح دير العاقول، وجاء سلطان وعلوان ورجب بنو ثمال الخفاجي في أعيان قومهم، وضمنوا حماية سقي الفرات من بني عقيل، وساروا معه إلى بغداد فبعثهم مع ذي السعادتين الحسن بن منصور للأنبار فعاثوا في نواحيها، وحبس ذو السعادتين نفراً منهم.

ثم أطلقهم فهموا بقبضه، وشعر بهم فحاول عليهم حتى قبض على سلطان منهم وحبسهم ببغداد.

ثم شفع فيهم أبو الحسن بن مزيد فأطلقهم، فاعترضوا الحاج سنة اثنتين وأربعمائة ونهبوهم فبعث فخر الملك إلى أبي الحسن بن مزيد بالانتقام منهم، فلحقهم بالبصرة فأوقع بهم وأثخن فيهم، واسترد من أموال الحاج ما وجد وبعث به وبالأسرى إلى فخر الملك.

ثم اعترضوا الحاج مرة أخرى ونهبوا سواد الكوفة فأوقع بهم أبو الحسن بن مزيد مثل ذلك، وبعث بأسراهم إلى بغداد.

وفاة بهاء الدولة وولاية ابنه سلطان الدولة

ثم توفي بهاء الدولة أبو نصر بن عضد الدولة بن بويه هلك بالعراق منتصف ثلاث وأربعمائة بأرجان، وحمل إلى تربة أبيه بمشهد علي فدفن بها لأربع وعشرين سنة من ملكه، وملك بعده ابنه سلطان الدولة أبو شجاع، وسار من أرجان إلى شيراز، وولى أخاه جلال الدولة أبا ظاهر على البصرة وأخاه أبا الفوارس على

كرمان.

استيلاء شمس الدولة على الري من يد أخيه مجد الدولة ورجوعه عنها

قد تقدم لنا أن شمس الدولة بن فخر الدولة كان ملك همذان وأخوه مجد الدولة ملك الري بنظر أمه، وكان بدر بن حسنويه أمير الأكراد وبينه وبين ولده هلال فتنة وحروب نذكرها في أخبارهم.

واستولى شمس الدولة على كثير من بلادهم وأخذ ما فيها من الأموال كما يذكر في أخبارهم.

ثم سار إلى الري يروم ملكها ففارقها أخوه مجد الدولة ومعه أمه إلى دنباوند واستولى شمس الدولة على الري وسار في طلب أخيه وأمه فشغب الجند عليه وطالبوه بأرزاقهم، فعاد إلى همذان وعاد أخوه مجد الدولة وأمه إلى الري.

مقتل فخر الملك ووزارة ابن سهلان

ثم قبض سلطان الدولة على نائبه بالعراق ووزيره فخر الملك أبي غالب وقتله في سلخ ربيع الأول سنة ست وأربعمائة لخمس سنين ونصف من ولايته، واستصفى أمواله، وكانت ألف ألف دينار سوى العروض وما نهب.

وولى مكانه بالعراق أبا محمد الحسن بن سهلان ولقبه عميد الجيوش، واستوزر مكانه الرجحي بعد أن كان ابن سهلان هرب إلى قرواش فأقامه عنده بهيت، وولى سلطان الدولة مكانه في الوزارة أبا القاسم جعفر بن فسانجس.

ثم رجع ابن سهلان إلى سلطان الدولة.

فلما قتل فخر الملك ولاه مكانه، فسار إلى العراق في محرم سنة تسع وأربعمائة، ومر في طريقه ببني أسد فرأى أن يثأر منهم من مضر بن دبيس بما كان قد قبض عليه قديماً بأمر فخر الملك، فأسرى إليه وإلى أخيه مهارش، وفي جملته أخوهم طراد، واتبعهما حتى أدركهما، وقاتله رجال الحي فقتل جماعة من الديلم والأتراك.

ثم انهزموا ونهب ابن سهلان أموالهم وسبى حريمهم، وبذل الأمان لمضر ومهارش وأشرك بينهما وبين طراد في الجزيرة.

ونكر عليه سلطان الدولة ذلك، ورحل هو إلى واسط والفتن بها فقتل جماعة منهم وأصلحها، وبلغه ما ببغداد من الفتنة فسار إليها ودخلها في ربيع من السنة، وهرب منه العيارون ونفى جماعة من العباسيين وأبا عبد الله بن النعمان فقيه الشيعة، وأنزل الديلم بأطراف البلد فكثر فسادهم وفساد الأتراك، وساروا إلى سلطان الدولة بواسط شاكين من ابن سهلان فوعدهم وأمسكهم، وبعث عن ابن سهلان فارتاب وهرب إلى بني خفاجة، ثم إلى الموصل، ثم استقر بالبطيحة.

وبعث سلطان الدولة العساكر في طلبه فأجاره واليها الشرابي وهزم العساكر وكان ابن سهلان سار إلى جلال الدولة بالبصرة ثم أصلح الرجحي حاله مع سلطان الدولة ورجع إليه. وضعف أمر الديلم في هذه السنة ببغداد وواسط، وثارت لهم العامة فلم يطيقوا مدافعتهم.

ثم قبض سلطان الدولة على وزيره فسانجس وأخويه، واستوزر أبا غالب ذا السعادتين الحسن بن منصور، وقبض جلال الدولة صاحب البصرة على وزيره أبي سعد عبد الواحد علي بن ماكولا.

انتقاض أبي الفوارس على أخيه سلطان الدولة

كان سلطان الدولة قد ولى أخاه أبا الفوارس على كرمان فاجتمع إليه بعض الديلم وداخلوه في الانتقاض فانتقض، وسار إلى شيراز فملكها سنة سبع وأربعمائة.

وسار سلطان الدولة فهزمه إلى كرمان، وسار في اتباعه فلحق بمحمود بن سبكتكين بيست ووعده بالنصرة، وبعث معه أبا سعيد الطائي في العساكر إلى كرمان، وقد انصرف عنها سلطان الدولة إلى بغداد فملكها أبو الفوارس وسار إلى بلاد فارس فملكها، ودخل إلى شيراز فسار سلطان الدولة إليه فهزمه فعاد إلى كرمان سنة ثمان وأربعمائة.

وبعث سلطان الدولة في أثره فملكوا عليه كرمان، ولحق بشمس الدولة صاحب همذان لأنه كان أساء معاملة أبي سعيد الطائي، فلم يرجع إلى محمود بن سبكتكين.

ثم فارق شمس الدولة إلى مهذب الدولة صاحب البطيحة فبالغ في تكرمته وأنزله بداره، وأنفذ إليه أخوه جلال الدولة مالاً، وعرض عليه المسير إليه فأبى، ثم ترددت الرسل بينه وبين أخيه سلطان الدولة فعاد إلى كرمان وبعث إليه التقليد والخلع.

وثوب مشرف الدولة على أخيه سلطان الدولة ببغداد واستبداده آخراً بالملك

ثم شغب الجند على سلطان الدولة ببغداد سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ونادوا بولاية مشرف الدولة أخيه فهم بالقبض عليه فلم يتمكن من ذلك، ثم أراد الانحدار إلى واسط لبعض شؤون الدولة فطلب الجند أن يستخلف فيهم أخاه مشرف الدولة فاستخلفه، ورجع من واسط إلى بغداد.

ثم اعتزم على قصد الأهواز فاستخلف أخاه مشرف الدولة ثانياً على العراق بعد أن كانا تحالفا أن لا يستخلف أحد منهما ابن سهلان.

فلما بلغ سلطان الدولة تستر استوزر ابن سهلان فاستوحش من مشرف الدولة.

ثم بعث سلطان الدولة إلى الأهواز فنهبوها، فدافعهم الأتراك الذين بها، وأعلنوا بدعوة مشرف الدولة، فانصرف سلطان الدولة عنهم.

ثم طلب الديلم من مشرف الدولة المسير إلى بيوتهم بخوزستان فأذن لهم وبعث معهم وزيره أبا غالب، ولحق الأتراك الذين كانوا معه بطراد بن دبيس الأسدي بجزيرة بني دبيس وذلك لسنة ونصف من ولايته الوزارة، وصودر ابنه أبو العباس على ثلاثين ألف دينار وسر سلطان الدولة بقتل أبي غالب، وبعث أبا كاليجار إلى الأهواز فملكها.

ثم تراسل سلطان الدولة ومشرف الدولة في الصلح، وسعى فيه بينهما أبو محمد بن مكرم صاحب سلطان الدولة ومؤيد الملك الرحجي وزير مشرف الدولة، على أن يكون العراق لمشرف الدولة وفارس وكرمان لسلطان الدولة، وتم ذلك بينهما سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

استيلاء ابن كاكويه على همذان

كان شمس الدولة بن بويه صاحب همذان قد توفي وولي مكانه ابنه سماء الدولة، وكان فرهاد بن مرداويج مقطع يزدجرد، فسار إليها سماء الدولة وحاصره، فاستنجد بعلاء الدولة بن كاكويه، فأنجده بالعساكر، ودفع سماء الدولة عن فرهاد.

ثم سار علاء الدولة وفرهاد إلى همذان وحاصراها، وخرجت عساكر همذان مع عساكر تاج الملك الفوهي قائد سماء الدولة فدفعهم، ولحق علاء الدولة بجرباذقان فهلك الكثير من عسكره بالبرد وسار تاج الملك الفوهي إلى جرباذقان فحاصر بها علاء الدولة حتى استمال بها قوماً من الأتراك الذين مع تاج الملك.

وخلص من الحصار وعاود المسير إلى همذان، فهزم عساكرها وهرب القائد تاج الملك، واستولى علاء الدولة على سماء الدولة فأبقى عليه رسم الملك، وحمل إليه المال، وسار فحاصر تاج الملك في حصنه حتى استأمن إليه فأمنه وسار به وبسماء الدولة إلى همذان فملكها، وملك سائر أعمالها، وقبض على جماعة من أمراء الديلم فحبسهم وقتل آخرين وضبط الملك، وقصد أبا الشوك الكردي فشفع فيه مشرف الدولة فشفعه وعاد عنه، وذلك سنة أربع عشرة وأربعمائة.

وزارة أبي القاسم المغربي لمشرف الدولة ثم عزله

كان عنبر الخادم مستولياً على دولة مشرف الدولة بما كان حظيً أبيه وجده، وكان يلقب بالأثير، وكان حاكماً في دولة بني بويه مسموع الكلمة عند الجند.

وعقد الوزير مؤيد الملك الرحجي على بعض اليهود من حواشيه مائة ألف دينار، فسعى الأثير الخادم وعزله في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة واستوزر لناصر الدولة بن حمدان، ونزع عنه إلى خلفاء العبيديين، وولاه الحاكم بمصر.

وولد له بها ابنه أبو القاسم الحسين، ثم قتله الحاكم فهرب ابنه أبو القاسم إلى مفرج بن الجراح أمير طيئ بالشام، وداخله في الانتقاض على العبيديين بأبي الفتوح أمير مكة فاستقدمه وبايع له بالرملة.

ثم صنع من مصر بالمال فانحل ذلك الأمر ورجع أبو الفتوح إلى مكة، وقصد أبو القاسم العراق واتصل بالعميد فخر الملك أبي غالب، فأمره القادر بإبعاده، فقصد الموصل واستوزره صاحبها، ثم نكبه وعاد إلى العراق، وتقلب به الحال إلى أن وزر بعد مؤيد الملك الرحجي، فساء تصرفه في الجند وشغب الأتراك عليه وعلى الأثير عنبر بسببه، فخرجا إلى السندية، وخرج معهما مشرف الدولة فأنزلهم قرواش.

ثم ساروا إلى أوانا، وندم الأتراك فبعثوا المرتضى وأبا الحسن الزينبي يسألون الإقالة، وكتب إليهم أبو القاسم المغربي بأن

أرزاقكم عند الوزير مكرماً به.

وشعر بذلك فهرب إلى قرواش لعشرة أشهر من وزارته، وجاء الأتراك إلى، مشرف الدولة والأثير عنبر فردهما إلى بغداد.

وفاة سلطان الدولة بفارس وملك ابنه أبي كاليجار وقتل ابن مكرم

ثم توفي سلطان الدولة أبو شجاع بن بهاء الدولة صاحب فارس بشيراز، وكان محمد بن مكرم صاحب دولته، وكان هواه مع ابنه أبي كاليجار، وهو يومئذ أمير على الأهواز، فاستقدمه للملك بعد أبيه وكان هوى الأتراك مع عمه أبي الفوارس صاحب كرمان فاستقدموه.

وخشي محمد بن مكرم جانبه وفر عنه أبو المكارم إلى البصرة، وسار العادل أبو منصور بن مافنة إلى كرمان لاستقدام أبي الفوارس وكان صديقاً لابن مكرم فحسن أمره عند أبي الفوارس، وأحال الأجناد بحق البيعة على ابن مكرم فضجر وماطلهم، فقبض عليه أبو الفوارس وقتله.

ولحق ابنه القاسم بأبي كاليجار بالأهواز فتجهز إلى فارس، وقام بتربيته بابن مزاحم صندل الخادم.

وسار في العساكر إلى فارس ولقيهم أبو منصور الحسن بن علي النسوي وزير أبي، الفوارس فهزموه وغنموا معسكره وهرب أبو الفوارس إلى كرمان وملك أبو كاليجار شيراز واستولى على بلاد فارس، وتنكر للديلم الذين بها، فبعثوا إلى من كان منهم بمدينة نسا فتمسكوا بطاعة أبي الفوارس.

ثم شغب عسكر أبي كاليجار عليه، وطالبوه بالمال فظاهرهم الديلم، فسلم إلى النوبندجان ثم إلى شعب بوان، وكاتب الديلم بشيراز أبا الفوارس يستحثونه، ثم أصلحوا بينهما على أن تكون لأبي الفوارس كرمان، ويعود أبو كاليجار لفارس لما فارقه بها من نعمته.

وكان الديلم يطيعونه فساروا في العساكر وهزموا أبا الفوارس، فلحق بدارابجرد واستولى أبو كاليجار على فارس.

ثم زحف إليه أبو الفوارس في عشرة آلاف من الأكراد فاقتتلوا بين البيضاء وإصطخر، فانهزم أبو الفوارس ولحق بكرمان، واستولى أبو كاليجار على فارس واستقر ملكه بها سنة سبع عشرة وأربعمائة.

وفاة مشرف الدولة وملك أخيه جلال الدولة

ثم توفي مشرف الدولة أبو علي بن بهاء الدولة بن بويه سلطان بغداد في ربيع الأول سنة ست عشرة وأربعمائة، لخمس سنين من ملكه.

ولما توفي خطب ببغداد لأخيه جلال الدولة وهو بالبصرة، واستقدم فلم يقدم، وانتهى إلى واسط فأقام بها يخطب لأبي كاليجار ابن أخيه سلطان الدولة، وهو يومئذ بخوزستان مشغول بحرب عمه أبي الفوارس كما قدمناه.

فحينئذ أسرع جلال الدولة من واسط إلى بغداد، فسار الجند ولقوه بالنهروان وردوه كرهاً بعد أن نهبوا بعض خزائنه، وقبض على وزيره أبي سعيد بن ماكولا واستوزر ابن عمه أبا علي، واستحث الجند أبا كاليجار فعللهم بالوعد وشغل بالحرب، وكثر الهرج ببغداد من العيارين، وانطلقت أيديهم وأحرقوا الكرخ، ونهاهم الأمير عنبر عن ذلك فلم ينتهوا، فخافهم على نفسه، فلحق بقرواش في الموصل وعظمت الفتن ببغداد.

استيلاء جلال الدولة على ملك بغداد

ولما عظم الهرج ببغداد ورأى الأتراك أن البلاد تخرب وأن العرب والأكراد والعامة قد طمعوا فيهم، ساروا جميعاً إلى دار الخلافة مستعتبين ومعتذرين عما صدر منهم من الانفراد باستقدام جلال الدولة ثم رده واستقدام أبي كاليجار مع أن ذلك ليس لنا وإنما هو للخليفة، ويرغبون في استدعاء جلال الدولة لتجتمع الكلمة ويسكن الهرج، ويسألون أن يستخلف فأجابهم الخليفة القادر، وبعث إلى جلال الدولة، فسار من البصرة، فبعث الخليفة القاضي أبا جعفر السمناني لتلقيه، ويستخلفه لنفسه، فسار ودخل بغداد سنة ثمان عشرة وأربعمائة وركب الخليفة لتلقيه، ثم سار إلى مشهد الكاظم ورجع، ودخل دار الملك وأمر بضرب النوب الخمس، فراسله القادر في قطعها فقطعها غضباً، ثم أذن له في إعادتها، وبعث جلال الدولة مؤيد الملك أبا علي الرجحي إلى الأثير عنبر الخادم عند قرواش بالتأنيس والمحبة والعذر عن فعل الجند.

أخبار ابن كاكويه صاحب أصفهان مع الأكراد ومع الأصبهبد

كان علاء الدولة بن كاكويه قد استعمل أبا جعفر علياً ابن عمه على نيسابور خوست ونواحيها، وضم إليه الأكراد الجودرقان ومقدمهم أبو الفرج البابوني.

فجرت بين أبي جعفر وأبي الفرج البابوني مشاجرة، وترافعا إليه فأصلح بينهما علاء الدولة وأعادهما.

ثم قتل أبو جعفر أبا الفرج فانتقض الجودرقان وعظم فسادهم، فبعث علاء الدولة عسكراً وأقاموا أربعة أيام ثم فقدوا الميرة، وجاء علاء الدولة وأعطاهم المال فافترقوا واتبعهم.

وجاء إليه بعض الجودرقان وانتهى في اتباعهم إلى وفد وقاتلوه عندها فهزمهم وقتل ابني ولكين في المعركة، ونجا هو في الفل إلى جرجان، وأسر الأصبهبد وابنان له ووزيره، وهلك في الأسر منتصف سنة تسع عشرة وأربعمائة وتحصن علي بن عمران بقلعة كنكور فحاصره بهاء الدولة، وصار ولكين إلى صهره منوجهر قابوس وأطمعه في الدخكت.

وكان ابنه صهر علاء الدولة على ابنته وأقطعه مدينة قم فعصى عليه وبعث إلى أبيه ولكين.

فسار بعساكره وعساكر منوجهر ونازلوا مجد الدولة بن بويه بالري وجرت بينهم وقائع فصالح علاء الدولة علي بن عمران ليسير إليهم فارتحلوا عن الري.

وجاء علاء الدولة إليها وأرسل إلى منوجهر يوبخه ويتهدده فسار منوجهر وتحصن بكنكور وقتل الذين قتلوا أبا جعفر ابن عمه وقبل الشرط، وخرج إلى علاء الدولة فأقطعه الدينور عوضاً عن كنكور، وأرسل منوجهر إلى علاء الدولة في الصلح فصالحه.

دخول خفاجة في طاعة أبي كليجار

كان هؤلاء خفاجة وهم من بني عمرو بن عقيل موطنين بضواحي العراق، ما بين بغداد والكوفة وواسط والبصرة.

وأميرهم بهذه العصور منيع بن حسان، وكانت بينه وبين صاحب الموصل منافسات جرتها المناهضة والجوار، فترددت الرسل بين السلم والحرب.

وسار منيع بن حسان سنة سبع عشرة وأربعمائة إلى الجامعين من أعمال دبيس فنهبها، وسار دبيس في طلبه ففارق الكوفة وقصد الأنبار من أعمال قرواش فحاصرها أياما، ثم افتتحها وأحرقها، وجاء قرواش لمدافعته ومعه عريب بن معن فلم يجدوه فمضوا إلى القصر فخالفهم منيع إلى الأنبار فعاث فيها ثانية.

فسار قرواش إلى الجامعين واستنجد دبيس بن صدقة فسار معه في بني أسد، ثم خاموا عن لقاء منيع فافترقوا ورجع قرواش إلى الأنبار فأصلحها، ورم أسوارها.

وكان دبيس وقرواش في طاعة جلال الدولة، فسار منيع بن حسان إلى أبي كاليجار بالأهواز فأطاعه وخلع عليه ورجع إلى بلده يخطب له بها.

شغب الأتراك على جلال الدولة

ولما استقل جلال الدولة بملك بغداد وكثر جنده من الأتراك واتسعت أرزاقهم من الديوان، وكان الوزير أبو علي بن ماكولا فطالبوه بأرزاقهم فعجز عنها، وأخرج جلال الدولة صياغات وباعها وفرقها في الجند.

ثم ثاروا عليه وطالبوه بأرزاقهم وحصروه في داره حتى فقد القوت والماء وسأل الإنزال إلى البصرة وخرج بأهله ليركب السفن إلى البصرة وقد ضرب سرادقاً على طريقهم ما بين داره والسفن، فقصد الأتراك السرادق فامتعض جلال الدولة لحريمه، ثم نادى في الناس وخرج الجند ونادوا بشعاره ثم شغبوا عليه بعد أيام قلائل في طلب أرزاقهم، واضطر جلال الدولة إلى بيع ملبوسه وفرشه وخيامه، وفرق أثمانها فيهم.

وعزل جلال الدولة وزيره أبا علي واستوزر أبا طاهر، ثم عزله بعد أربعين يوماً وولى سعيد بن عبد الرحيم وذلك سنة تسع عشرة وأربعمائة.

استيلاء أبي كاليجار على البصرة ثم على كرمان

ولما أصعد جلال الدولة إلى بغداد استخلف على البصرة ابنه الملك العزيز أبا منصور، وكان بين الأتراك وبين الديلم من الفتنة ما ذكرناه، فتجددت بينهم الفتنة فغلب الأتراك، وأخرجوا الديلم إلى الأبلة مع بختيار بن علي، فسار إليهم الملك العزيز ليرجعهم فحاربوه ونادوا بشعار أبي كاليجار بن سلطان الدولة وهو بالأهواز فعاد منهزماً.

ونهب الديلم الأبلة ونهب الأتراك البصرة. وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فبعث من الأهواز عسكراً إلى بختيار والبصرة والديلم، فقاتلوا الملك العزيز وأخرجوه، فلحق بواسط وملكوا البصرة ونهبوا أسواقها سنة تسع عشرة وأربعمائة وهمَّ جلال الدولة بالمسير إليهم وطلب المال للجند وشغل بمصادرة أرباب الأموال، وبلغ خبر استيلاء أبي كاليجار على البصرة إلى كرمان وكان بها عمه قوام الدولة أبو الفوارس، وقد تجهز لقصد بلاد فارس فأدركه أجله فمات، فنادى أصحابه بشعار أبي كاليجار واستدعوه، فسار ملك بلاد كرمان، وكان أبو الفوارس سيئ السيرة في رعيته وأصحابه.

قيام بني دبيس بدعوة أبي كاليجار

كانت جزيرة بني دبيس بنواحي خوزستان لطراد بن دبيس، وغلب عليه فيها منصور وخطب فيها لأبي كاليجار، ومات طراد فسار إلى منصور ابنه علي، واستنجد جلال الدولة عليه فأمده بعسكر من الأتراك وسار عجلاً.

واتفق أن أبا صالح كوكين هرب من جلال الدولة إلى أبي كاليجار فأراد أن يفتتح طاعته باعتراض أصحاب جلال الدولة فسار إلى منصور بالجزيرة.

وخرجوا لقتال علي بن طراد ولقوه بمبرود فهزموه وقتلوه، واستقر منصور الجزيرة على طاعة أبي كاليجار.

استيلاء أبي كاليجار على واسط ثم انهزامه وعودها لجلال الدولة

ثم إن نور الدولة دبيس على صاحب حلب والنيل، خطب لأبي كاليجار في أعماله لما بلغه أن ابن عمه المقلد بن الحسن ومنيع بن حسان أمير خفاجة سارا مع عساكر بغداد إليه، فخطب هو لأبي كاليجار واستدعاه فسار من الأهواز إلى واسط، وقد كان لحق بها الملك العزيز بن جلال الدولة ومعه جماعة من الأتراك.

فلما وصل أبو كاليجار فارقها الملك العزيز إلى النعمانية، واستولى أبو كاليجار على واسط.

ووفد عليه دبيس وبعث إلى قرواش صاحب الموصل والأثير عنبر عنده، وأمرهما أن ينحدرا إلى العراق فانحدرا، ومات الأثير عنبر بالكحيل.

ورجع قرواش وجمع جلال الدولة العساكر واستنجد أبا الشوك وغيره وسار إلى واسط، وضاقت عليه الأمور لقلة المال.

وأشار عليه أصحابه بمخالفة أبي كاليجار إلى الأهواز لأخذ أمواله، وأشار أصحاب أبي كاليجار بمخالفة جلال الدولة إلى العراق.

وبينما هم في ذلك جاءهم الخبر من أبي الشوك بمسير عساكر محمود بن سبكتكين إلى العراق.

ويشير بإجماع الكلمة. وبعث أبو كاليجار بكتابه إلى جلال الدولة فلم يعرج عليه، وسار إلى الأهواز ونهبها وأخذ من دار الإمارة خاصة مائتي ألف دينار سوى أموال الناس، وأخذت والدة أبي كاليجار وبناته وعياله وحملن إلى بغداد.

وسار جلال الدولة لاعتراضه وتخلف عنه دبيس بن مزيد خشية على أحيائه من خفاجة، والتقى أبو كاليجار وجلال الدولة في ربيع سنة إحدى وعشرين وأربعمائة فاقتتلوا ثلاثاً، ثم انهزم أبو كاليجار وقتل من أصحابه نحو من ألفين ورجع إلى الأهواز.

وأتاه العادل بن مافنة بمال أنفقه في جنده ورجع جلال الدولة إلى واسط واستولى عليها وأنزل ابنه العزيز بها ورجع.

استيلاء محمود بن سبكتكين صاحب خراسان على بلاد الري والجبل وأصفهان

كان مجد الدولة بن فخر الدولة متشاغلاً بالنساء والعلم، وتدبير ملكه لأمه، وتوفيت سنة تسع عشرة وأربعمائة فاختلفت أحواله وطمع فيه جنده، فكتب إلى محمود بن سبكتكين يشكو إليه، فبعث إليه عسكراً مع حاجبه، وأمره بالقبض عليه، فركب مجد الدولة لتلقيه فقبض عليه وعلى ابنه أبي دلف وطير بالخبر إلى محمود فجاء إلى الري ودخلها في ربيع الآخر سنة عشرين وأربعمائة وأخذ منها مال مجد الدولة ألف ألف دينار، ومن الجواهر قيمة خمسمائة ألف دينار وستة آلاف ثوب، ومن الحرير والآلات ما لا يحصى، وبعث بمجد الدولة إلى خراسان فاعتقل بها.

ثم ملك قزوين وقلاعها ومدينة ساوة وآوة ويافث وقبض على صاحبها ولكين وبعث به إلى خراسان، وقتل من الباطنية خلقاً ونفى المعتزلة إلى خراسان، وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة، وملك حدود أرمينية وخطب له علاء الدولة بن كاكويه بأصفهان، واستخلف على الري ابنه مسعوداً فافتتح زنجان وأبهر،

ثم ملك أصفهان من يد علاء الدولة، واستخلف عليها بعض أصحابه فثار به أهل أصفهان وقتلوه، فسار إليها وفتك فيهم، ويقال: قتل منهم خمسة آلاف قتيل وعاد إلى الري فأقام بها.

أخبار الغز بالري وأصفهان وأعمالها وعودهما إلى علاء الدولة

قد تقدم لنا في غير موضع بداية هؤلاء الغز، وأنهم كانوا بمفازة بخارى وكانوا فريقين: أصحاب أرسلان بن سلجوق وأصحاب بني أخيه ميكائيل بن سلجوق، وأن يمين الدولة محمود بن سبكتكين لما ملك بخاري وما وراء النهر قبض على أرسلان بن سلجوق، وسجنه بالهند ونهب أحياءه.

ثم نهض إلى خراسان ولحق بعضهم بأصفهان، وبعث محمود في طلبهم إلى علاء الدولة بن كاكويه فحاول على أخذهم، وشعروا ففروا إلى نواحي خراسان، وكثر عيثهم فأوقع بهم تاش الفوارس قائد مسعود بن سبكتكين فساروا إلى الري قاصدين أذربيجان، وكانوا يسمون العراقية، وكان أمراء هذه الطائفة كوكتاش ويرفأ وقزل ويعمر وناصفلي، فلما انتهوا إلى الدامغان خرج إليهم عسكرها فلم يطيقوا دفاعهم فتحصنوا بالجبل.

ودخل الغز البلد ونهبوه، ثم فعلوا في سمنان مثل ذلك، ثم في جوار الري وفي إسحاق أباذ وما جاورها من القرى، ثم ساروا إلى مسكويه من أعمال الري فنهبوها.

وكان تاش الفوارس قائد بني سبكتكين بخراسان ومعه أبو سهل الحمدوني من قوادهم فاستنجدوا مسعود بن سبكتكين وصاحب جرجان وطبرستان فأنجداهم وقاتلا الغز فانهزما وقتل تاش الفوارس.

وسار إلى الري أبو سهل الحمدوني فهزموه وتحصن بقلعة طبرك، ودخل الغز الري ونهبوه.

ثم قاتلوه ثانياً فأسر منهم ابن أخت لعمر من قوادهم فبذلوا فيه ثلاثين ألف دينار وإعادة ما أخذوا من عسكر تاش من المال والأسرى فأبى أبو سهل من إطلاقه، وخرج الغز من الري ووصل عسكر جرجان وقاتلوا الغز عندما قاربوا الري وأسروا قائدهم وألفين معه، وساروا إلى أذربيجان وذلك، سنة سبع وعشرين وأربعمائة.

ولما سار الغز إلى أذربيجان سار علاء الدولة إلى الري فدخلها بدعوة مسعود بن سبكتكين، وأرسل إلى أبي سهل الحمدوني أن يضمنه على البلد مالاً فأبى فأرسل علاء الدولة يستدعي الغز فرجع إليه بعضهم وأقام عنده.

ثم استوحشوا منه وعادوا إلى العيث بنواحي البلاد، فكرر علاء الدولة مراسلة أبي سهل في الضمان ليكون في طاعة مسعود بن سبكتكين.

وكان أبو سهل بطبرستان فأجابه وسار إلى نيسابور وملك علاء الدولة الري.

ثم اجتمع أهل أذربيجان لمدافعة الغز الذين طرقوا بلادهم وانتقموا من الغز، فافترقوا فسارت طائفة إلى الري ومقدمهم يرفأ وطائفة إلى همذان ومقدمهم منصور وكوكتاش فحاصروا بها أبا كاليجار بن علاء الدولة، وأنجده أهل البلاد على دفاعهم وطال حصارهم لهمذان حتى صالحهم أبو كاليجار وصاهر كوكتاش.

وأما الذين قصدوا الري فحاصروا بها علاء الدولة بن كاكويه وانضم إليهم فناخسرو بن مجد الدولة وكامد صاحب ساوه، فطال حصارهم وفارق البلد في رجب ليلاً إلى أصفهان، وأجفل أهل البلد وتمزقوا ودخلها الغز من الليل واستباحوها.

واتبع علاء الدولة جماعة منهم فلم يدركوه فعدلوا إلى كرج ونهبوها، ومضى ناصفلي منهم إلى قزوين فقاتلهم حتى صالحوه على سبعة آلاف دينار وصاروا إلى طاعته.

ولما ملكوا الري رجعوا إلى حصار همذان ففارقها أبو كاليجار وصحبه الوجوه والأعيان وتحصنوا بكنكور وملك الغز همذان ومقدمهم كوكتاش ومنصور ومعهم فناخسرو بن مجد الدولة في عدد من الديلم فاستباحوها، وبلغت سراياهم إلى أستراباذ وقرى الدينور وقاتلهم صاحبها أبو الفتح ابن أبي الشوك فهزمهم وأسر منهم حتى صالحوه على إطلاقهم فأطلقهم.

ثم راسلوا أبا كاليجار بن علاء الدولة في التقدم عليهم يدبر ملكهم بهمذان، فلما جاءهم وثبوا به فنهبوا ماله وانهزم وخرج علاء الدولة من أصفهان فوقع في طريقه بطائفة من الغز فظفر بهم ورجع إلى أصفهان منصوراً.

ولما أجاز الفريق الثاني من الغز السلجوقية من وراء النهر، وهم أصحاب طغرلبك وداود وجفر بيك وبيقوا وأخوهم إبراهيم نيال في العسكر لاتباع هؤلاء الذين بالري وهمذان وساروا إلى أذربيجان وديار بكر والموصل، وافترقوا عليها وفعلوا فيها الأفاعيل كما تقدم في أخبار قرواش صاحب الموصل وابن مروان صاحب ديار بكر، وكما يأتي في أخبار ابن وهشودان.

استيلاء مسعود بن سبكتكين على همذان وأصفهان والري ثم عودها إلى علاء الدولة بن كاكويه

ولما فارق الغز همذان بعث إليها مسعود بن سبكتكين عسكراً فملكوها وسار هو إلى أصفهان فهرب عنها علاء الدولة واستولى على ما كان بها من الذخائر، ولحق علاء الدولة إلى أبي كاليجار بتستر يستنجده عقب انهزامه أمام جلال الدولة سنة إحدى وعشرين وأربعمائة كما قدمنا فوعده بالنصر إذا اصطلح مع عمه جلال الدولة.

ثم توفي محمود بن سبكتكين ورجع مسعود من خراسان، وكان فناخسرو بن مجد الدولة معتصماً بعمران، فطمع في الري وجمع جمعاً من الديلم والأكراد وقصدها فهزمه نائب مسعود بها.

وقتل جماعة من عسكره وعاد إلى حصنه.

وعاد علاء الدولة من عند أبي كاليجار، وقد كان خائفاً من مسعود أن يسير إليهم ولا طاقة لهم به، فجاء بعد موت محمود، وملك أصفهان وهمذان والري وتجاوز إلى أعمال أنوشروان وسروا إليه بالري واشتد القتال وغلبوه على الري ونهبوها ونجا علاء الدولة جريحاً إلى قلعة فردخان على خمسة عشر فرسخاً من همذان فاعتصم بها، وخطب بالري وأعمال أنوشروان لمسعود بن سبكتكين، وولى عليها تاش الفوارس فأساء السيرة فولى علاء الدولة.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثم عودها لأبي كاليجار

كنا قدمنا أن جلال الدولة خالف أبا كاليجار إلى الأهواز واتبعه أبوكاليجار من واسط فهزمه جلال الدولة، ورجع إلى واسط فارتجعها.

وبعث أبو منصور بختيار بن علي نائباً لأبي كاليجار فبعث أربعمائة سفينة للقائهم مع عبد الله السراني الركازي صاحب البطيحة فانهزموا وعزم بختيار على الهرب، ثم ثبت وأعاد السفن لقتالهم والعسكر في البر، وجاء الوزير أبو علي لحربهم في سفينة، فلما وصل نهر أبي الخصيب وبه عساكر بختيار رجع مهزوماً، وتبعه أصحاب بختيار، ثم ركب بختيار بنفسه وأخذوا سفن أبي علي كلها وأخذوه أسيرا وبعثه بختيار إلى أبي كاليجار فقتله بعض غلمانه اطلع له على ريبة وخشيه فقتله.

وكان قد أحدث في ولايته رسوماً جائرة من المكوس، ويعين فيها، ولما بلغ خبره إلى جلال الدولة استوزر مكانه ابن عمه أبا سعد عبد الرحيم، وبعث الأجناد لنصرة الذين كانوا معه فملكوا البصرة في شعبان سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ولحق بختيار بالأبلة في عساكره واستمد أبا كاليجار فبعث إليه العساكر مع وزيره ذي السعادات أبي الفرج بن فسانجس فقاتلوا عساكر جلال الدولة بالبصرة، فانهزم بختيار أولاً وأُخذ كثير من سفنه.

ثم اختلف أصحاب جلال الدولة بالبصرة وتنازعوا وافترقوا واستأمن بعضهم إلى ذي السعادات فركبوا إلى البصرة وملكوها، وعادت لأبي كاليجار كما كانت.

وفاة القادر ونصب القائم للخلافة

وفي ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة توفي الخليفة القادر لإحدى وأربعين سنة من خلافته، وكان مهيباً عند الديلم والأتراك.

ولما مات نصب جلال الدولة للخلافة ابنه القائم بأمر الله أبا جعفر عبد الله بعد أبيه ولقبه القائم، وبعث القاضي أبا الحسن الماوردي إلى أبي كاليجار في الطاعة، فبايع وخطب له في بلاده وأرسل إليه بهدايا جليلة وأموال، ووقعت الفتنة ببغداد في تلك الأيام بين السنة والشيعة، ونُهبت دور اليهود وأحرقت من بغداد أسواق، وقتل بعض جباة المكس، وثار العيارون.

ثم همّ الجند بالوثوب على جلال الدولة وقطع خطبته، ففرق فيهم الأموال فسكتوا، ثم عاودوا، فلزم جلال الدولة الأصاغر فشكا من قواده الأكابر وهما بارسطغان وبلدوك، وأنهما استأثرا بالأموال فاستوحشا لذلك، وطالبهما الغلمان بعلوفتهم وجراياتهم فسارا إن المدائن، وندم الأتراك على ذلك.

وبعث جلال الدولة مؤيد الملك الرحجي فاسترضاهما ورجعا.

وزاد شغب الجند عليه ونهبوا دوابه وفرشه، وركب إلى دار الخليفة مغضباً من ذلك وهو سكران، فلاطفه ورده إلى بيته.

ثم زاد شغبهم وطالبوه في الدواب لركوبهم فضجر وأطلق ما كان في اسطبله من الدواب، وكانت خمس عشرة وتركها عائرة، وصرف حواشيه وأتباعه لانقطاع خزائنه فعوتب بتلك الفتنة، وعزل وزيره عميد الملك، ووزر بعده أبو الفتح محمد بن الفضل

أياماً ولم يستقم أمره فعزله، ووزر بعده أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسين السهيلي وزير مأمون صاحب خوارزم وهرب لخمسة وعشرين يوماً.

وثوب الأتراك ببغداد بجلال الدولة بدعوة أبي كاليجار ثم رجوعهم إلى جلال الدولة

ثم تجددت الفتنة بين الأتراك وجلال الدولة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة في ربيع الأول فأغلق بابه، ونهب الأتراك داره وسلبوا الكتاب وأصحاب الدواوين، وهرب الوزير أبو إسحاق السهيلي إلى حي غريب بن محمد بن معن.

وخرج جلال الدولة إلى عكبرا وخطبوا لأبي كاليجار واستدعوه من الأهواز فمنعه العادل بن مافنه إلى أن يحضره بين قوادهم فعادوا إلى جلال الدولة وتطارحوا عليه، فعاد لثلاث وأربعين يوماً من مغيبه.

واستوزر أبا القاسم بن ماكولا ثم عزله لفتنة الأتراك به، وإطلاق بعض المصادرين من يده.

استيلاء جلال الدولة على البصرة ثانياً ثم عودها لأبي كاليجار

ثم توفي أبو منصور بختيار بن علي نائب أبي كاليجار بالبصرة منتصف أربع وعشرين وأربعمائة فقام مكانه صهره أبو القاسم لاضطلاعه وكفايته، واستبد بها ونكر أبو كاليجار استبداده، وبعث بعزله فامتنع وخطب لجلال الدولة، وبعث لابنه يستدعيه من واسط فجاء وملك البصرة وطرد عساكر أبي كاليجار.

ثم فسد ما بين أبي القاسم والعزيز واستجار منه بعض الديلم بالعزيز، وشكوا منه فأخرجه العزيز عن البصرة وأقام بالأبلة، ثم عاد إلى محاربة العزيز حتى أخرجه عن البصرة ورجع أبو القاسم إلى طاعة أبي كاليجار.

إخراج جلال الدولة من دار الملك ثم عوده

وفي رمضان من سنة أربع وعشرين وأربعمائة استقدم جلال الدولة الوزير أبا القاسم فاستوحش الجند، واتهموه بالتعرض لأموالهم فهجموا عليه في دار الملك وأخرجوه إلى مسجد في داره، فاحتمل جلال الدولة الوزير أبا القاسم وانتقل إلى الكرخ، وأرسل إليه الجند بأن ينحدر عنهم إلى واسط على رسمه، ويقيم لإمارتهم بعض ولده الأصاغر فأجاب، وبعث إليهم واستمالهم فرجعوا عن ذلك واستردوه إلى داره، وحلفوا له على المناصحة.

واستوزر عميد الدولة أبا سعد سنة خمس وعشرين وأربعمائة عوضاً من ابن ماكولا فاستوحش ابن ماكولا، وسار إلى عكبرا فرده إلى وزارته، وعزل أبا سعد فبقي أياماً، ثم فارقها إلى أوانا فأعاد أبا سعد عبد الرحيم إلى وزارته.

ثم خرج أبو سعد هارباً من الوزارة ولحق بأبي الشوك، ووزر بعده أبو القاسم فكثرت مطالبات الجند له وهرب لشهرين فحمل إلى دار الخلافة مكشوف الرأس، وأعيد أبو سعد إلى الوزارة، وعظم فساد العيارين ببغداد وعجز عنهم النواب، فولي جلال الدولة البساسيري من قواد الديلم حماية الجانب الغربي ببغداد فحسن فيه غناؤه، وانحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد حتى أغار الأكراد والجند على بستان الخليفة، ونهبوا ثمرته وطلب أولئك الجند جلال الدولة فعجز عن الانتصاف منهم أو إسلامهم للخليفة، فتقدم الخليفة إلى القضاة والشهود والفقهاء بتعطيل رسومهم فوجم جلال الدولة، وحمل أولئك الجند بعد غيبتهم أياماً إلى دار الخليفة فاعترضهم أصحابهم وأطلقوهم، وعجز النواب عن إقامة الأحكام في العيارين ببغداد، وانتشر العرب في ضواحي بغداد وعاثوا فيها حتى سلبوا النساء في المقابر عند جامع المنصور، وشغب الجند سنة سبع وعشرين وأربعمائة بجلال الدولة فخرج متنكراً في سيما بدوي إلى دار المرتضى بالكرخ، ولحق منها برافع بن الحسين بن معن بتكريت، ونهب الأتراك داره وخربوها، ثم أصلح القائم أمر الجند وأعاده.

فتنة بادسطفان ومقتله

قد قدمنا ذكر بادسطفان هذا وأنه من أكابر قواد الديلم ويلقب حاجب الحجاب، وكان جلال الدولة ينسبه لفساد الأتراك والأتراك ينسبونه إلى إحجاز الأموال فاستوحش واستجار بالخليفة منتصف سبع وعشرين وأربعمائة فأجاره وكان يراسل أبا كاليجار ويستدعيه، فبعث أبو كاليجار عسكراً إلى واسط وثار معهم العسكر الذين بها وأخرجوا العزيز بن جلال الدولة إلى بغداد،

وكشف بادسطفان القناع في الدعاء لأبي كاليجار وحمل الخطباء على الخطبة لامتناع الخليفة منها، وجرت بينه وبين جلال الدولة حرب.

وسار إلى الأنبار وفارقه قرواش إلى الموصل، وقبض بادسطفان على ابن فسانجس، فعاد منصور بن الحسين إلى بلده.

ثم جاء الخبر بأن أبا كاليجار سار إلى فارس فانتقض عن بادسطفان الديلم الذين كانوا معه، وترك ماله وخدمه وما معه بدار الخليفة القائم وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد وبعث البساسيري وبني خفاجة في طلب بادسطفان وسار هو ودبيس في اتباعهم فلحقوه بالخيزرانية فقاتلوه وهزموه، وجاؤوا به أسيراً إلى جلال الدولة ببغداد، وطلب من القائم أن يخطب له ملك الملوك فوقف عن ذلك إلا أن يكون بفتوى الفقهاء فأفتاه القضاة أبو الطيب الطبري وأبو عبد الله الصيمري وأبو القاسم الكرخي بالجواز ومنع أبو الحسن الماوردي، وجرت بينهم مناظرات حتى رجحت فتواهم وخطب له بملك الملوك.

وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة فخجل وانقطع عنه ثلاثة أشهر، ثم استدعاه وشكر له إيثار الحق وأعاده إلى مقامه.

مصالحه جلال الدولة وأبي كاليجار

ثم ترددت الرسل بين جلال الدولة وأبي كاليجار ابن أخيه، وتولى ذلك القاضي أبو الحسن الماوردي وأبو عبد الله المرزوسي، فانعقد بينهما الصلح والصهر لأبي منصور بن أبي كاليجار على ابنة جلال الدولة، وأرسل القائم إلى أبي كاليجار بالخلع النفيسة.

عزل الظهير أبي القاسم عن البصرة واستقلال أبي كاليجار بها

قد قدمنا حال الظهير أبي القاسم في ملك البصرة بعد صهره أبي منصور بختيار، وأنه عصى على أبي كاليجار بدعوة جلال الدولة، ثم عاد إلى طاعته واستبد بالبصرة، وكان ابن أبي القاسم بن مكرم صاحب عمان يكاتب أبا الجيش وأبا كاليجار بزيادة ثلاثين ألف دينار في ضمان البصرة فأجيب إلى ذلك، وجهز له أبو كاليجار العساكر مع العادل أبي منصور بن مافنه وجاء أبا الجيش بعساكره في البحر من عمان وحاصروا البصرة براً وبحراً وملكوها، وقبض على الظهير واستصفيت أمواله، وصودر على تسعين ألفاً فحملها في عشرة أيام، ثم على مائة ألف وعشرة آلاف فحملها كذلك، ووصل الملك أبو كاليجار إلى البصرة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وأنزل بها ابنه عز الملوك والأمير أبا الفرج بن فسانجس وعاد إلى الأهواز ومعه الظهير أبو القاسم.

أخبار عمان وابن مكرم

قد قدمنا خبر أبي محمد بن مكرم وأنه كان مدبر دولة بهاء الدولة وقبله ابنه أبو الفوارس، وأن ابنه أبا القاسم كان أميراً بعمان منذ سنة خمس عشرة وأربعمائة ثم توفي سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة وخلف بنين أربعة وهم: أبو الجيش والمهذب وأبو محمد وآخر صغير لم يذكر اسمه.

وكان علي بن هطال صاحب جيش أبي القاسم فأقره أبو الجيش وبالغ في تعظيمه حتى كان يقوم له إذا دخل عليه في مجلسه فنكر ذلك المهذب على أخيه، وحقدها له ابن هطال فعمل دعوة واستأذن أبا الجيش في إحضار أخيه المهذب لها، وأحضره وبالغ في خدمته حتى إذا طعموا وشربوا وانتشوا فاوضه ابن هطال في التوثب بأخيه أبي الجيش واستكتبه بما يوليه من المراتب ويعطيه من الإقطاع على مناصحته في ذلك.

ثم وقّف أبا الجيش على خطة أخبره أنه لم يوافقه ثم قال له: وبسبب ذلك كان نكيره عليك في شأني، فقبض أبو الجيش على أخيه واعتقله ثم خنقه.

ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير وهمّ ابن هطال بتولية أخيه محمد فأخفته أمه حذراً عليه، ورفعت الأمر إلى ابن هطال فولي عمان وأساء السيرة وصادر التجار، وبلغ ذلك إلى أبي كاليجار فأمر العادل أبا منصور بن مافنه أن يكاتب المرتضى نائب أبي القاسم بن مكرم بجبال عمان، ويأمره بقصد ابن هطال في عمان، وبعث إليه العساكر من البصرة، فسار إلى عمان وحاصرها واستولى على أكثر أعمالها.

ثم دس إلى خادم كان لابن مكرم وصار لابن هطال وأمره باغتياله فاغتاله وقتله.

ومات العادل أبو منصور بهرام بن مافنّة وزير أبي كاليجار سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ووزر بعده مهذب الدولة وبعث لمداقعتهم عنها، وكانوا يحاصرون جيرفت فأجفلوا عنها، ولم يزل في اتباعهم حتى دخلوا المفازة ورجع مهذب الدولة إلى كرمان فأصلح فسادهم.

وفاة جلال الدولة سلطان بغداد وولاية أبي كاليجار

ثم توفي جلال الدولة ببغداد في شعبان سنة خمس وثلاثين وأربعمائة لسبع عشرة سنة من ملكه، وقد كان بلغ في الضعف وشغب الجند عليه واستبداد الأمراء والنواب فوق الغاية.

ولما توفي اتخذل الوزير كمال الملك عبد الرحيم وأصحاب السلطان الأكابر إلى حريم دار الخلافة خوفاً من الأتراك والعامة، واجتمع قواد العسكر فمنعوهم من النهب.

وكان ابنه الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط فكاتبه الجند بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل حق البيعة فأبطأ عنهم، وبادر أبو كاليجار صاحب الأهواز فكاتبهم ورغبهم في المال وتعجيله فعدلوا عن الملك العزيز إليه.

وأصعد بعد ذلك من الأهواز فلما انتهى إلى النعمانية غدر به أصحابه فرجع إلى واسط، وخطب الجند ببغداد لأبي كاليجار.

وسار العزيز إلى دبيس بن مزيد، ثم إلى قرواش بن المقلد بالموصل، ثم فارقه إلى أبي الشوك لصهر بينهما فغدر به، وألزمه على طلاق بنته، فسار إلى إبراهيم نيال أخي طغرلبك، ثم قدم بغداد مختفياً يروم الثورة بقتل بعض أصحابه ففر ولحق بنصير الدولة بن مروان فتوفي عنده بميافارقين، وقدم أبو كاليجار بغداد في صفر سنة ست وثلاثين وأربعمائة، وخطب له بها واستقر سلطانه فيها بعد أن بعث بأموال فرقت على الجند ببغداد وبعشرة آلاف دينار وهدايا كثيرة للخليفة، وخطب له فيها أبو الشوك ودبيس بن مزيد كل بأعماله، ولقبه الخليفة بمحيي الدولة، وجاء في قلة من عساكره خوفاً أن يستريب به الأتراك فدخل بغداد في شهر رمضان ومعه وزيره أبو السعادات أبو الفرج محمد بن جعفر بن فسانجس، واستعفى القائم من الركوب للقائه، وتقدم بإخراج عميه من بغداد، فمضيا إلى تكريت وخلع على أصحاب الجيوش وهم البساسيري والساري والهمام أبو اللقاء وثبت قدمه في الملك.

أخبار ابن كاكويه مع عساكر مسعود وولايته على أصفهان ثم ارتجاعه منها

قد تقدم انهزام علاء الدولة بن كاكويه من الري ومسيره جريحاً ومعه فرهاد بن مرداويج الذي جاءه إلى قلعة فردخان مدداً وساروا منها إلى يزدجرد، واتبعهم علي بن عمران قائد تاش قرواش.

وافترقوا من يزدجرد فمضى أبو جعفر إلى نيسابور عند الأكراد الجردقان وصعد فرهاد إلى قلعة سمكيس واستمال الأكراد الذين مع علي بن عمران وحملهم على الفتك به، فشعر علي وسار إلى همذان، واتبعه فرهاد والأكراد فحصروه في قرية بطريقه فامتنع عليهم بكثرة الأمطار ورجعوا عنه، وبعث علي بن عمران إلى الأمير تاش يستمده وعلاء الدولة إلى ابن أخيه بأصفهان يستمد المال والسلاح فاعترضه علي بن عمران من همذان وكبسه بجردقان وغنم ما معه وأسره، وخالفه علاء الدولة وأقرّه على أصفهان على ضمان معلوم وكذلك قابوس في جرجان وطبرستان وولى على الري أبا سهل الحمدوني وأمر تاش قرواش صاحب خراسان بطلب شهربوس بن ولكين صاحب ساوة، وكان يفسد السابلة ويعترض الحاج، وسار إلى الري وحاصرها بعد موت محمود، فبعث تاش العساكر في أثره وحاصروه ببعض قلاع قم وأخذوه أسيراً فأمر بصلبه على ساوة، ثم اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاد بن مرداويج على قتال أبي سهل الحمدوني وقد زحف في العساكر من خراسان فقاتلاه وقتل فرهاد وانهزم علاء الدولة إلى جبل بين أصفهان وجرجان فاعتصم به.

ثم لحق بأيدج وهي للملك أبي كاليجار، واستولى أبو سهل على أصفهان ونهب خزائن علاء الدولة وحملت كتبه إلى غزنة إلى أن احرقها الحسين بن الحسين الغوري، وذلك سنة خمس وعشرين وأربعمائة ثم سار علاء الدولة سنة سبع وعشرين وأربعمائة وحاصر أبا سهل في أصفهان وغدرته الأتراك فخرج إلى يزدجرد ومنها إلى الطرم فلم يقبله ابن السلار خوفاً من ابن سبكتكين، فسار عنه، ثم غلبه طغرلبك على خراسان سنة تسع وعشرين وأربعمائة وارتجعها مسعود سنة ثلاثين وأربعمائة كما ذكرناه ونذكره.

وفاة علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويه

ثم توفي علاء الدولة شهربان بن كاكويه في محرم سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائه وقد كان عاد إلى أصفهان عند شغل بن سبكتكين بفتنة طغرلبك فملكها.

ولما توفي قام مكانه بأصفهان ابنه الأكبر ظهير الدين أبو منصور قرامرد.

وسار ولده الآخر أبو كاليجار كرشاسف إلى نهاوند فملكها، وضبط البلد وأعمال الجبل.

وبعث أبو منصور قرامرد إلى مستحفظ قلعة نظيرا التي كان فها ذخائر أبيه وأمواله فامتنع بها وعصى، وسار أبو منصور لحصاره ومعه أخوه أبو حرب فلحق أبو حرب بالمستحفظ، ورجع أبو منصور إلى أصفهان.

وبعث أبو حرب إلى السلجوقية بالري يستنجدهم، فسارت طائفة منهم إلى جرجان فنهبوها وسلموها لأبي حرب.

فسير أبو منصور العساكر وارتجعها، فجمع أبو حرب فهزموه، وحاصروا أبا حرب بالقلعة فأسرى من القلعة ولحق بالملك أبي كاليجار صاحب فارس، واستنجده على أخيه أبي منصور فأنجده بالعساكر وحاصروا أبا منصور وأوقعوه عدة وقائع، ثم اصطلحوا آخراً على مال يحمله أبو منصور إلى أبي كاليجار، وعاد أبو حرب إلى قلعة نظير واشتد الحصار عليه.

ثم صالح أخاه أبا منصور على أن يعطيه بعض ما في القلعة وتبقى له فاتفقا على ذلك. ثم سار إبراهيم نيال إلى الري وطلب الموادعة من أبي منصور فلم يجبه، فسار إلى همذان ويزدجرد فملكهما وسعى الحسن الكيا في اتفاقه مع أخيه أبي حرب فاتفقا، وخطب أبوحرب لأخيه أبي منصور في بلاده، وأقطعه أبو منصور همذان.

ثم ملك طغرلبك البلاد من يد ابن سبكتكين واستولى على خوارزم وجرجان وطبرستان.

وكان إبراهيم نيال عندما استولى طغرلبك على خراسان وهو أخوه لأمه تقدم في عساكر السلجوقية إلى الري فاستولى عليها.

ثم ملك يزدجرد، ثم قصد همذان سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ففارقها صاحبها ابن علاء الدولة إلى نيسابور، وجاء إبراهيم إلى همذان بطلب طاعتهم فشرطوا عليه استيلاءه على عساكر كرشاسف، فسار إليها وتحصن في سابور خواست وملك عليه البلاد وعاث في نواحيها، وتحصن هو بالقلعة وعاد هو إلى الري.

وقد صمم طغرلبك على قصدها، فسار إليه وترك همذان ورجع كرشاسف وملك طغرلبك الري من يد إبراهيم.

وبعث إلى سجستان وأمر بعمارة ما خرب من الري، ووجد بدار الإمارة مراكب ذهب مرصعة بالجواهر، وبرنيتين من النحاس مملوءتين جواهر وذخائر مما سوى ذلك وأموالاً كثيرة.

ثم ملك قلعة طبرك من يد مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده مكرماً وملك قزوين فصالحه صاحبها بثمانين ألف دينار وصار في طاعته.

ثم بعث إلى كركتاش وموقا من الغز العراقية الذين تقدموا إلى الري واستدعاهم من نواحي جرجان فارتابوا وشردوا خوفاً منه.

ثم بعث إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة ويطلب منه المال، فأجاب وحمل، وبعث إلى سلار الطرم بمثل ذلك فأجاب وحمل مائتي ألف دينار وقرر عليه ضماناً معلوماً.

ثم بعث السرايا إلى أصفهان وخرج من الري في اتباعها فصانعه قرامرد بالمال فرجع عنه.

وسار إلى همذان فملكها، وقد كان سار إليه كرشاسف بن علاء الدولة وهو بالري فأطاعه، وسار معه إلى أبهروزنجان فملكهما، وأخذ منه همذان وتفرق عنه أصحابه.

وطلب منه طغرلبك قلعة كشكور فأرسل إلى مستحفظها بنزولهم عنها فامتنعوا، واتبعه طغرلبك إلى الري واستخلف على همذان ناصر الدين العلوي، وكان كرشاسف قد قبض عليه فأخرجه طغرلبك وجعله رديفاً للذي ولاه البلد من السلجوقية، ثم نزل كرشاسف على كشكور سنة ست وثلاثين وأربعمائة وجاء إلى همذان فملكها وطرد عنها عمال طغرلبك وخطب للملك أبي كاليجار فبعث طغرلبك أخاه إبراهيم نيال سنة سبع وثلاثين وأربعمائة إلى همذان، ولحق كرشاسف بشهاب الدولة أبي الفوارس منصور بن الحسين صاحب جزيرة بني دبيس، وارتاع الناس بالعراق لوصول إبراهيم نيال إلى حلوان، وبلغ الخبر إلى أبي كاليجار فأراد التجمع لإبراهيم نيال فمنعه قلة الظهر.

وحدثت فتنة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم نيال وأخذ الري وبلاد الجبل من يده.

ثم سار إلى أصفهان فحاصرها في محرم سنة اثنين وأربعين، وبعث السرايا فبلغت البيضاء، وأقام يحاصرها حولاً كاملاً حتى جهدهم الحصار، وعدموا الأقوات وحرقوا السقف لقوادهم حتى سقف الجامع، ثم استأمنوا وخرجوا إليه وملك أصفهان سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة وأقطع صاحبها أبا منصور وأجناده في بلاد الجبل ونقل أمواله وسلاحه من الري إليها وجعلها كرسياً لملكه، وانقرضت دولة فخر الدولة بن بويه من الري وأصفهان وهمذان، وبقي منهم بالعراق وفارس أبو كاليجار والبقاء لله وحده.

موت أبي كاليجار

ولما رأى أبو كاليجار استيلاء طغرلبك على البلاد، وأخذه الري وأصفهان وهمذان والجيل من قومه، وإزالة ملكهم راسله في الصهر والصلح، بأن يزوجه ابنته، وزوج داود أخو طغرلبك ابنته من أبي منصور بن أبي كاليجار، وانعقد ذلك بينهما في منتصف تسع وثلاثين وأربعمائة وكتب طغرلبك إلى أخيه إبراهيم نيال عن العراق وأعماله ابن سكرستان من الديلم، وقرر عليه مالاً فطاول في حمله، ورافع فشكر له أبو كاليجار، وانتزع من يده قلعة يزدشير وهي تعلقه ثم استمال أجناده فقتلهم بهرام، واستوحش فسار إليه أبو كاليجار، وانتهى إلى قصر مجامع من خراسان فطرقه المرض وضعف عن الركوب فرجعوا به إلى مدينة خبايا وتوفي بها في جمادى الأولى سنة أربعين وأربعمائة، لأربع سنين وثلاثة أشهر من ملكه العراق.

ولما توفي نهب الأتراك خزائنه وسلاحه ودوابه وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيم الوزير أبي منصور وكانت منفردة عن العسكر فأقام عنده، واختلف الأتراك والديلم وأراد الأتراك نهب الأمير والوزير فمنعهم الديلم، واختلفوا إلى شيراز فملكها الأمير أبو منصور وامتنع الوزير بقلعة حزقه، وبلغ وفاة أبي كاليجار إلى بغداد وبها ابنه أبو نصر، فاستخلف الجند وأمر القائم بالخطبة على عادة قومه.

وسأل أن يلقب بالرحيم فمنع الخليفة من ذلك أدباً ولقبه به أصحابه واستقر بالعراق وخوزستان والبصرة. وكان بالبصرة أخوه أبو علي فأقره عليها.

ثم بعث أخاه أبا سعد في العساكر في شوال من السنة إلى شيراز فملكها وخطبوا له بها وقبضوا على أخيه أبي منصور وأمه وجاؤوا بهما إليه.

وكان الملك العزيز بن جلال الدولة عند إبراهيم نيال لحق به بعد مهلك أبيه.

فلما مات أبو كاليجار زحف إلى البصرة طامعاً في ملكها فدافعه الجند الذين بها، وبلغه استقامة الملك ببغداد للرحيم فأقطع وذهب إلى ابن مروان فهلك عنده كما مر.

ملك الملك الرحيم بن أبي كاليجار ومواقعه

قد تقدم لنا أن أبا منصور فلاستون بن أبي كاليجار، سار إلى فارس بعد موت أبيه فملكها، وأنه بعث أخاه أبا سعيد بالعساكر فقبضوا عليه وعلى أمه، ثم انطلق ولحق بقلعة إصطخر ببلاد فارس، فسار الملك الرحيم من الأهواز في اتباعه سنة إحدى وأربعين وأطاعه أهل شيراز وجندها، ونزل قريباً منها.

ثم وقع الخلاف بين جند شيراز وبين جند بغداد، وعادوا إلى العراق فعاد معهم الملك الرحيم لارتيابه بجند شيراز، وبعث الجند والديلم جميعاً ببلاد فارس، إلى أخيه فلاستون ولما عاد استخلف العساكر وسار إلى أرجان عازماً على قصد الأهواز.

وعاد الملك الرحيم للقائه من الأهواز في ذي القعدة من السنة واقتتلوا وانهزم الملك الرحيم، وعاد إلى واسط منهزماً.

وسار بعض إلى الملك الرحيم يستجيشون به للرجوع إلى فارس، فأرسل إلى بغداد واستنفر الجند وسار إلى الأهواز فبلغه طاعة أهل فارس وأنهم منتظرون قدومه، فأقام بالأهواز ينتظر عساكر بغداد.

ثم سار إلى عسكر مكرم فملكها سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم اجتمع جمع من العرب والأكراد مقدمهم طراد بن منصور ومذكور بن نزار فقصدوا سرف فنهبوها ونهبوا درق.

وبعث الملك الرحيم بعساكره في محرم سنة ثلاث وأربعين فهزموا العرب والأكراد وقتل مطارد وأسر ابنه واسترد النهب.

وبلغ الخبر إلى الملك الرحيم وهو بعسكر مكرم فتقدم إلى قنطرة أربق ومعه دبيس بن مزيد والبساسيري وغيرهما.

ثم سار هزارسب بن تنكر ومنصور بن الحسين الأسدي بمن معهما من الديلم والأتراك من أرجان إلى تستر، فسابقهم الملك الرحيم فكان الظفر له.

ثم زحف في عسكر إلى رامهرمز وبها أصحاب هزارسب فهزموهم وأثخنوا فيهم، وتحيزوا إلى رامهرمز في طاعة الملك الرحيم.

ثم قبض هزارسب عليهم وأرسل إلى الملك الرحيم بطاعته، فبعث أخاه أبا سعيد إليه فملك إصطخر، وخدمه أبو نصر بعسكره وماله، وأطاعته جموع من عساكر فارس من الديلم والترك

والعرب والأكراد وحاصروا قلعة بهندر فخالفه هزارسب ومنصور بن الحسين الأسدي إلى الملك الرحيم فهزموه.

وفارق الأهواز إلى واسط وعاد إلى سعد بشيراز فقاتلهم وهزمهم.

ثم عاودوا القتال فهزمهم وأثخن فيهم واستأمن إليه كثير منهم، وصعد فلاستون إلى قلعة بهندر فامتنع بها، وأعيدت الخطبة للملك الرحيم بالأهواز.

ثم مضى فلاستون وهزارسب إلى إيدج وبعثوا بطاعتهم إلى السلطان طغرلبك واستمدوه، وبعث إليهم العساكر والملك الرحيم بعسكر مكرم وقد انصرف عنه البساسيري إلى العراق، ودبيس بن مزيد والعرب والأكراد، وبقي معه ديلم الأهواز، وأنزل بغداد فسار من عسكر مكرم إلى الأهواز وحاصروه بها فبعث أخاه أبا سعد صاحب فارس حين طلبه صاحب إصطخر ليفتّ في عضد فلاستون وهزارسب ويرجعوا عنه.

فلم يهجهم ذلك وساروا إلى الأهواز وقاتلوه فهزموه، ولحق في الفل بواسط ونهبت الأهواز، وفقد في الوقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم وكانت السلجوقية قد ساروا إلى فارس، فاستولى ألب أرسلان ابن أخي طغرلبك على مدينة نسا وعاثوا فيها وذلك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة.

ثم ساروا سنة أربع وأربعين وأربعمائة إلى شيراز ومعهم العادل بن مافنه وزير فلاستون فقبضوا عليه وملكوا منه ثلاث قلاع وسلموها إلى أبي سعد أخي الملك الرحيم، واجتمعت عساكر شيراز فهزموا الغز الذين ساروا إليها وأسروا بعض مقدمهم.

ثم ساروا إلى نسا وقد كان تغلب عليها بعض السلجوقية فأخرجوهم عنها وملكوها.

الفتنة بين البساسيري وبني عقيل واستيلاؤه على الأنبار

لما سار الملك الرحيم إلى شيراز سنة إحدى وأربعين ثار بعض بني عقيل بأردوفا فنهبوها وعاثوا فيها وكانت من أقطاع البساسيري، فلمّا عاد من فارس سار إليهم من بغداد فأوقع بأبي كامل بن المقلد، واقتتلوا قتالا شديداً.

ثم تحاجزوا ورفع إلى البساسيري إن قرواش أساء السيرة في أهل الأنبار، وجاء أهلها متظلمين منه، فبعث معهم عسكراً فملكوها، وجاء على أثرهم فأصلح أحوالها.

وزحف قريش إليها سنة ست وأربعين فملكها وخطب فيها لطغرلبك، ونهب ما كان فيها للبساسيري، ونهب حلل أصحابه بأنحاص، وجمع البساسيري وقصد الأنبار وخوي فاستعادها من يد قريش ورجع إلى بغداد.

استيلاء الخوارج على عمان

كان أبو المظفر بن أبي كاليجار أميراً على عمان، وكان له خادم مستبد عليه فأساء السيرة في الناس ومد يده إلى الأموال فنفروا منه، وعلم بذلك الخوارج في جبالها فجمعهم ابن رشد منهم وسار إلى المدينة فبرز إليه أبو المظفر وظفر بالخوارج.

ثم جمع ثانية وعاد لقتال أبي المظفر والديلم وأعانه عليهم أهل البلد لسوء سيرتهم فهزمهم ابن رشد وملك البلد، وقتل الخادم وكثيراً من الديلم والعمال، وأخرب دار الإمارة وأسقط المكوس، واقتصر على ربع العشر من أموال التجار والواردين، وأظهر العدل ولبس الصوف وبنى مسجداً لصلاته، وخطب لنفسه وتلقب الراشد باللّه.

وقد كان أبو القاسم بن مكرم بعث إليه قبل ذلك من حاصره في جبله وأزال طمعه.

الفتنة بين العامة ببغداد

وفي صفر من سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة تجددت الفتنة ببغداد بين أهل السنة والشيعة وعظمت، وتظاهر الشيعة بمذاهبهم وكتبوا بعض عقائدهم في الأبواب، وأنكر ذلك أهل السنة، واقتتلوا وأرسل القائم نقيبي العباسية والعلوية لكشف الحال فشهدوا للشيعة، ودام القتال وقتل رجل من الهاشمية من أهل السنة، فقصدوا مشهد باب النصر ونهبوا ما فيه وأحرقوا ضريح موسى الكاظم وحافده محمد المتقي وضرائح بني بويه وبعض خلفاء بني العباس، وهموا بنقل شلو الكاظم إلى مقبرة أحمد بن حنبل، فحال دون ذلك جهلهم بعين الجدث.

وجاء نقيب العباسية فمنع من ذلك، وقتل أهل الكرخ من الشيعة أبا سعيد السرخسي مدرس الحنفية.

وأحرقوا محال الفقهاء ودورهم، وتعدت الفتنة إلى الجانب الشرقي، وبلغ إحراق المشهد إلى دبيس فعظم عليه، وقطع خطبة القائم لأنه وأهل ناحيته كانوا شيعة، وعوتب في ذلك فاعتذر بأن

أهل الناحية تغري القائم بأهل السنة، وأعاد الخطبة بحالها.

ثم عظمت الفتنة سنة خمس وأربعين وأربعمائة واطرحوا مراقبة السلطان ودخل معهم طوائف من الأتراك وقتل بعض العلوية فصرخ النساء بشأره، واجتمع السواد الأعظم، وركب القواد لتسكين الفتنة فقاتلهم أهل الكرخ قتالاً شديداً، وحرقت أسواق الكرخ ثم منع الأتراك من الدخول بينهم فسكنوا قليلاً.

استيلاء الملك الرحيم على البصرة

قد كنا قدمنا أن الملك الرحيم لما تولى بغداد بعد أبيه أقر أخاه أبا علي على إمارة البصرة، ثم بدا منه العصيان، فبعث إليه العساكر مع البساسيري القائم بدولته، فزحف أخاه إلى البصرة وبرزوا إليه في الماء فقاتلهم عدة أيام ثم هزمهم وملك عليهم الأنهار، وصارت العساكر في البر إلى البصرة، واستأمنت ربيعة ومضر فأمنهم وملك البصرة، وجاءته رسل الديلم بخوزستان يعتذرون، ومضى أبو علي فتحصن بشط عثمان وخندق عليه فمضى الملك الرحيم إليه وملكه، ومضى أبو علي وابنه إلى عبادان ولحق منها إلى جرجان متوجهاً إلى السلطان طغرلبك.

فلما وصل إليه بأصفهان لاقاه بالتكرمة وأنزله بعض قلاع جرباذقان، وأقطع له في أعمالها وأقام الملك الرحيم بالبصرة أياماً واستبدل من أجناد أخيه أبي علي بها، واستخلف عليها البساسيري، وسار إلى الأهواز وترددت الرسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارسب فدخلوا في طاعته، وصارت تستر إليه، وأنزل بأرجان فولاد بن خسرو الديلمي، فسار في أعمالها وحمل المتغلبين هناك على طاعة الملك الرحيم حتى أذعنوا.

استيلاء فلاستون على شيراز بدعوة طغرلبك

قد قدمنا أنه كان بقلعة إصطخر أبو نصر بن خسرو مستولياً عليها، وأنه أرسل بطاعته سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة إلى الملك الرحيم عندما ملك رامهرمز، واستدعى منه أخاه أبا سعيد ليملكه بلاد فارس، فسار إليه بالعساكر وملك البلاد، ونزل شيراز، وكان معه عميد الدولة أبو نصر الظهير قد استبد في دولته، وساءت سيرته في جنده، وأوحش أبا نصر مستدعيهم للملك فانتقض عليهم، وداخل الجند في الانتقاض فشغبوا وقبضوا على عميد الدولة، ونادوا بدعوة أبي منصور فلاستون، واستدعوه وأخرجوا أبا سعيد عنهم إلى الأهواز، ودخل أبو منصور إلى الأهواز فملكها وخطب لطغرلبك وللملك الرحيم ثم لنفسه بعدهما.

وقائع البساسيري مع الأعراب والأكراد لطغرلبك

لما استولى طغرلبك على النواحي وأحاط بأعمال بغداد من جهاتها، وأطاعه أكثر الأكراد إلى حلوان وكثر فسادهم وعيثهم، والتفت عليهم الأعراب وأهمّ الدولة شأنهم فسار إليهم البساسيري واتبعهم إلى البوازيج فظفر بهم وقتل وغنم، وعبروا الزاب، وجاء الديلم فتمكن من العبور إليهم وذلك سنة خمس وأربعين وأربعمائة ثم دعاه دبيس صاحب الحلة إلى قتال خفاجة، وقد عاثوا في بلاده، فاستنجد به وسار إليهم فأجلاهم عن الجامعين، ودخلوا المفازة واتبعهم فأدركهم بخفان فأوقع بهم وغنم أموالهم وأنعامهم، وحاصر حصن خفان وفتحه وخربه، وأراد تخريب القائم الذي به، وهو بناء في غاية الارتفاع كالعلم يهتدى به.

قيل: إنه وضع لهداية السفن لما كان البحر إلى النجف، فصانع عنه ربيعة بن مطاعم بالمال وترك له، وعاد إلى بغداد فصلب من كان معه من أسرى العرب.

ثم سار إلى خوي فحصرها وقرر عليها سبعة آلاف دينار.

فتنة الأتراك واستيلاء عساكر طغرلبك على النواحي

كان الأتراك من جند بغداد قد استفحل أمرهم على الدولة، واشتطوا وتطاولوا إلى الفتنة عندما هبت ريحها بظهور طغرلبك واستيلائه على النواحي، فطالبوا الوزير في محرم سنة ست وأربعين وأربعمائة بمبلغ كبير من أرزاقهم ورسومهم وأرهقوه، واختفى في دار الخلافة فاتبعوه وطلبوه من أهل الدار فجحدوه فشغبوا على الديوان، وتعدوا إلى الشكوى من الخليفة، وساء الخطاب بينهم وبين أهل الديوان وانصرفوا، وشاع بين الناس أنهم محاصرون دار الخلافة فانزعجوا، وركب البساسيري وهو النائب يومئذ ببغداد إلى دار الخلافة، وطلب الوزير وكبس الدور من أجله، فلم يوقف له على خبر.

وشغب الجند ونهبوا دار الروم وأحرقوا البيع، وكبسوا دار

ابن عبيد وزير البساسيري، ووقف أهل الدروب لمنع بيوتهم من الأتراك فنهبوا الواردين، وعدمت الأقوات، والبساسيري في خلال ذلك مقيم بدار الخلافة إلى أن ظهر الوزير، وقام بهم بما عليهم من أثمان دوابه وقماشه.

واتصل الهرج وعاد الأعراب والأكراد إلى العيث والإغارة والنهب والقتل، وجاءت أصحاب قريش صاحب الموصل فكبسوا حلل كامل ابن عمه بالبردوان، ونهبوا منها دواب وجمالاً من البخاتي، كانت هناك للبساسيري فتضاعف الهرج وانحل نظام الملك.

ووصل عساكر الغز إلى الدسكرة مع إبراهيم بن إسحاق من أمراء طغرلبك ورستبارد فاستباحوها.

ثم تقدموا إلى قلعة البردوان وقد عصى صاحبها سعدي على طغرلبك فامتنعت عليهم، فعاثوا في نواحيها وخربت تلك الأعمال وانجلى أهلها. وسارت طائفة أخرى إلى الأهواز فخربوا نواحيها، وقوي طمع السلجوقية في البلاد وخافت الديلم ومن معهم من الأتراك وضعفت نفوسهم، ثم بعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة في عساكر السلجوقية إلى خوزستان، فانتهى إلى سابور خواست وكاتب الديلم بالوعد والوعيد فنزع إليه أكثرهم واستولى على الأهواز، ونهبها عساكر السلجوقية وصادروا أهلها وهرب أهلها منهم.

الوحشة بين القائم والبساسيري

قد قدمنا ما وقع من قريش بن بدران في نهب حلل البساسيري أصحابه سنة ست وأربعين وأربعمائة ثم وصل إلى بغداد أبو الغنائم وأبو سعد ابنا المجلبان صاحب قريش ودخلا في خفية، فهمَّ البساسيري بأخذهما، فأجارهما الوزير رئيس الرؤساء عليه، فغضب وسار إلى خوي والأنبار فملكهما ورجع ولم يعرج على دار الخلافة وأسقط مشاهرات القائم والوزير وحواشي الدار من دار الضرب، ونسب إلى الوزير مكاتبته طغرلبك.

ثم سار في ذي الحجة من سنة ست وأربعين وأربعمائة إلى الأنبار وبها أبو الغنائم بن المجلبان، ونصب عليها المجانيق ودخلها عنوة وأسر أبا الغنائم في خمسمائة من أهلها، ونهب البلاد وعاد إلى بغداد وقد شهر أبا الغنائم وهم بصلبه، فشفع فيه دبيس بن صدقة، وكان قد جاء مدداً له على حصار الأنبار فشفعه وصلب جماعة من الأسرى.

وثوب الأتراك بالبساسيري ونهب داره

كان هذا البساسيري مملوكاً لبعض تجار بسا من مدائن فارس فنسب إليهم، ثم صار لبهاء الدولة بن عضد الدولة، ونشأ في دولته وأخذت النجابة بضبعه، وتصرف في خدمة بيته إلى أن صار في خدمة الملك الرحيم، وكان يبعثه في المهمات ومدافعة هذه الفتن.

فدافع الأكراد من جهة حلوان، ودافع قريش بن بدران من الجانب الغربي وهما قائمان بدعوة طغرلبك.

ثم سار إلى الملك الرحيم بواسط وقد تأكدت الوحشة بينه وبين الوزير رئيس الرؤساء كما تقدم.

وبعث إليه وزيره أبو سعد النصراني بجرار خمر، فدس عليها الوزير قوماً ببغداد كانوا يقومون في تغيير المنكر فكسروها، وأراقوا خمرها فتأكدت الوحشة بذلك، واستفتى البساسيري الفقهاء الحنفية في ذلك فأفتوه باحترام مال النصراني، ولا يجوز كسرها عليه ويغرم من أتلفها.

وتأكدت الوحشة بين الوزير وبين البساسيري وكانت الوحشة بينه وبين الأتراك كما مر.

فدس الوزير بالشغب على البساسيري فشغبوا، واستأذنوا في نهب دوره، فأذن لهم من دار الخلافة فانطلقت أيدي النهب عليها، وأشاع رئيس الرؤساء أنه كاتب المستنصر العلوي صاحب مصر، واتسع الخرق، وكاتب القائم الملك الرحيم بإبعاد البساسيري، وأنه خلع الطاعة وكاتب المستنصر العلوي فأبعده الملك الرحيم.

استيلاء طغرلبك على بغداد والخليفة ونكبة الملك الرحيم وانقراض دولة بني بويه

كان طغرلبك قد سار غازياً إلى بلاد الروم فأثخن فيها، ثم رجع إلى الري فأصلح فسادها، ثم وصل همذان في المحرم سنة سبع وأربعين وأربعمائة عاملاً على الحج، وأن يمر بالشام ويزيل دولة العلوية بمصر.

وتقدم إلى أهل الدينور وقرميس وغيرهما بإعداد العلوفات والزاد في طريقه، وعظم الإرجاف بذلك في بغداد وكثر شغب الأتراك، وقصدوا ديوان الخلافة يطلبون القائم في الخروج معهم للمدافعة، وعسكروا بظاهر البلد.

فوصل طغرلبك إلى حلوان وانتشر أصحابه في طريق خراسان وأجفل الناس إلى غربي بغداد، وأصعد الملك الرحيم من واسط بعد أن طرد عنه البساسيري بأمر القائم، فلحق بدبيس بن صدقة صاحب الحلة لصهر بينهما.

وبعث طغرلبك إلى القائم بطاعته وإلى الأتراك بالمواعيد الجميلة، فرد الأتراك كتابه وسألوا من القائم رده عنهم فأعرض، وجاء الملك الرحيم يعرض نفسه فيما يختاره فأمر بتقويض الأتراك خيامهم، وأن يبعثوا بالطاعة لطغرلبك ففعلوا وأمر القائم الخطباء بالخطبة لطغرلبك، فبعث إلى طريقهم الوزير أبا نصر الكندري، وأمر الأجناد ثم دخل طغرلبك بغداد يوم الخميس ليومين من رمضان، ونزل بباب الشماسية، ووصل قريش صاحب الموصل وكان في طاعته قبل ذلك.

ثم انتشرت عساكر طغرلبك في البلد وأسواقها فوقعت الهيعة، وظن الناس أن الملك الرحيم أذن بقتال طغرلبك فأقبلوا من كل ناحية، وقتلوا الغز في الطرقات إلا أهل الكرخ فأنهم أمنوهم، وأجاروهم وشكر الخليفة لهم ذلك، ونمادى العامة في ثورتهم وخرجوا إلى معسكر طغرلبك.

ودخل الملك الرحيم بأعيان أصحابه إلى دار الخلافة تفادياً من الظنة به، وركبت عساكر طغرلبك فهزموا العامة وكسروهم، ونهبوا بعض الدروب ودورب الخلفاء والرصافة ودرب الدروب.

وكانت هذه الدروب قد نقل الناس إليها أموالهم ثقة باحترامها، وفشا النهب واتسع الخرق، وأرسل طغرلبك من الغد إلى القائم بالعتب على ما وقع، ونسبه إلى الملك الرحيم ويطلب حضوره وأعيان أصحابه فيكون براءة لهم، فأمرهم الخليفة بالركوب إليه، وبعث معهم رسوله ليبرئهم فساروا في ذمامه، وأمر طغرلبك بالقبض عليهم ساعة وصولهم.

ثم حمل الملك الرحيم إلى قلعة السيروان فحبس بها وذلك لست سنين من ولايته، وانقرض أمر بني بويه ونهب في الهيعة حلة قريش صاحب الموصل.

ونجا سليمان إلى خيمة بدر بن مهلهل فأجاره، ثم خلع عليه طغرلبك ورده إلى حلله.

ونقم القائم على طغرلبك ما وقع، وبعث في إطلاق المحبوسين فاتهم في ذمامه، وهدده بالرحيل عن بغداد فأطلق بعضهم ومحا عسكر الرحيم من الدواوين، وأذن لهم في السعي في معاشهم، فلحق كثير منهم بالبساسيري فكثر جمعه.

واستصفى طغرلبك أموال الأتراك ببغداد من أجله، وبعث إلى دبيس بإبعاده، فلحق بالرحبة وكاتب المستنصر صاحب مصر بالطاعة.

وخطب دبيس لطغرلبك في بلاده وانتشر الغز في سواد بغداد فنهبوه، وفشا الخراب فيه، وانجلى أهله، وولى طغرلبك البصرة والأهواز هزارسب فخطب لنفسه بالأهواز فقط، وأقطع الأمير أبا علي ابن الملك أبي كاليجار قرميسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذنوا في مساجدهم في نداء الصبح: الصلاة خير من النوم، وأمر بعمارة دار الملك فعمرت على ما اقترحه، وانتقل إليها في شوال سنة سبع وأربعين وأربعمائة واستقرت قدمه في الملك والسلطان، وكانت له الدولة التي ورثها بنوه وقومه السلجوقية ولم يكن للإسلام في العجم أعظم منها، والملك لله يؤتيه من يشاء.

الخبر عن دولة وشمكير وبنيه من الجيل إخوة الديلم وما كان لهم من الملك والسلطان بجرجان وطبرستان وأولية ذلك ومصائره

قد تقدم لنا ذكر مرداويج بن زيار، وأنه كان من قواد الديلم للأطروش، وأنه من الجيل إخوة الديلم، وكانت حالهم واحدة.

وكان منهم قواد للعلوية استظهروا بهم على أمرهم حتى إذا انقرضت دولة الأطروش وبنيه على حين فشل الدولة العباسية، ومحي أعمالها من السلطان، ساروا في النواحي لطلب الملك متفرقين فلما فملكوا الري وأصفهان وجرجان وطبرستان والعراقين وفارس وكرمان، وكل منهم في ناحية وتغلب بنو بويه على الخليفة وحجروه إلى آخر أيامهم.

وذكرنا أن مرداويج عندما استفحل ملكه بعث عن أخيه وشمكير من بلاد كيلان سنة عشرين وأربعمائة فاستظهر به على أمره، وولاه على الأعمال الجليلة، وكان قد استولى على أصفهان والري وأصبح من أعظم الملوك، وكان له أموال من الأتراك تنكروا له لشدته عليهم فاغتالوه، وقتلوه في محرم سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة، فاجتمعت العساكر بعده على أخيه وشمكير بالري، وبعث إلى ماكان بن كالي وهو بكرمان بعدما ملكها من أبي علي بن إلياس بالمسير إليه بالري مع ابن محتاج.

وسار ماكان على المفازة إلى الدامغان وبعث وشمكير قائده

تانجيز الديلمي مع جيش كثيف لاعتراضه، ومع ماكان عسكر ابن مظفر مدداً له، فتقاتلوا وهزمهم تانجيز فعادوا إلى نيسابور، وجعلت ولايتها لماكان وقد مر ذكر ذلك كله.

ثم سار تانجيز إلى جرجان وأقام بها، ثم هلك آخر السنة من سقطة عن فرسه، فاستولى عليها ماكان وحاصره ابن محتاج سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة فملكها وسار ماكان إلى طبرستان فأقام بها.

وكان ركن الدولة بن بويه غلب على أصفهان فبعث وشمكير عساكره إلى ماكان مدداً له في حروبه مع ابن محتاج، فاغتنم ركن الدولة خلو وشمكير من العساكر فسار إلى أصفهان فملكها، واتصل ما بينه وبين صاحب خراسان وانفرد وشمكير بملك الري.

استيلاء عساكر خراسان على الري والجيل وملك وشمكير طبرستان

لما ملك ركن الدولة أصفهان وصل يده بأبي علي بن محتاج صاحب خراسان، هو وأخوه عماد الدولة صاحب فارس، وحرضاه على أخذ الري من وشمكير رجاء أن يكون طرفاً لعمله فيتمكن به من ملكها، فسار أبو علي لذلك، واستمد وشمكير ما كان للمدافعة فجاء بنفسه.

وبعث ركن الدولة مدداً لابن محتاج فلقوه بإسحاقاباد وتقاتلوا فانهزم وشمكير ولحق بطبرستان فملكها، وقتل من كان بالمعركة واستولى أبو علي على الري.

ثم بعث أبو علي العساكر إلى بلد الجيل فاستولى على زنكان وأبهر وقزوين وكرج وهمذان ونهاوند والدينور إلى حلوان.

استيلاء الحسن بن الفيرزان على جرجان

كان الحسن بن الفيرزان ابن عم ماكان، وكان مناهضه في الصرامة، فلما قتل ماكان وملك وشمكير طبرستان بعث إليه بالدخول في طاعته فأبى، ونسبه إلى المواطأة على قتل ماكان فقصده وشمكير ففارق سارية وسار إلى ابن محتاج صاحب خراسان.

واستنجده فسار معه ابن محتاج وحاصر وشمكير بسارية حولاً كاملاً حتى رجع إلى طاعة ابن سامان، وأعطى ابنه سلار رهينة بذلك ورجع هو والحسن إلى خراسان وهو مكابده للصلح، ولقيهما موت سعيد بن سامان فثار الحسن بأبي علي بن محتاج ونهب سواده وأخذ ابن وشمكير الذي كان عنده، ورجع فملكها من يد إبراهيم بن سيجور الدواني ولحق ابن سيجور بنيسابور فعصى أبا علي بن محتاج كما مر في أخبارهم.

رجوع الري لوشمكير واستيلاء ابن بويه عليها

لما انصرف أبو علي إلى خراسان وفعل به الحسن ما ذكرناه، سار وشمكير إلى الري فملكها وراسله ابن الفيرزان يستميله، ورد عليه ابنه سلار فصانعه ولم يبالغ محافظة على عهد ابن محتاج.

ثم طمع ركن الدولة بن بويه في ملك الري لخلو يده وقلة عسكره فسار إليه وهزمه، واستأمن كثير من عسكره إليه وملك الري، ورجع وشمكير إلى طبرستان فاعترضه الحسن وهزمه فلحق بخراسان، وراسل ابن الفيرزان ركن الدولة بن بويه وواصله.

استيلاء وشمكير على جرجان

لما ملك ابن بويه الري من يد وشمكير ولحق طبرستان واعترضه ابن الفيرزان وهزمه، ولحق بخراسان سار إلى نوح بن سامان مستنجداً به، وبعث معه عسكراً، وأرسل إلى ابن محتاج صاحب خراسان بمظاهرته، فبعثه فيمن معه إلى جرجان وبها الحسن بن الفيرزان فهزمه وشمكير وملك جرجان.

استيلاء ركن الدولة على طبرستان وجرجان

لما ملك وشمكير جرجان من يد الحسن بن الفيرزان سار إلى ركن الدولة بن بويه، وأقام عنده بالري ثم سار سنة ست وثلاثين وثلاثمائة إلى بلاد وشمكير ولقيهم فهزموه وملك ركن الدولة طبرستان، وسار منها إلى جرجان، واستأمن إليه قواد وشمكير وولى الحسن بن الفيرزان على جرجان ورجع إلى الري وسار وشمكير إلى خراسان مستنجداً بابن سامان، فأمر منصور بن قراتكين صاحب خراسان أن يستوفد العساكر لإنجاده فسار معه، وكان مصطنعاً عليه، وكتب وشمكير إلى ابن سامان يشكو من ابن قراتكين، ثم كتب لأمير نوح إن أبي علي بن محتاج أن يسير معه

إلى الري فسار معه وقاتلوا ركن الدولة فلم يظفروا به حتى صالحهم كما تقدم، ورجع إلى وشمكير فانهزم أمامه إلى أسفرايين، وملك ابن بويه طبرستان وحاصر سارية وملكها، ولحق وشمكير بجرجان وسار إلى جرجان في طلب وشمكير إلى بلد الجبل واستولى ابن بويه عليها.

وفاة وشمكير وولاية ابنه بهستون

لما غلب بنو بويه على كرمان من يد أبي علي بن إلياس لحق وشمكير بالأمير منصور بن نوح ببخارى مستنصراً به، وأطمعه في ممالك بني بويه.

وأسرّ إليه أن قواده بخراسان لا يناصحونه في شأنه فكتب إلى أبي الحسن محمد بن إبراهيم بن سيجور صاحب خراسان بالمسير إلى الري بطاعة وشمكير والتصرف عن رأيه، واستعد ركن الدولة للقائهم واستنجد ابنه عضد الدولة وخالفهم إلى خراسان وبلغهم الخبر فتوقفوا بالدامغان يستطلعون الأخبار وركب وشمكير للصيد فاعترضه خنزير فرماه بحربة من يده فحمل عليه الخنزير فشب الفرس وسقط وشمكير إلى الأرض ومات من سقطته في محرم سنة سبع وخمسين وأربعمائة وانتقض جميع من كانوا معه، ولما مات وشمكير قام ابنه بهستون مقامه، وراسل ركن الدولة وصالحه فأمده بالعساكر والأموال.

وفاة بهستون وولاية أخيه قابوس

ثم توفي بهستون بن وشمكير بجرجان سنة ست وستين وثلاثمائة لسبع سنين من ولايته، وكان أخوه قابوس عند خاله رستم بجبل شهريار، وترك بهستون ابناً صغيراً بطبرستان في كفالة جده لأمه فطمع له جده في الملك وبادر به إلى جرجان وقبض على من كان عنده ميل إلى قابوس من القواد، وفي خلال ذلك وصل قابوس فخرج الجيش إليه واجتمعوا عليه وملكوه، وهرب أصحاب ابن منصور فكفله عمه قابوس وجعله أسوة بنيه، وقام بملك جرجان وطبرستان.

استيلاء عضد الدولة على جرجان وطبرستان

لما توفي ركن الدولة سنة ست وستين وثلاثمائة وعهد لابنه عضد الدولة وولى ابنه فخر الدولة على همذان وأعمال الجبل، وابنه مؤيد الدولة على أصفهان، وكان بختيار بن معز الدولة ببغداد فاستولى عليه.

ثم سار إلى أخيه فخر الدولة بهمذان فهرب إلى قابوس ونزل عضد الدولة الري، وبعث إلى قابوس في طلب أخيه فخر الدولة فأبى، فأمر أخاه مؤيد الدولة بخراسان أن يسير إليه، وأمده بالأموال والعساكر.

وسار إلى جرجان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة ولقيه فخر الدولة بخراسان عندما وليها حسام الدولة أبو العباس تاش من قبل الأمير أبي القاسم بن نوح، وكتب إلى العباس تاش يأمره بإنجاد قابوس بن وشمكير وفخر الدولة على مؤيد الدولة، وإعادة قابوس إلى بلده، فزحف في العساكر إلى جرجان وحاصرها شهرين حتى ضاقت أحوالهم. وكاتب مؤيد الدولة فائقاً الخاصة من قواد خراسان واستماله فوعده أن ينهزم بمن معه يوم اللقاء.

وخرج مؤيد الدولة فقاتلهم وانهزم فائق بمن معه كما وعد، ووقف حسام الدولة وفخر الدولة قليلاً، ثم اتبعوه منهزمين إلى خراسان.

ثم استدعى تاش لتدبير الدولة ببخارى بعد قتل الوزير العتبي، فسار إليه سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة مؤيد الدولة وكان من خبر وفاته ما قدمناه.

وقعت الفتنة بين تاش وابن سيجور وانهزم تاش إلى جرجان، وقابله فخر الدولة بكثير من الكرامة والنصرة بما لم يعهد مثله حسبما مر في أخبارهم.

ولما ملك فخر الدولة جرجان وطبرستان والري اعتزم على رد جرجان وطبرستان إلى قابوس رغباً لما كان بينهما كما بدار الغربة، وأنه الذي جر على قابوس الخروج عن ملكه فشاور عن ذلك وزيره الصاحب ابن عباد فلم يوافقه، وبقي مقيماً بخراسان، وانجده بنو سامان بالعساكر المرة بعد المرة فلم يقدر له الظفر حتى كان استيلاء سبكتكين.

عودة قابوس إلى جرجان وطبرستان

ولما ولي سبكتكين خراسان وعد قابوس برده إلى ملكه جرجان وطبرستان، ثم مضى إلى بلخ فمات سنة سبع وثمانين وثلاثمائة فأقام قابوس إلى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة فبعث الأصبهبد إلى جبل شهريار وعليه رستم بن المرزبان خال مجد

الدولة، وجمع له فقاتله وانهزم رستم واستولى أصبهبذ على الجبل، وخطب فيه لشمس المعالي قابوس.

وكان نائب ابن سعيد بناحية الاستنداوية وكان يميل إلى شمس المعالي فسار إلى آمد وطرد عنها عسكر مجد الدولة واستولى عليها، وخطب فيها لقابوس وكتب إليه بذلك.

ثم كتب أهل جرجان إلى قابوس يستدعونه فسار إليهم من نيسابور، وسار أصبهبذ، ويأتي ابن سعيد إليها من مكانهما فخرج إليهما عساكر جرجان فقاتلوهما فانهزم العسكر، ورجعوا إلى جرجان فلقوا مقدمة قابوس عندها فانهزموا ثانية إلى الري.

ودخل شمس المعالي قابوس جرجان في شعبان سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة وجاءت العساكر من الري لحصاره فأقاموا ودخل فصل الشتاء وتوالت عليهم الأمطار وعدمت الأقوات فارتحلوا وتبعهم قابوس وقاتلهم فهزمهم وأسر جماعة من أعيانهم، وملك ما بين جرجان وأستراباذ.

ثم أن الأصبهبذ حدث نفسه بالملك، واغتر بما اجتمع له من الأموال والذخائر فسارت إليه العساكر من الري مع المرزبان خال مجد الدولة فهزموه وأسروه، وأظهروا دعوة شمس المعالي بالجبل لأن المرزبان كان مستوحشاً من مجد الدولة، فانضافت مملكة الجبل جميعاً إلى مملكة جرجان وطبرستان، وولى عليها قابوس ابنه منوجهر ففتح الري وايات وشالوش وقارن ذلك استيلاء محمود بن سبكتكين على خراسان، فراسله قابوس وهاداه وصالحه على سائر أعماله.

مقتل قابوس وولاية ابنه منوجهر

كان شمس المعالي قابوس قد استفحل ملكه، وكان شديد السطوة مرهف الحد فعظمت هيبته على أصحابه وتزايدت حتى انقلبت إلى العتو، فأجمعوا على خلعه، وكان ببعض القلاع فساروا إليه ليمسكوه بها فامتنع عليهم فانتبهوا موجوده، ورجعوا إلى جرجان وجاهروا بالخلعان، واستدعوا ابنه من طبرستان فأسرع إليهم مخافة أن يولوا غيره، واتفقوا على طاعته بأن يخلع أباه فأجاب إلى ذلك كرهاً.

وسار قابوس من حصنه إلى بسطام يقيم بها حتى تضمحل الفتنة فساروا إليه، وأكرهوا منوجهر على المسير معهم وينفرد هو للعبادة بقلعة أبخيا وأذن له أبوه بالقيام بالملك حذراً من خروجه عنهم، وبقي المتولون لكبر تلك الفتنة من الجند مرتابين من قابوس، وكتبوا من جرجان إلى منوجهر يستأذنونه في قتله، ولم يتنظروا رد الجواب وساروا إليه فدخلوا عليه البيت وجردوه من ثيابه، فما زال يستغيث حتى مات من شدة البرد، وذلك سنة ثلاث وأربعمائة لخمس عشرة سنة من استيلائه، وقام بالملك ابنه منوجهر وخطب له على منابره ولم يزل في التدبير على الرهط الذين قتلوا أباه حتى أباد كثيراً منهم وشرد الباقين.

وفاة منوجهر وولاية ابنه أنوشروان

ولما سار محمود بن سبكتكين سنة عشرين وأربعمائة عندما قبض حاجبه على مجد الدولة، وملك الري بدعوة محمود، وسار إليه محمود فهرب منوجهر بن قابوس من جرجان، وبعث إليه بأربعمائة ألف دينار ليصلحه، وتحصن منه بجبال وعرة.

ثم أبعد المذهب ودخل في الغياض الملتفة، وأجابه محمود فبعث إليه منوجهر بالمال ونكب عنه في رجوعه إلى نيسابور.

ثم توفي منوجهر إثر ذلك سنة ست وعشرين وأربعمائة وولي بعده ابنه أنوشروان، فأقره محمود على ولايته وقرر عليه خمسمائة ألف أميري، وخطب لمحمود في بلاد الجبل إلى حدود أرمينية.

ثم استولى مسعود بن محمود أعوام الثلاثين على جرجان وطبرستان، ومحا دولة بني قابوس كأن لم تكن والبقاء لله وحده.

الخبر عن دولة مسافر من الديلم باذربيجان ومصائره

كانت أذربيجان عند ظهور الديلم وانتشارهم في البلاد واستيلائهم على الأعمال أعوام الثلاثين والثلاثمائة بيد رستم بن إبراهيم الكردي من أصحاب يوسف بن أبي الساج. وكان من خبره أن أباه إبراهيم من الخوارج من أصحاب هارون الشاري الخارج بالموصل هرب بعد مقتله إلى أذربيجان.

وأصهر في الأكراد إلى بعض رؤسائهم، فولد له ابنه رستم ونشأ في أذربيجان ولما كبر استضافه ابن أبي الساج، وتنقل في الأطوار إلى أن استولى على أذربيجان بعد يوسف بن أبي الساج، وكان معظم جيوشه الأكراد.

ولما استولى الديلم على البلاد وملك وشمكير الري ولى أعمال الجبل لشكري وجمع الأموال والرجال، وسار لشكري إلى أذربيجان ليملكها سنة ست وعشرين وثلاثمائة، وحاربه دسيم في

بعض جهات أذربيجان، واستولى لشكري على سائر بلاد أذربيجان إلا أردبيل، فإن أهلها امتنعوا ثقة بحصن بلادهم.

وراسلهم فلم يجيبوه وحاصرها وشد حصارها، وثلم سورها وملكها أياماً يدخل نهاراً ويخرج إلى عساكره ليلاً، ثم سدوا ثلم السور وامتنعوا وعادوا إلى الحصار.

واستدعوا دسيماً فجاء لقتال لشكري من ورائه، وناشبته أهل أردبيل القتال من أمامه فانهزم وقتل عامة أصحابه، وتحيزوا إلى موقان.

واستنجد أصبهذ بن دوالة فجمعوا وساروا إلى دسيم فانهزم أمامهم، وعبر نهر أرس، وقصد وشمكير في الري واستنجده، وضمن له مالاً كل سنة، فبعث معه عسكراً واستمال عسكر لشكري فداخلوه وكاتبوا وشمكير بالطاعة.

وعلم بذلك لشكري فتأخر إلى الزوزن عازماً على الموصل أن يملكها، ومر بأرمينية فنهب وسبى، ولما انتهى إلى الزوزن لقيه بعض الرؤساء من الأرمن وصانعه بالمال على بلده حتى كف عنها وأكمن له في مضيق بطريقه، ودس لبعض الأرمن أن ينهبوا شيئاً من ثقله، ويسلكوا المضيق، وكتب لشكري في أثرهم فقتله الكمين ومن معه، وقدم أهل العسكر عليهم ابنه الشكرستان، ورجعوا إلى بلد الطرم الأرميني ليثأروا من الأرمن بصاحبهم.

وكان أكثر بلده مضايق فقاتلهم الأرمن عليها وفتكوا فيهم، ولحق العسكر والشكرستان في الفل بالموصل فأقام بها عند ناصر الدولة بن حمدان، وكانت له معادن أذربيجان وولى عليها ابن عمه أبا عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان، وبعث معه الشكرستان وأصحابه فقاتلهم دسيم على المعادن، وغلبهم عليها ورجعوا واستولى دسيم على أذربيجان.

استيلاء المرزبان بن محمد بن مسافر على أذربيجان

كان محمد بن مسافر من كبار الديلم وكان صاحب الطرم وكان له أولاد كثيرون منهم سلار ومنهم صعلوك ومنهم وهشودان والمرزبان أمه بنت حسان ووهشودان ملك الديلم وقد مر خبره، وكان دسيم بن إبراهيم الكردي بعد مدافعة لشكري وابنه عن أذربيجان أقام عنده بعض الديلم من عسكر وشمكير الذين انجدوه على شأنه، ثم إن قومه من الأكراد استبدوا عليه بأطراف أعماله، وملكوا بعض القلاع فاستظهر عليهم بأولئك الديلم وغلبهم، واستدعى صعلوك بن محمد من قلعة أبيه الطرم فجاء إليه جماعة من الديلم وسار بهم إلى التي تغلب عليها الأكراد فانتزعها منهم، وقبض على جماعة منهم.

ثم استوحش منه وزيره أبو القاسم علي بن جعفر من أهل أذربيجان فهرب إلى الطرم ونزل على محمد بن مسافر عندما استوحش منه ابناه وهشودان والمرزبان، وغلبا على بعض قلاعه.

ثم قبضا عليه وانتزعا منه أمواله وذخائره فتقرب الوزير علي بن جعفر إلى المرزبان وكان يشاركه في دين الباطنية، وأطمعه في أذربيجان فاستوزره المرزبان، وكانت الديلم الذين عند دسيم وغيره من جنده واستمالهم فأجابوه، وسار المرزبان إلى أذربيجان وبرز دسيم للقائه فنزع الديلم إلى المرزبان، واستأمن إليه كثير من الأكراد، وهرب دسيم إلى أرمينية ونزل على صاحبها حاجيق بن الديراني.

وملك المرزبان أذربيجان سنة ثلاثين وثلاثمائة، وأساء وزيره علي بن جعفر السيرة مع أصحابه فتظافروا عليه وشرعوا في السعاية فيه، فأطمع المرزبان في أموال بتبريز يضمنها له. وسار إليها في عسكر من الديلم وأسرّ لأهلها أنه جاء لمصادرتهم، فوثبوا بمن معه من الديلم وقتلوهم، واستدعوا دسيم بن إبراهيم فجاء إلى تبريز وملكوه، ولحق به الأكراد الذين استأمنوا إلى المرزبان، فسار المرزبان في عساكره وحاصرهم دسيم بتبريز، وكاتب علي بن جعفر وحلف له على الوفاء بما يرومه منه فطلب منه السلامة، وترك العمل وأجابه واشتد الحصار على دسيم فهرب من تبريز إلى أردبيل، وخرج الوزير إليه فوفى له المرزبان.

ثم طلب دسيم أن ينزله بأهله بقلعة من قلاع الطرم ففعل وأقام المرزبان فيها.

استيلاء الروس على مدينة بردعة وظفر المرزبان بهم

هؤلاء الروس من طوائف الترك ويجاورون الروم في مواطنهم وأخذوا بدين النصرانية معهم منذ أزمان متطاولة وبلادهم تجاور بلاد أذربيجان فركبت طائفة منهم البحر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، ثم صعدوا من البحر في نهر اللكنهر، وانتهوا إلى مدينة بردعة من بلاد أذربيجان وبها المرزبان فخرج إليهم في نحو خمسة آلاف مقاتل من الديلم وغيرهم فهزمهم الروس، وقتلوا الديلم وتبعوهم إلى البلد فملكوه ونادوا بالأمان، وأحسنوا السيرة،

وجاءت العساكر الإسلامية من كل ناحية فلم يقدر عليهم.

وظاهرهم العوام والرعاع، فلما انصرفت العساكر غدرت الروسية بهم فقتلوهم، ونهبوا أموالهم واستعبدوهم.

وأحزن المسلمين ذلك واستنفر المرزبان الناس وسار لهم وأكمن لهم كميناً، وزحف إليهم، وخرجوا إليه واستطرد لهم حتى جاوزوا موضع الكمين، فاستمر أصحابه على الهزيمة ورجع هو مع أخيه وصاحب له مستميتين، وخرج الكمين من ورائهم واستلحم الروسية وأميرهم، ونجا فلهم إلى البلد فاعتصموا بحصنه، وكانوا قد نقلوا إليه السبي والأموال، وحاصرهم المرزبان وصابروه.

ثم إن ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل بعث إلى ابن عمه الحسين بن سعد بن حمدان في هذه السنة إلى أذربيجان ليملكها، فبلغ الخبر إلى المرزبان بأنه انتهى إلى سلماس، فجهز عسكراً إلى الروس وسار لقتال ابن حمدان، فقاتله أياماً ثم استدعاه ابن عمه ناصر الدولة من الموصل وأخبره بموت تورون وأنه سائر إلى بغداد، وأمره بالرجوع فرجع.

وأما الروس فحاصرهم العسكر أياماً واشتد فيهم الوباء فانقضوا من الحصن ليلاً وحملوا ما قدروا عليه من الأموال ولحقوا باللكن فركبوا سفنهم ومضوا إلى بلادهم، وطهر الله البلاد منهم.

مسير المرزبان إلى الري وهزيمته وحبسه

ولما سارت عساكر خراسان إلى الري وظن المرزبان أن ذلك يشغل ركن الدولة بن بويه عنه، وكان قد بعث رسوله إلى معز الدولة ببغداد فصرفه مذموماً مدحوراً، فاعتزم على غزو الري، وطمع في ملكه واستأمن إليه بعض قواد الري وأغراه بذلك.

وراسله ناصر الدولة بن حمدان يستحثه لذلك، ويشير عليه ببغداد قبل الري، وكتب ركن الدولة إلى أخويه عماد الدولة ومعز الدولة يستنجدهما، فبعثوا إليه بالعساكر، وسار بها من بغداد سبكتكين الحاجب.

ولما انتهى إلى الدينور انتقض عليه الديلم ووثبوا به، فركب في الأتراك فتخاذل الديلم وأعطوه الطاعة.

وكان المرزبان قبل وصول العساكر زحف إلى الري وهزمه ركن الدولة وحبسه، ورجع الفل إلى أذربيجان ومعهم محمد بن عبد الرزاق.

واجتمع أصحاب المرزبان على أبيه محمد بن مسافر، وأساء السيرة فهموا بقتله، وكان ابنه وهشودان قد هرب منه واعتصم بحصن له فلحق به أبوه محمد فقبض عليه وهشودان وضيق عليه حتى مات.

ثم استدعى دسيم الكردي من مكانه بقلعة الطرم حيث أنزله المرزبان عند ظفره به، وبعثه إلى محمد بن عبد الرزاق، وأقام بنواحي أذربيجان، ثم رجع إلى الري سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة واستعتب إلى سلطانه نوح بن سامان فأعتبه وعاد إلى طوس.

واستولى دسيم على أذربيجان لوالي القلعة حتى تمكنوا من قتله فقتله المرزبان، ولحق بأخيه وهشودان سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة.

وكان علي بن منكلى من قواد ركن الدولة قد لحق بوهشودان، وأغراه بدسيم، فبعثه وهشودان في العساكر، وكاتب الديلم واستمالهم، وسار إليه دسيم وخلف وزيره أبا عبد الله النعيمي بأردبيل فجمع مالاً كان صادره عليه، وهرب بما معه من المال إلى علي بن منكلى.

وبلغ الخبر إلى دسيم عند أذربيجان، فعاد إلى أردبيل، وشغب عليه الديلم ففرق فيهم ما كان معه من المال، وسار للقاء علي بن منكلى فالتقيا، وهرب الديلم الذين معه إلى علي بن منكلى، وانهزم هو إلى أرمينية.

ثم جاءه الخبر بأن المرزبان تخلص من محبسه بقلعة سيرم وملك أردبيل، واستولى على أذربيجان.

وأنفذ العساكر في طلبه فهزم دسيم إلى بغداد فأكرمه معز الدولة وأقام عنده.

ثم استدعاه شيعته بأذربيجان سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة فسار إليهم وطلب من معز الدولة المدد لأن أخاه ركن الدولة كان قد صالح المرزبان، فسار دسيم إلى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل، واستنجد به فلم ينجده، فسار إلى سيف الدولة، فأقام عنده بالشام.

فلما كان سنة أربع وأربعين خرج على المرزبان خارج باب الأبواب فسار إليه، وخالفه دسيم إلى أذربيجان فاستدعاه مقدم من الأكراد وملك سلماس فبعث إليه المرزبان قائداً من قواده فهزمه دسيم.

ولما فرغ المرزبان من أمر الخارج وعاد إلى أذربيجان هرب دسيم إلى أرمينية واستجاش بابن الديراني، وكتب إليه المرزبان يحمل دسيم إليه، فسلمه وحبسه حتى إذا توفي المرزبان قتله بعض أصحابه حذراً من فتنته.

وفاة المرزبان وولاية ابنه خستان

ثم توفي المرزبان صاحب أذربيجان سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وعهد بالملك إلى أخيه وهشودان وبعده لابنه خستان، وكان قد أوصى نوابه بالقلاع أن يسلموها لابنه خستان، ثم لأخويه إبراهيم وناصر، ثم إلى أخيه وهشودان عندما عهد بالعهد الثاني إلى أخيه عرفه بإمارات بينه وبين نوابه يرجعون إليها في ذلك.

وبعث إلى النواب عبد اللّه النعيمي وهرب وهشودان من أردبيل فلحق بالطرم وجاء قواد المرزبان إلى خستان بن شرمول فإنه كان مقيماً على أرمينية فانتقض بها.

مقتل خستان وإخوته واستيلاء عمهم وهشودان على أذربيجان

ولما ولي خستان بن المرزبان انغمس في لذاته وعكف على اللّهو، وقبض على وزيره أبي عبد اللّه النعيمي، وكان خستان بن برسموه منتقضاً بأرمينية وقد ملكها، وكان وزيره أبو الحسن عبد اللّه بن محمد بن حمدويه صهراً للوزير النعيمي فاستوحش لنكبته، وحمل صاحبه ابن سرمدان على مكاتبة إبراهيم بن المرزبان، فأطمعه في الملك وسار به إلى مراغة فملكها فراسله أخوه خستان، وسار إلى موقان وكان بأذربيجان رجل من ولد المكتفي متنكراً يدعو للرضا من آل محمد ويأمر بالعدل، ويلقب بالمجير، وكثرت جموعه، فبعث إليه النعيمي من موقان وأطمعه في الخلافة، وأن يملكه أذربيجان على أن يقصد بغداد ويترك لهم أذربيجان، فسارا إليه خستان وإبراهيم ابنا المرزبان فهزماه وقتلاه فلما رأى وهشودان الخلاف بين بني أخيه المرزبان استمال إبراهيم، وسار ناصر إلى موقان وطمع الجند في المال فساروا إلى ناصر وملكوا بهم أردبيل.

وطالبه الجند بالمال فعجز وقعد عمه وهشودان عن نصره وتبين له أنه كان يخادعه، فاجتمع مع أخيه خستان واضطربت عليهما الأمور وانتقضت أصحاب الأطراف فاضطرهما الحال إلى طاعة عمهما وهشودان وراسلاه في ذلك، واستحلفاه وقدما عليه مع أمهما، فغدر وقبض عليهم، وعقد الإمارة على أذربيجان لابنه إسماعيل، وسلم له أكثر قلاعه.

ولحق إبراهيم بن المرزبان بمراغة، وجمع لإستنقاذ أخويه ومنازعة إسماعيل فقتل وهشودان أخويه وأمهما، وأمر خستان بن سرمدان بقتال إبراهيم بمراغة وبعث إليه بالمدد.

وانضم إبراهيم إلى نواحي أرمينية سنة تسع وأربعين فاستولى ابن سرمدن على مراغة واستضافها إلى أرمينية، وجمع إبراهيم. وكانت ملوك أرمينية من الأرمن والأكراد، واصلح خستان بن سرمدن.

ثم جاء الخبر بوفاة إسماعيل ابن عمه فسار إلى أردبيل فملكها، وانصرف ابن منكلي إلى وهشودان، وزحف إليهما إبراهيم وهزمهما، فلحقا ببلاد الديلم، واستولى إبراهيم على أعمال وهشودان.

ثم جمع وهشودان وعاد إلى قلعته بالطرم، وبعث أبو القاسم بن منكلي العساكر لقتال إبراهيم فهزموه، ونجا إلى الري مستنجداً بركن الدولة لصهر بينهما.

استيلاء إبراهيم بن المرزبان ثانياً على أذربيجان

قد تقدم هزيمة إبراهيم بن المرزبان أمام عساكر ابن منكلي، وأنه لحق بركن الدولة مستنجداً به، فبعث معه الأستاذ أبا الفضل بن العميد في العساكر فاستولى على أذربيجان، وحمل أهلها على طاعة إبراهيم، وقاد له خستان بن سرمدن وطوائف الأكراد فتمكن من البلاد وكتب ابن العميد إلى ركن الدولة أن يعطيه ملكها.

ولعله يعوض إبراهيم عنها لكثرة جبايتها وقلة معرفة إبراهيم بالجباية، وأن يشهد فيها بالخروج عن ملكه فأبى من ذلك، وقال: لا أفعل ذلك بمن استجار بي فسلم له ابن العميد البلاد ورجع.

(تنبيه): أخبار بني مسافر المعروفين ببني السلار ملوك أذربيجان نقلتها من كتاب ابن الأثير وإلى هنا انتهى في أخبارهم وأحال على ما بعده فقال بعد ذلك: وكان الأمير كما ذكر ابن العميد قد أخذ إبراهيم وحبسه على ما ذكره، ولم نقف على ذكر شيء من أخبار إبراهيم بعد ذلك ولا من خبر قومه.

وذكر أن محمود بن سبكتكين بعد خبر استيلائه على الري سنة عشرين وأربعمائة أنه بعث إلى المرزبان بن الحسين بن حرابيل من أولاد ملوك الديلم، والتجأ إلى محمود فبعثه إلى بلاد السلار، وهو إبراهيم بن المرزبان بن إسماعيل بن وهشودان بن محمد بن مسافر الديلمي، وكان له من البلاد شهرخان وزنجان وشهرزور

وغيرها فقصدها واستمال الديلم.

وعاد محمود إلى خراسان فسار السلار إبراهيم إلى قزوين فملكها وقتل من عساكر محمود الذين بها وتحصن بقلعة الري، وكان بينهما وقائع ظهر فيها السلار، ثم استمال مسعود بن محمود طوائف من عسكره وجاؤوا إليه ودلوه على عورة الحصن الذي فيه السلار وسلكوا بعسكره من طرق غامضة.

وبعث إليه العسكر في رمضان سنة ست وعشرين وأربعمائة فانهزم، وقبض عليه مسعود وحمله إلى سرجهار وبها ولده، وطالب أن يسلم إليه القلعة فأبى، وعاود عنه، وتسلم بقية قلاعه، وأخذ أمواله وقرر على ابنه بسرجهار مالاً وعلى الأكراد الذين في جواره، وعاد إلى الري، وهذا السلار الذي ذكر غير السلار الأول، ولم يتصل الخبر بالخبر المتقدم.

ثم ذكر أخبار الغز الذين تقدموا بين يدي السلجوقية وانتشروا في بلاد الري وملكوها كثير من بلادها، ووصلت طائفة منهم إلى أذربيجان الذين كان مقدمهم بوقا وكوكتاش ومنصور ودانا.

دخول الغز أذربيجان

يقال: دخل هؤلاء الغز إلى أذربيجان وسمى صاحبها يومئذ وهشودان بن غلاك، فأكرمهم وصاهرهم يدافع شرهم بذلك، ويستميلهم لنصرته فلم يحصل من ذلك بطائل.

وعاثوا في البلاد أشد العيث ودخلوا مراغة سنة تسع وعشرين وأربعمائة فقتلوا أهلها وحرقوا مساجدها.

وفعلوا كذلك بالأكراد الهمذانية، فاتفق أهل البلاد على مدافعتهم.

وأصلح أبو الهيجاء ابن ريب الدولة ووهشوذان صاحبا أذربيجان، واتفقت كلمتهما واجتمع معهما أهل همذان فانصرفت تلك الطائفة عن أذربيجان، وافترقوا على الري كما تقدم في أخبارهم.

وبقي الغز الذين تقدموا قبلهم، فقاسى منهم أهل أذربيجان شدة، وفتك فيهم وهشودان بتبريز سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فتكة أوهنت منهم.

ودعا منهم جمعاً كثيراً إلى صنيع، وقبض على ثلاثين من مقدميهم فقتلهم، وفر الباقون من أرمينية إلى بلاد الهكارية من أعمال الموصل، وكانت بينهم وبين الأكراد وقائع ذكرناها في أخبار الغز بالموصل، ولم يعد ابن الأثير لبني المرزبان ملوك أذربيجان ذكراً إلى أن ذكر استيلاء طغرلبك على البلاد، والمفهوم من فحوى الأخبار أن الأكراد استولوا عليها بعد بني المرزبان والله أعلم.

استيلاء طغرلبك على أذربيجان

قال ابن الأثير: وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة سار طغرلبك إلى أذربيجان وقصد تبريز، وصاحبها الأمير منصور بن وهشوذان بن محمد الروادي فأطاعه وخطب له وحمل إليه، ورهن عنده ولده، فسار طغرلبك عنه إلى الأمير أبي الأسوار صاحب جنزة فأطاع وخطب، وكذلك سائر النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطبة، وانقاد العساكر إليه فأبقى عليهم بلادهم، وأخذ رهنهم وسار إلى أرمينية كذلك، وقصد ملاذكرد وهي للنصرانية، فعاث في بلادها وخرب أعمالها، وغزا من هنالك بلاد الروم وانتهى إلى أرزن الروم فأثخن في بلادهم ودوخها، وعاد ابن السلار إلى العراق وذكر ابن الأثير خلال هذا غزوة فضلون الكردي إلى الخزر من التركمان على ما مر أول الكتاب فقال: كان بيد فضلون الكردي قطعة كبيرة من أذربيجان فغزا إلى الخزر سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ودوج البلاد وقفل، فجاؤوا في أثره وكبسوه وقتلوا أيضاً بخط ملك الإنجاز إلى مدينة تفليس فقال: وفي سنة تسع وعشرين وأربعمائة زحف ملك الإنجاز إلى أذربيجان ليتعرف المسلمين على حين وصول الغز إلى أذربيجان وما فعلوه فيها، وسمع الأنجاز بأخبارهم فأجفلوا عن مخلفهم، ووصل وهشودان صاحب أذربيجان وصرف نظره إلى ملاطفة الغز ومصاهرتهم ليستعين بهم كما مر.

هذا آخر ما وجدناه من أخبار ملوك أذربيجان، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

الخبر عن بني شاهين ملوك البطيحة ومن ملكها من بعدهم من قرابتهم وغيرهم وابتداء ذلك ومصائره

كان عمران بن شاهين من المصامدة، وكان يتصرف في الجباية، وحصل بيده منها مال فتخوف وألح عليه الطلب فهرب إلى البطيحة ممتنعاً من الدولة.

وكان له نجدة وبأس وصبر على الشظف فأقام هنالك بين القصب والآجام يقتات بسمك الماء والطير، ويتعرض للرفاق التي

تمر بالطريق فيأخذها.

واجتمع إليه لصوص الصيادين فقوي وامتنع على السلطان، وتمسك بخدمة أبي القاسم بن البريدي صاحب البصرة فأمنه، ووصل حبل الطاعة بيده وقلده حماية تلك النواحي إلى الجامدة دفعاً لضرره عن السابلة، فعز جانبه وكثر جمعه وسلاحه، واتخذ معاقل على التلال بالبطائح وغلب على تلك النواحي، ولما استولى معز الدولة على بغداد، وقام بكفالة الخلافة والنظر في أمورها، أهمه شأن عمران هذا وامتناعه في معاقله في نواحي بغداد، فجهز إليه وزيره أبا جعفر الصيمري في العساكر، وسار إليه سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وتعددت بينهما الحروب والوقائع، ثم هزمه الصيمري.

ثم أتاه الخبر بمسيره إلى شيراز كما تقدم في أخبار دولتهم.

مسير العساكر إلى عمران بن شاهين وانهزامها

ولما انصرف الصيمري عن عمران عاد إلى حاله فبعث معز الدولة لقتاله روزبهان من أعيان الديلم في العساكر، فتحصن منه في مضايق البطائح، فطاوله فضجر روزبهان واستعجل قتاله فهزمه عمران وغنم ما معهم، فاستفحل وقوي وأفسد السابلة.

وكان أصحابه يطلبون الخفارة من جند السلطان إذا مروا بهم إلى ضياعهم ومعايشهم بالبصرة، فبعث معز الدولة بالعساكر مع المهلبي، وزحف إلى البطائح سنة أربعين وثلاثمائة ودخل عمران في مضائقه، وأشاروا عليه بالهجوم فلم يفعل، فكتب إليه معز الدولة بذلك بإشارة روزبهان فدخل المهلبي المضائق بجميع عسكره، وقد أكمن لهم عمران، فخرج عليهم الكمين وتقسموا بين القتل والغرق والأسر، ونجا المهلبي سابحاً في الماء.

وكان روزبهان متأخراً في الزحف فسلم، وأسر عمران كثيراً من قوادهم الأكابر ففاداه معز الدولة بمن في أسره من أهله وأصحابه، وقلده ولاية البطائح فاستفحل أمره.

ثم انتقض سنة أربع وأربعين وثلاثمائة لخبر بلغه عن مرض طرق معز الدولة، وأرجف أهل بغداد بموته، ومر به مال من الأموال يحمل إلى معز الدولة ومعه جماعة من التجار فكبسهم وأخذ جميع ما معهم.

ثم رد ذلك بعد إبلال معز الدولة من مرضه، وفسد ما بينهما من الصلح. ثم سار معز الدولة إلى واسط سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، فبعث العساكر من هنالك لقتال عمران مع أبي الفضل العباس بن الحسن، وقدم عليه نافع مولى ابن وجيه صاحب عمان يستنجده عليها، فانحدر إلى الأبلة، وبعث معه المراكب إلى عمان، وسارت عساكره إلى البطائح، فنزلوا الجامدة وسدوا الأنهار التي نصب إليها.

ثم رجع معز الدولة من الأبلة وطرقه المرض فجهز العساكر لقتال عمران، وعاد إلى بغداد فهلك، وولي بعده ابنه عز الدولة بختيار فأعاد العساكر المجمرة على عمران، وعقد معه الصلح فاستمر حاله.

ثم زحف بختيار إليه سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وأقام بواسط يتصيد شهراً، ثم بعث وزيره إلى الجامدة وطرق البطيحة فسد مجاري المياه وقلبها إلى أنهارها، وهي الجسور إلى العراق، ثم جاء المد من دجلة وخرب جميع ذلك.

ثم انتقل عمران إلى معقل آخر ونقل ماله إليه حتى إذا حسر المياه وانتهجت الطرق فقدوا عمران من مكانه، وطال عليهم الأمر وشغب الجند على الوزير فأمر بختيار بمصالحته على ألف ألف درهم، ولما رحل العسكر عنه ثار أصحابه في أطراف الناس فنهبوا كثيراً من العساكر ووصلوا إلى بغداد سنة إحدى وستين وثلاثمائة.

وفاة عمران بن شاهين وقيام ابنه الحسن مقامه ومحاربته عساكر عضد الدولة

ثم توفي عمران بن شاهين فجأة في محرم سنة تسع وستين وثلاثمائة لأربعين سنة من ثورته بعد أن طلبه الملوك والخلفاء ورددوا عليه العساكر فلم يقدروا عليه.

ولما هلك قام بعده ابنه الحسن فطمع عضد الدولة فيه، وجهز العساكر مع وزيره وسدوا عليه المياه وأنفق فيها أموالاً وجاء المد فأزالها، وبقوا كلما سدوا فوهة فتق الحسن أخرى وفتح الماء أمثالاً لها، ثم وافقهم في الماء فاستظهر عسكر الحسن وكان معه المظفر أبو الحسن ومحمد بن عمر العلوي الكوفي، فاتهمه بمراسلة الحسن وإفشاء سره إليه، وخاف أن تنقص منزلته عند عضد الدولة فطعن نفسه فمات، وأدرك بآخر رمق فقال: محمد بن عمر حملني على هذا، وحمل إلى ولده بكازرون فدفن هنالك، وأرسل عضد الدولة إلى العسكر من رجعه إليه وصالح الحسن بن عمران على مال يحمله وأخذ رهنه بذلك.

مقتل الحسن بن عمران وولاية أخيه أبي الفرج

كان الحسن بن عمران آسفاً على أخيه أبي الفرج وحنقاً عليه، ولم يزل يتحيل عليه إلى أن دعاه إلى عيادة أخت لهما مرضت، وأكمن في بيتها جماعة أعدها لقتله، فدخل الحسن منفرداً عن أصحابه، فأغلقوا الباب دونهم وقتلوه، وصعد أبو الفرج إلى السطح فأعلمهم بقتله ووعدهم فسكنوا.

ثم بذل لهم المال فأقروه، وكتب إلى بغداد بالطاعة، فكتب له بالولاية، وذلك لثلاث سنين من ولاية الحسن.

مقتل أبي الفرج وولاية أبي المعالي بن الحسن

ثم إن أبا الفرج لما قتل أخاه الحسن قدم الجماعة الذين قتلوه على أكابر القواد، وكان الحاجب المظفر بن علي كبير قواد عمران والحسن، فاجتمع إليه القواد وشكوا إليه فسكنهم فلم يرضوا وحملوه على قتل أبي الفرج فقتله، ونصب أبا المعالي ابن أخيه الحسن مكانه لأشهر من ولايته.

ثم تولى تدبيره بنفسه لصغره، وقتل من كان يخافه من القواد واستولى على أموره كلها.

استيلاء المظفر وخلع أبي المعالي

ثم إن المظفر بن علي الحاجب القائم بأمر أبي المعالي طمع في الاستقلال بأمر البطيحة فصنع كتاباً على لسان صمصام الدولة سلطان بغداد بولايته، وجاء به ركابي عليه أثر السفر وهو بدست إمارته فقرأه بحضرتهم، وتلقاه بالطاعة وعزل أبا المعالي وأخرجه مع أمه إلى واسط وكان يصلهما بالنفقة.

وأحسن السيرة بالناس، وانقرض بيت عمران بن شاهين، ثم عهد إلى ابن أخته علي بن نصر ويكنى أبا الحسن، وتلقب بالأمير المختار، وبعده إلى ابن أخته الأخرى ويكنى أبا الحسن ويسمى علي بن جعفر.

وفاة المظفر وولاية مهذب الدولة

ثم توفي الحاجب المظفر صاحب البطيحة سنة ست وسبعين وثلاثمائة لثلاث سنين من ولايته، وولي بعده ابن أخيه أبو الحسن علي بن نصر بعهده إليه كما مر.

وكتب إلى شرف الدولة سلطان بغداد بالطاعة، فقلده ولقبه مهذب الدولة، فأحسن السيرة وبذل المعروف وأجار الخائف، فقصده الناس وأصبحت البطيحة معقلاً، واتخذها الأكابر وطناً، وبنوا فيها الدور والقصور.

وكاتب ملوك الأطراف وصاهره بهاء الدولة بابنته، وعظم شأنه واستجار به القادر عندما خاف من الطائع، وهرب إليه فأجاره، ولم يزل عنده بالبطيحة ثلاث سنين إلى أن استدعي منها للخلافة سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

بعث ابن واصل على البطيحة وعزل مهذب الدولة

كان من خبر أبي العباس بن واصل هذا أنه كان ينوب عن رزبوك الحاجب، وارتفع معه ثم استوحش منه ففارقه وسار إلى شيراز، واتصل بخدمة فولاد وتقدم عنده، ثم قبض على فولاد فعاد إلى الأهواز.

ثم أصعد إلى بغداد، ثم خرج منها وخدم أبا محمد بن مكرم، ثم انتقل إلى خدمة مهذب الدولة بالبطيحة وتقدم عنده.

ولما استولى السكرستان على البصرة بعثه مهذب الدولة في العساكر لحربه فقتله وغلبه، ومضى إلى شيراز فأخذ سفن محمد بن مكرم وأمواله، ورجع إلى أسافل دجلة فتغلب عليها، وخلع طاعة مهذب الدولة، فأرسل إليه مائة سميرية مشحونة بالمقاتلة فغرق بعضها وأخذ ابن واصل الباقي وعاد إلى الأبلة فبعث إليه أبا سعيد بن ماكولا فهزمه ثانية، واستولى على ما معه وأصعد إلى البطيحة وخرج مهذب الدولة إلى شجاع بن مروان وابنه صدقة فغدروا به، وأخذوا أمواله، ولحق بواسط، واستولى ابن واصل على البطيحة وعلى أموال مهذب الدولة، وجمع ما كان لزوجه ابنة بهاء الدولة، وبعث به إلى أبيها وكانت قد لحقت ببغداد.

ثم اضطرب عليه أهل البطائح وبعث سبعمائة فارس إلى البلاد المجاورة فقاتلهم أهلها وظفروا بهم، وخشي ابن واصل على نفسه فعاد إلى البصرة وترك البطائح فوضى، ونزل البصرة في قوة

واستفحال.

وخشي أهل النواحي عاديته فسار بهاء الدولة من فارس إلى الأهواز ليتلافى أمره، واستدعى عميد الجيوش من بغداد وسيره في العساكر إليه فجاء إلى واسط، واستكثر من السفن وسار إلى البطائح وسار إليه ابن واصل من البصرة فهزمه وغنم ثقله وخيامه ورجع ابن واصل مفلولاً.

عود مهذب الدولة إلى البطيحة

ولما انهزم عميد الجيوش أقام بواسط فجمع عساكره لمعاودة ابن واصل، ثم بلغه أن نائب بن واسط بالبطائح قد خرج منها مخفلاً، فبعث إلى بغداد وبعث بالعساكر، وهمّ بالانتقاض فاستدعى عميد الجيوش مهذب الدولة من بغداد، وبعثه بالعساكر في السفن إلى البطيحة سنة خمس وستين وثلاثمائة فاستولى عليها.

واجتمع عليه أهل الولايات وأطاعوه، وقرر عليها بهاء الدولة خمسين ألف دينار في كل سنة، وشغل عن ابن واصل بتجهيز العساكر إلى خوزستان وطمع في الملك واجتمع عنده كثير من الديلم وأصناف الأجناد.

وسار إلى الأهواز وسير بهاء الدولة عسكراً للقائه فهزمهم، ودخل دار الملك وأخذ ما كان فيها، وبعث إلى بهاء الدولة في الصلح فصالحه وزاد في أقطاعه.

ثم بعث بهاء الدولة العساكر للقائه وسار إلى الأهواز وزحف إليها ابن واصل ومعه بدر بن حسنوية، فبعث بهاء الدولة الوزير بالبطيحة فهزمه الوزير ثانية، فمضى مع حسان بن محال الخفاجي الكوفي وملك إلى الكوفة، وملك البصرة.

وسار ابن واصل إلى دجلة قاصداً بدر بن حسنوية فبلغ جامعين فأنزله أصحاب بدر، وكان أصحاب أبي الفتح بن عنان قريباً منه فكبسه، وجاء به إلى بغداد فبعثه عميد الجيوش إلى بهاء الدولة فقتله سنة ست وتسعين وثلاثمائة كما مر في أخبار الدولة.

وفاة مهذب الدولة وولاية ابن اخته عبد الله بن نسى

ثم توفي مهذب الدولة عبد الله بن علي بن نصر في جمادى سنة ثمان وأربعمائة، وكان ابن أخته أبو عبد الله محمد بن نسى قائماً بأموره ومرشحاً للولاية مكانه، وقد اجتمع عليه الجند واستحلفهم لنفسه.

وبلغه قبل وفاة خاله أن ابنه أبا الحسن أحمد داخل بعض الجند في البيعة له بعد أبيه فاستدعاه، وحمله إليه الجند فقبض عليه، ودخلت إليه أمه فخبرته الخبر فلم يزد على الأسف له.

وتوفي مهذب الدولة من الغد، وولي أبو محمد بن نسى مكانه وقتل أبو الحسين ابن خاله لثلاث من وفاة أبيه.

وفاة ابن نسى وولاية السراني

ثم توفي أبو عبد الله محمد بن نسى لثلاثة أشهر من ولايته، واتفق الجند على ولاية أبي محمد الحسين بن بكر السراني من خواص مهذب الدولة فولوه عليهم، وبذل لسلطان الدولة ملك بغداد مالاً فأقره على ولايته.

نكبة السراني وولاية صدقة المازياري

وأقام أبو محمد السراني على البطيحة إلى سنة عشر وأربعمائة، وبعث سلطان الدولة صدقة بن فارس المازياري فنكبه وملك البطيحة، وبقي عنده أسيراً إلى أن توفي صدقة وخلص على ما يذكر.

وفاة صدقة وولاية سابور بن المرزبان

ثم توفي صدقة بن فارس المازياري في محرم لاثنتي عشرة سنة من ولايته، وكان سابور بن المرزبان بن مردان قائد جيشه.

وكان أبو الهيجاء محمد بن عمران بن شاهين قد تنقل بعد موت أبيه في البلاد بمصر، وعند بدر بن حسنويه حتى استقر عند الوزير أبي غالب، ونفق عنده بما كان لديه من الأدب.

عزل سابور وولاية أبي نصر

ثم إن أبا نصر بن مردان زاد في المقاطعة ولم يبلغها سابور، وتخلى عن الولاية وفارق البطيحة إلى جزيرة بني دبيس، واستقر أبو نصر في ولايتها. ثم عادت إلى أبي عبد الله الحسين بن بكر السراني.

عصيان أهل البطيحة على أبي كاليجار

وبعث أبو كاليجار سنة ثمان عشرة وأربعمائة وزيره أبا محمد بن نابهشاد إلى البطيحة، ومقدمها يومئذ أبو عبد الله الحسين بن بكر السراني فعسف بالناس في أموالهم، وقسط عليهم مقادير تؤخذ منهم فانجلوا إلى البلاد.

وعزم الباقون على قتل السراني، ونما الخبر إلى السراني فجاء إليهم واعتذر إليهم، وأوعدهم بالمساعدة وأشار عليه الوزير بإصلاح السفن حتى زحزحها بحيث لا يتمكن منها.

ثم وثبوا به فأخرجوه، وكان عندهم جماعة من عسكر جلال الدولة محبوسين فأخرجوهم، واستعانوا بهم وعادوا إلى الامتناع الذي كانوا عليه أيام مهذب الدولة فتم لهم ذلك.

ثم جاء ابن العبراني فغلب على البطيحة وأخرج منها السراني فلحق بيزيد بن مزيد، وأقام بها ابن العبراني سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة فزحف إليه أبو نصر بن الهيثم فغلبه عليه ونهبها واستقر في ملكها على مال يؤديه لجلال الدولة.

استيلاء أبي كاليجار على البطيحة

ولما كانت سنة تسع وثلاثين وأربعمائة بعث أبو كاليجار أبا الغنائم أبا السعادات الوزير في عسكر لحصار البطيحة فحاصرها، وبها أبو منصور بن الهيثم حتى جنح إلى الصلح، واستأمن نفر من أصحابه إلى أبي الغنائم وأخبروه بضعفه وعزمه على الهرب، فحفظ عليه الطرق ولما كان شهر صفر من السنة واقعهم أبو الغنائم فظفر بهم، وقتل من أهل البطيحة خلقاً كثيراً وغرقت منهم سفن متعددة وتفرقوا في الآجام، وركب ابن الهيثم السفن ناجياً بنفسه وأحرقت داره ونهب ما فيها.

ولاية مهذب الدولة بن أبي الخير على البطيحة

ثم كان بعد ذلك لبني أبي الخير ولاية على البطيحة فيما قبل المائة الخامسة وما بعدها ولا أدري ممن هؤلاء بنو أبي الخير، إلا أن ابن الأثير قال: كان إسماعيل ولقبه المصطنع، ومحمد ولقبه المختص، هما ابنا أبي الخير، ولهما رياسة قومهما، وهلك المختص وقام مكانه ابنه مهذب الدولة.

ونازع ابن الهيثم صاحب البطيحة إلى أن غلبه مهذب الدولة أيام كوهرايين الشحنة ببغداد، وكان بنو عمه وعشيرته تحت حكمه.

وأقطع السلطان محمد سنة خمس وتسعين وخمسمائة مدينة واسط لصدقة بن مزيد صاحب البطيحة والحلة فضمنها منه مهذب الدولة أحمد بن أبي الخير صاحب البطيحة، وفرق أولاده في الأعمال وطالبه صدقة بالأموال وحبسه وضمن حماد ابن عمه واسط.

وكان مهذب الدولة يصانع حماد ابن عمه إسماعيل ويداريه، وحماد يطمح إلى رياسته، فلما هلك كوهرايين نازع حماد مهذب الدولة ابن عمه، واجتهد مهذب الدولة في إصلاحه فلم يقدر، فجمع النفيس بن مهذب الدولة فهرب حماد إلى صدقة مستجيشاً به، فعاد بالجيش وحاربه مهذب الدولة وزاده صدقة المدد، فانهزم مهذب الدولة وهلك أكثر عسكره وقوي طمع حماد.

واستمد صدقة فأمده بالعساكر مع مقدم جيشه حميد بن سعيد.

وبعث مهذب الدولة لصاحب الجيش بالإقامات والصلات فمال إليه، وأصلح ما بينه وبين صدقة.

وبعث مهذب الدولة ابنه النفيس إلى صدقة فأصلح بينهم وبين حماد ابن عمهم، وكان ذلك أعوام الثلاثين.

ولاية نصر بن النفيس والمظفر بن حماد من بعده على البطيحة

ثم كان انتقاض دبيس بن صدقة أيام المسترشد والسلطان محمود، وكان البرسقي شحنة ببغداد فانتزع السلطان البطيحة من يد دبيس وأقطعها إلى سحان الخادم مولاه، فولى عليها نصر بن النفيس بن مهذب الدولة أحمد بن محمد بن أبي الخير.

وأمر السلطان محمود البرسقي بالمسير لقتال دبيس فاحتشد وسار لذلك ومعه نصر بن النفيس صاحب البطيحة، وابن عمه المظفر بن حماد بن إسماعيل بن أبي الخير، وبينهما من العداوة المتوارثة ما كان بين سلفهما.

والتقى البرسقي ودبيس وهزمه دبيس وجاءت العساكر منهزمة، وبقي نصر بن النفيس وابن عمه حماد عند ساباط النهر فقتله، ولحق بالبطيحة فملكها، وبعث إلى دبيس بطاعته، وبعث دبيس إلى الخليفة يصانعه بالطاعة على البعد، وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فقبض على منصور بن صدقة أخي دبيس وولده

فكحلهما فاستشاط دبيس وساء أثره في البلاد، وبعث إلى أحيائه بواسط فمنعهم الأتراك الذين بها، فبعث مهلهل بن أبي العسكر مقدم عساكره في جيش، وكتب إلى المظفر بن حماد صاحب البطيحة بمعاضدته على قتال واسط فتجهز وأصعد، وعاجل مهلهل الحرب قبل وصوله فهزمه أهل واسط وغنموا ما معه، وكان في جملتها بخط دبيس وصار معهم، وساءت آثار دبيس في البلاد، ولم يزل حال البطيحة على ذلك.

ثم صار أمرها لبني معروف وأجلاهم الخلفاء عنها.

إجلاء بني معروف من البطيحة

كان بنو معروف هؤلاء أمراء بالبطيحة في آخر المائة السادسة، ولا أدري ممن هم.

فلما استجمع للخلفاء أمرهم وخرجوا عن استبداد ملوك السلجوقية واقتطعوا الأعمال من أيديهم شيئاً فشيئاً فصار لهم الحلة والكوفة وواسط والبصرة وتكريت وهيت والأنبار والحديثة.

وجاءت دولة الناصر وبنو معروف على البطيحة وكبيرهم معلى.

قال ابن الأثير: وهم قوم من ربيعة، كانت بيوتهم غربي الفرات تحت سورا وما يتصل بها من البطائح، وكثرت أذياتهم وإفسادهم في النواحي.

وبلغت الشكوى بهم إلى الديوان فأمر الخليفة الناصر مغذاً الشريف متولي بلاد واسط أن يسير إلى قتالهم فاستعد لذلك، وجمع من سائر تلك الأعمال، فسار إليهم سنة ست عشرة وستمائة بالعير من بلاد البطيحة وفشا القتل بينهم.

ثم انهزم بنو معروف، وتفرقوا بين القتل والأسر والغرق، واستبيحت أموالهم وانتظمت البطيحة في أعمال الناصر، ولم يبق بها ملك ولا دولة.

الخبر عن دولة بني حسنويه من الأكراد القائمين بالدعوة العباسية بالدينور والصامغان ومبدأ أمورهم وتصاريف أحوالهم

كان حسنويه بن الحسين الكردي من طائفة الأكراد يعرفون بالريزنكاس، وعشيرة منهم يسمون الدويلتية، وكان مالكاً قلعة سرياج وأميراً على البرزفكان.

وورث الملك عن خاليه ونداد وغانم ابني أحمد بن علي، وكان صنفهما من الأكراد يسمون العبابية وغلبا على أطراف الدينور وهمذان ونهاوند والصامغان، وبعض نواحي أذربيجان إلى حدود شهرزور فملكاها نحواً من خمسين سنة، ولكل واحد منهما ألوف من العساكر، وتوفي ونداد بن أحمد سنة تسع وأربعين وثلاثمائة وقام مقامه ابنه أبو الغنائم عبد الوهاب إلى أن أسره الشادنجان من طوائف الأكراد، وسلموه إلى حسنويه فأخذ قلاعه وأملاكه.

وتوفي غانم سنة خمسين وثلاثمائة فقام ابنه أبو سالم دسيم مكانه بقلعة فتنان إلى أن أزاله أبو الفتح بن العميد، واستصفى قلاعه المسماة بستان وغانم أفاق وغيرهما.

وكان حسنويه حسن السيرة ضابطاً لأمره، وبنى قلعة سرماج بالصخور المهندسة وبنى بالدينور جامعاً كذلك، وكان كثير الصدقة للحرمين.

ولما ملك بنو بويه البلاد واختص ركن الدولة بالري وما يليه كان شيعة ومدداً على عدوه فكان يرعى ذلك، ويغضي عن أموره إلى أن وقعت بين ابن مسافر من قواد الديلم وكبارهم وقعة هزمه فيها حسنويه، وتحصن بمكان فحاصره فيه وأضرمه عليه ناراً فكاد يهلك.

ثم استأمن له فغدر به وامتعض لذلك ركن الدولة وأدركته نعرة العصبية، وبعث وزيره أبا الفضل بن العميد في العساكر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة فنزل همذان وضيق على حسنويه، ثم مات أبو الفضل فصالحه ابنه أبو الفتح على مال ورجع عنه.

وفاة حسنويه وولاية ابنه بدر

ثم توفي حسنويه سنة تسع وستين وثلاثمائة وافترق ولده على عضد الدولة لقتال أخويه محمد وفخر الدولة، وكانوا جماعة أبو العلاء وعبد الرزاق وأبو النجم بدر وعاصم وأبو عدنان ومختيار وعبد الملك.

وكان مختيار بقلعة سرماج ومعه الأموال والذخائر فكاتب عضد الدولة ورغب في طاعته، ثم رغب عنه فسير إليه عضد الدولة جيشاً وملك قلعته وغيرها من قلاعهم.

ولما سار عضد الدولة لقتال أخيه فخر الدولة وملك همذان

والري وأضافهما إلى أخيه مؤيد الدولة، ولحق فخر الدولة بقابوس بن وشمكير عرج عضد الدولة إلى ولاية حسنويه الكردي فافتتح نهاوند والدينور وسرماج وأخذ ما فيها من ذخائره، وكانت جليلة المقدار وملك معها عدة من قلاع حسنويه ووفد عليه أولاد حسنويه فقبض على عبد الرزاق وأبي العلاء وأبي عدنان، واصطنع من بينهم أبا النجم بدر بن حسنويه وخلع عليه وولاه على الأكراد وقواه بالرجال فضبط ملك النواحي وكف عادية الأكراد بها.

واستقام أمره فحسده أخواه، وأظهر عاصم وعبد الملك منهم العصيان، وجمعا الأكراد المخالفين وبعث عضد الدولة العساكر فأوقعوا بعاصم وهزموه وجاؤوا به أسيراً إلى همذان، ولم يوقف له بعد ذلك على خبر، وذلك سنة سبعين وثلاثمائة وقتل جميع أولاد حسنويه وأقر بدراً على عمله.

حروب بدر بن حسنويه وعساكر مشرف الدولة

ولما توفي عضد الدولة وملك ابنه صمصام الدولة ثار عليه أخوه مشرف الدولة بفارس، ثم ملك بغداد، وكان فخر الدولة بن ركن الدولة قد عاد من خراسان إلى مملكة أصفهان والري بعد وفاة أخيه مؤيد الدولة، وأوقع بينه وبين مشرف الدولة فكان مشرف الدولة يحقد عليه.

فلما استقر ببغداد وانتزعها من يد صمصام الدولة، وكان قائده قراتكين الجهشاري مدلاً عليه متحكماً في دولته، وكان ذلك يثقل على مشرف الدولة، جهزه في العساكر لقتال بدر بن حسنويه يروم إحدى الراحتين، فسار إلى بدر سنة سبع وسبعين وثلاثمائة ولقيه على وادي قرميسين، وانهزم بدر حتى توارى ولم يتلقوه ونزلوا في خيامه، ثم كر بدر فأعجلهم عن الركوب، وفتك فيهم واحتوى على ما معهم.

ونجا قراتكين في فل إلى جسر النهروان فلحق به المنهزمون، ودخل بغداد واستولى بدر على أعمال الجبل وقويت شوكته واستفحل أمره.

ولم يزل ظاهراً عزيزاً وقلد من ديوان الخلافة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة أيام السلطان بهاء الدولة ولقب ناصر الدولة.

وكان كثير الصدقات بالحرمين، وكثير الطعام للعرب بالحجاز لخفارة الحاج، وكف أصحابه من الأكراد عن إفساد السابلة فعظم محله وسار ذكره.

مسير ابن حسنويه لحصار بغداد مع أبي جعفر بن هرمز

كان أبو جعفر الحجاج بن هرمز نائباً بالعراق عن بهاء الدولة، ثم عزله فدال منه بأبي علي بن أبي جعفر أستاذ هرمز، وتلقب عميد الجيوش فأقام أبو جعفر بنواحي الكوفة، وقاتل عميد الجيوش فهزمه العميد.

ثم جرت بينهما حروب سنة ثلاث ستين وثلاثمائة وأقاما على الفتنة والاستنجاد بالعرب من بني عقيل وخفاجة وبني أسد، وبهاء الدولة مشتغل بحرب ابن واصل في البصرة.

واتصل ذلك إلى سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وكان ابن واصل قد قصد صاحب طريق خراسان وهو قلج، ونزل عليه واجتمعا على فتنة عميد الجيوش.

وتوفي قلج هذه السنة فولى عميد الجيوش مكانه أبا الفتح محمد بن قلج عنان عدو بدر بن حسنويه.

وفحل الأكراد المسامي لبدر في الشؤون وهو من الشادنجان من طوائف الأكراد، وكانت حلوان له فغضب لذلك بدر ومال إلى أبي جعفر، وجمع له الجموع من الأكراد مثل الأمير هندي بن سعدي، وأبي عيسى سادي بن محمد وورام بن محمد وغيرهم، واجتمع له معهم علي بن مزيد الأسدي، وزحفوا جميعاً إلى بغداد ونزلوا على فرسخ منها.

ولحق أبو الفتح بن عنان بعميد الجيوش، وأقام معه ببغداد حامياً ومدافعاً إلى أن وصل الخبر بهزيمة ابن واصل وظهور بهاء الدولة عليه، فأجفلوا عن بغداد.

وسار أبو جعفر إلى حلوان ومعه أبو عيسى، وراسل بهاء الدولة، ثم سار ابن حسنويه إلى ولاية رافع بن معن من بني عقيل يجتمع مع بني المسيب في المقلد، وعاث فيها لأنه كان آوى أبا الفتح بن عنان حين أخرجه بدر من حلوان وقرميسين، واستولى عليها فأرسل بدر جيشاً إلى أعمال رافع بالجناب ونهبوها وأحرقوها.

وسار أبو الفتح بن عنان إلى عميد الجيوش ببغداد فوعده النصر حتى إذا فرغ بهاء الدولة من شأن ابن واصل وقتله، أمر عميد الجيوش بالمسير إلى بدر بن حسنويه لإعانته على بغداد وإمداده ابن واصل فسار لذلك، ونزل جنديسابور وبعث إليه بدر في الصلح على أن يعطيه ما أنفق على العساكر فحمل إليه ورجع

عنه.

انتقاض هلال بن بدر بن حسنويه على أبيه وحروبهما

كانت أم هلال هذا من الشاذنجان رهط أبي الفتح بن عنان وأبي الشوك بن مهلهل، واعتزلها أبوه لأول ولادته فنشأ مبعداً عن أبيه، واصطفى بدر ابنه الآخر أبا عيسى وأقطع هلالاً الصامغان، فأساء مجاورة ابن المضاضي صاحب شهرزور وكان صديقاً لبدر فنهاه عن ذلك فلم ينته وبعث ابن المضاضي يتهدده فبعث إليه أبوه بالوعيد فجمع وقصد ابن المضاضي وحاصره في قلعة شهرزور حتى فتحها، وقتل ابن المضاضي واستباح بيته.

فاتسع الخرق بينه وبين أبيه، واستمال أصحاب أبيه بدر، وكان بدر نسيكاً فاجتمعوا إلى هلال وزحف لحرب أبيه والتقيا على الدينور، وانهزم بدر وحمل أسيراً إلى ابنه هلال فرده في قلعته للعبادة، وأعطاه كفايته بعد أن ملك الحصن الذي تملكه بما فيه.

فلما استقر بدر بالقلعة حصنها وأرسل إلى أبي الفتح بن عنان وإلى أبي عيسى سادي بن محمد بأستراباذ وأغراهما بأعمال هلال، فسار أبو الفتح إلى قرميسين وملكها، وأساء الديلم فاتبعه هلال إليها ووضع السيف في الديلم.

وأمكنه ابن رافع من أبي عيسى فعفا عنه وأخذه معه، وأرسل بدر من قلعته يستنجد بهاء الدولة فبعث إليه الوزير فخر الملك في العساكر، وانتهى إلى سابورخواست.

واستشار هلال أبا عيسى بن سادي فأشار عليه بطاعة بهاء الدولة وإلا فالمطاولة وعدم العجلة باللقاء فاتهمه وسار العسكر ليلاً فكبسه.

وركب فخر الملك في العسكر وثبت، فبعث إليه هلال بأني إنما جئت للطاعة.

ولما عاين بدر رسوله طرده وأخبر الوزير أنها خديعة فسر بذلك، وانتفت عنه الظنة ببدر، وأمر العساكر بالزحف فلم يكن بأسرع من مجيء هلال أسيراً فطلب منه تسليم القلعة لبدر فأجاب على أن لا يمكّن أبوه منه، واستأمنت أمه ومن معها بالقلعة فأمنهم الوزير وملك القلعة، وأخذ ما فيها من الأموال يقال أربعون ألف بدرة دنانير، وأربعمائة ألف بدرة دراهم سوى الجواهر والثياب والسلاح، وسلم الوزير فخر الملك القلعة لبدر وعاد إلى بغداد.

استيلاء ظاهر بن هلال على شهرزور

كان بدر بن حسنويه قد نزل عن شهرزور لعميد الجيوش ببغداد، وأنزل بها نوبة، فلما كانت سنة أربع وأربعمائة، وكان هلال بن بدر معتقلاً سار ابنه ظاهر إلى شهرزور، وقاتل عساكر فخر الملك منتصف السنة وملكها من أيديهم.

وأرسل إليه الوزير يعاتبه ويأمره بإطلاق من أسر من أصحابه ففعل، وبقيت شهرزور بيده.

مقتل بدر بن حسنويه وابنه هلال

ثم سار بدر بن حسنويه أمير الجيل إلى الحسن بن مسعود الكردي ليملك عليه بلاده، وحاصره بحصن كوسجة، وأطال حصاره فغدر أصحاب بدر وأجمعوا قتله.

وتولى ذلك الجورقان من طوائف الأكراد فقتلوه وأجفلوا فدخلوا في طاعة شمس الدولة بن فخر الدولة صاحب همذان وتولى الحسين بن مسعود تكفين بدر ومواراته في مشهد علي.

ولما بلغ ظاهر بن هلال مقتل جده وكان هارباً منه بنواحي شهرزور، وجاء لطلب ملكه، فقاتله شمس الدولة فهزمه وأسره وحبسه بهمذان، واستولى على بلاده، وصار الكرية والشاذنجان من الأكراد في طاعة أبي الشوك.

وكان أبوه هلال بن بدر محبوساً عند سلطان الدولة ببغداد فأطلقه وجهز معه العساكر ليستعيد بلاده من شمس الدولة، فسار ولقيه شمس الدولة فهزمه وأسره وقتله، ورجعت العساكر منهزمة إلى بغداد.

وكان في ملك بدر سابور خواست والدينور وبروجرد ونهاوند وأستراباذ وقطعة من أعمال الأهواز وما بين ذلك من القلاع والولايات، وكان عادلاً كثير المعروف عظيم الهمة.

ولما هلك هو وابنه هلال بقي حافده ظاهر محبوساً عند شمس الدولة بهمذان.

مقتل ظاهر بن هلال واستيلاء أبي الشوك على بلادهم ورياستهم

كان أبو الفتح محمد بن عنان أمير الشادنجان من الأكراد، وكانت بيده حلوان وأقام عليها أميراً وعلى قومه عشرين سنة.

وكان يزاحم بدر بن حسنويه وبنيه في الولايات والأعمال بالجبل.

وهلك سنة إحدى وأربعمائة وقام مكانه ابنه أبو الشوك، وطلبته العساكر من بغداد فقاتلهم وهزموه، فامتنع بحلوان إلى أن أصلح حاله مع الوزير فخر الملك لما قدم العراق بعد عميد الجيوش من قبل بهاء الدولة.

ثم إن شمس الدولة ابن فخر الدولة بن بويه أطلق ظاهر بن هلال بن بدر من محبسه بعد أن استحلفه على الطاعة، وولاه على قومه وعلى بلاده بالجبل، وأبو الشوك صاحب حلوان والسهل، وبينهما المنافسة القديمة، فجمع ظاهر وحارب أبا الشوك فهزمه وقتل سعدي بن محمد أخاه.

ثم جمع ثانية فانهزم أبو الشوك أيضاً وامتنع بحلوان وملك ظاهر عامة البسيط، وأقام بالنهروان.

ثم تصالحا وتزوج ظاهر أخت أبي الشوك فلما أمنه ظاهر وثب عليه أبو الشوك فقتله بثأر أخيه سعدي ودفنه أصحابه بمقابر بغداد، وملك سائر الأعمال ونزل الدينور.

ولما استولى علاء الدولة بن كاكويه على همذان سنة أربع عشرة وأربعمائة عندما هزم عساكر شمس الدولة بن بويه واستبد عليه، سار إلى الدينور فملكها من يد أبي الشوك، ثم إلى سابورخواست وسائر تلك الأعمال.

وسار في طلب أبي الشوك فأرسل إليه مشرف الدولة سلطان بغداد وشفع فيه فعاد عنه علاء الدولة.

ولما زحف الغز إلى بلاد الري سنة عشرين وأربعمائة وملكوا همذان وعاثوا في نواحيها إلى أستراباذ وقرى الدينور، خرج إليهم أبو الفتح بن أبي الشوك وقاتلهم فهزمهم وأسر منهم جماعة، ثم عقد الصلح معهم على إطلاق أسراهم ورجعوا عنه.

ثم استولى أبو الشوك سنة ثلاثين وأربعمائة على قرميسين من أعمال الجبل، وقبض على صاحبها من الأكراد الترهية وسار أخوه إلى قلعة أرمينية فاعتصم بها من أبي الشوك، وكانت لهم مدينة خولنجان، فبعث إليها عسكراً فلم يظفروا وعادوا عنها.

ثم جهز آخر وبعثهم ليومهم يسابقون جندهم، ومروا بأرمينية فنهبوا ربضها، وقاتلوا من ظفروا به، وانتهوا إلى خولنجان فكبسوها على حين غفلة واستأمن إليهم أهلها وتحصن الحامية بقلعة وسط البلد فحاصروها وملكوها عليهم في ذي القعدة من السنة.

الفتنة بين أبي الفتح بن أبي الشوك وعمه مهلهل

كان أبو الفتح بن أبي الشوك نائباً عن أبيه بالدينور، واستفحل بها وملك قلاعاً عدة، وحمى أعماله من الغز فأعجب بنفسه ورأى التفوق على أبيه.

وسار في شعبان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة إلى قلعة بكورا من قلاع الأكراد وصاحبها غائب وبها زوجته فراسلت مهلهلاً لتسلم له القلعة نكاية لأبي الفتح، وكانت حلة مهلهل في نواحي الصامغان فانتظر حتى عاد أبو الفتح عن القلعة وجمع العساكر لحصارها، وسار إليها أبو الفتح فورى له عن قصده، ورجع فأتبعه أبو الفتح فقاتله عمه مهلهل، ثم ظفر به وأسره وحبسه، وجمع أبو الشوك وقصد شهرزور وحاصرها.

ثم قصد بلاد مهلهل وطال الأمر ولج مهلهل في شأنه وأغرى علاء الدولة بن كاكويه ببلد أبي الفتح فملك عليه الدينور وقرميسين سنة اثنتين وثلاثين.

ثم سار أبو الشوك إلى دقوقا وقدم إليها ابنه سعدي فحاصرها وجاء على أثره فنقبوا سورها وملكها عنوة، ونهب بعض البلد وأخذت أسلحة الأكراد وثيابهم، وأقام أبو الشوك بها ليلة.

ثم بلغه أن أخاه سرخاب بن محمد قد أغار على مواضع من ولايته فخاف على البندنجين.

ورجع وبعث إلى جلال الدولة سلطان بغداد يستنجده، فبعث إليه العساكر وأقاموا عنده، وسار مهلهل إلى علاء الدولة بن كاكويه يستصرخه على أخيه أبي الشوك على الاعتصام بقلعة السيروان.

ثم بعث إلى علاء الدولة يعرض له بالرجوع إلى جلال الدولة صاحب بغداد فصالحه على أن يكون الدينور لعلاء الدولة ورجع عنه.

ثم سار أبو الشوك إلى شهرزور فحاصرها وعاث في سوادها، وحصر قلعة بيزازشاه فدافعه أبو القاسم بن عياض عنها، ووعده بخلاص ابنه أبي الفتح من أخيه مهلهل، فسار من شهرزور إلى نواحي سند من أعمال أبي الشوك، ولما بعث إليه ابن عياض بالصلح مع أخيه أبي الشوك امتنع فسار أبو الشوك من حلوان إلى الصامغان.

ونهب ولاية مهلهل كلها وأجفل مهلهل بين يديه.

ثم تردد الناس بينهما في الصلح وعاد عنه أبو الشوك.

استيلاء نيال أخي طغرلبك على ولاية أبي الشوك

ثم سار إبراهيم نيال بأمر أخيه طغرلبك من كرمان إلى همذان فملكها، ولحق كرساشف بن علاء الدولة بالأكراد الجورقان وكان أبو الشوك حينئذ بالدينور ففارقها إلى قرميسين وملكها نيال.

وسار في اتباعه إلى قرميسين ففارقها إلى حلوان وترك كل من في عسكره من الديلم والأكراد الشادنجان.

وسار إليها نيال وملكها عليهم عنوة واستباحها وفتك في العسكر ولحق فلهم بأبي الشوك في حلوان فقدم أهله وذخيرته إلى قلعة السيروان وأقام.

ثم سار نيال إلى الصيمرة فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها في الجورقان فانهزموا.

وكان عندهم كرساشف بن علاء الدولة فلحق ببلد شهاب الدولة وشرد أهلها في البلاد، ووصل إليها نيال آخر شعبان فملكها وأحرقها، وأحرق دار أبي الشوك.

وسارت طائفة من الغز في أثر جماعة منهم فأدركوهم بخانقين فغنموا ما معهم، وانتشر الغز في تلك النواحي.

وتراسل أبو الشوك وأخوه مهلهل وكان ابنه أبو الفتح قد مات في سجن مهلهل، فبعث مهلهل ابنه وحلف له أنه لم يقتله، وإن ثبت فاقتل أبا الغنائم بثأره فقبل ورضي، واصطلحا على دفاع نيال عن أنفسهما.

وكان أبو الشوك قد أخذ ممتلكات سرخاب أخيه ما عدا قلعة دوربلونه، وتقاطعا لذلك، فسار سرخاب إلى البندنجين وبها سعدي بن أبي الشوك، ففارقها سعدي إلى أبلة ونهبها سرخاب.

وفاة أبي الشوك وقيام أخيه مهلهل مقامه

ثم توفي أبو الشوك فارس بن محمد سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقلعة السيروان من حلوان وقام مقامه أخوه مهلهل واجتمع إليه الأكراد مائلين إليه عن ابن أخيه سعدي بن أبي الشوك فلحق سعدي بنيال أخي طغرلبك يستدعيه لملك البلاد.

ولما استولى مهلهل بعد موت أخيه أبي الشوك وكان نيال عندما غدا من حلوان ولى على قرميسين بدر بن ظاهر بن هلال بن بدر بن حسنويه، فسار إليها مهلهل سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة، فهرب بدر عنها وملكها وبعث ابنه محمداً إلى الدينور وبها عساكر نيال فهزمهم وملكها.

استيلاء سعدي بن أبي الشوك على أعمالهم بدعوة السلجوقية

ولما ملك مهلهل بعد أخيه أبي الشوك تزوج بأم سعدي وأهله وأساء معاملة الأكراد الشادنجان فراسل سعدي نيال.

وسار إليه بالشادنجان فبعث معهم عسكراً من الغز سنة تسع وثلاثين وأربعمائة فملك حلوان وخطب فيها لإبراهيم نيال.

ورجع إلى مابدشت، فخالفه عمه مهلهل إلى حلوان فملكها، وقطع منها خطبة نيال فعاد سعدي إلى عمه سرخاب فكبسه ونهب حلله وسير إلى البندنجين جمعاً فقبضوا على نائب سرخاب ونهبوها، وصعد سرخاب إلى قلعة دوربلونة، وعاد سعدي إلى قرميسين، وبعث مهلهل ابنه بدراً إلى حلوان فملكها، فجمع سعدي وأكثر من الغز، وسار فملك حلوان، وتقدم إلى عمه مهلهل فلحق بتيرازشاه من قلاع شهرزور واستباح الغز سائر تلك النواحي.

وحاصر سعدي تيرازشاه ومعه أحمد بن ظاهر قائد نيال، ونهب الغز حلوان وأراد مهلهل أن يسير إلى ابن أخيه فتكاسلوا، ثم قطع سعدي البندنجين لأبي الفتح بن دارم على أن يحاصر معه عمه سرخاب بقلعة دوربلونة، فساروا إليها وكانت ضيقة المسلك، فدخلوا المضيق فلم يخلصوا، وأسر سعدي وأبو الفتح وغيرهما من الأعيان، ورجع الغز عن تلك النواحي بعد أن كانوا ملكوها.

نكبة سرخاب واستيلاء نيال على أعمالهم كلها

ثم إن سرخاب لما قبض سعدي ابن أخيه أبي الشوك غاضبه ابنه أبو العسكر واعتزله، وكان سرخاب قد أساء السيرة في الأكراد فاجتمعوا وقبضوا عليه وحملوه إلى نيال، فاقتلع عينه وطالبه بإطلاق سعدي بن أبي الشوك فأطلقه أبو العسكر ابنه واستحلفه على السعي في خلاص أبيه سرخاب، فانطلق سعدي،

واجتمع عليه كثير من الأكراد، وسار إلى نيال فاستوحش منه، وسار إلى الدسكرة وكاتب أبا كاليجار بالطاعة.

ثم سار إبراهيم نيال إلى قلعة كلجان وامتنعت عليهم، ثم حاصروا قلعة دوربلونة فتقدمت طائفة إلى البندنجين فنهبوها، وسار إبراهيم فيها بالنهب والقتل والعقوبة في المصادرة حتى يموتوا.

وتقدمت طائفة إلى الفتح فهرب وترك حلله، فعرجوا عليها واتبعوه فقاتلهم وظفر بهم، وبعث مستنجداً فلم ينجدوه، فعبر وأمر بنزول حلله إلى جانب الغز.

وكان سعدي بن أبي الشوك نازلاً على فرسخين من باجس فكبسه الغز فهرب وترك حلله وغنمها الغز ونهبوا تلك الأعمال والدسكرة والهارونية وقصر سابور، وتقسم أهلها بين القتل والغرق والهلاك بالبرد.

ووصل سعدي إلى دبال ولحق منها بأبي الأغر دبيس بن مزيد، فأقام عنده وحاصر نيال قلعة السيروان وضيق عليها وضربت سراياه في البلاد وانتهت إلى قرب تكريت.

ثم استأمن أهل قلعة السيروان إلى نيال فملكها وأخذ منها ذخيرة سعدي، وولى عليها من أصحابه.

ثم مات صاحب قلعة السيروان وبعث وزيره إلى شهرزور فملكها، وهرب مهلهل وأبعد في الهرب، وحاصر عسكر نيال قلعة هوازشاه.

ثم راسل مهلهل أهل شهرزور بالتوثب بالغز الذين عندهم فقتلوهم ورجع قائد نيال ففتك فيهم.

ثم سار الغز المقيمون بالبندنجين إلى نهر سليلي، وقاتلوا أبا دلف القاسم بن محمد الجاواني فهزمهم وظفر بهم وغنم ما معهم.

وسار في ذي الحجة جمع من الغز إلى بلد علي بن القاسم فعاثوا فيها، فأخذ عليهم المضيق فأوقع بهم واسترد ما غنموه.

ولم يزل أحمد بن ظاهر قائد نيال محاصراً قلعة تيرازشاه في شهرزور إلى أن دخلت سنة أربعين وأربعمائة، ووقع الموتان في عسكره واستمد نيال فلم يمده، فرحل عنها إلى مايدشير، وبلغ ذلك مهلهلاً فبعث أحد أولاده إلى شهرزور فملكها، وأجفل الغز من السيروان، وسارت عساكر بغداد إلى حلوان وحاصروا قلعتها ولم يظفروا فنهبوا مخلف الغز وخربوا الأعمال، وسار مهلهل إلى بغداد فأنزل أهله وأمواله بها، وأنزل حلله على ستة فراسخ منها، فسار عسكر من بغداد إلى البندنجين وقاتلوا الغز الذين بها فهزمهم الغز وقتلوهم جميعاً.

بقية أخبار مهلهل وابن أبي الشوك وانقراض أمرهم

ثم سار مهلهل أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبك سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة فأحسن إليه وأقره على أقطاعه السيروان ودقوقا وشهرزور والصامغان، وسعى في أخيه سرخاب وكان محبوساً عنده فأطلقه وسوغه قلعة الماهكي، وكانت له فسار إليها، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الراندنبين ثم بعثه سنة ست وأربعين في عسكر من الغز إلى نواحي العراق، فنزل بمابدشت وسار منها إلى أبي دلف الجاواني، فهرب بين يديه وأدركه فنهب أمواله وفلت بنفسه.

وكان خالد ابن عمه مع الوزير ومطر ابني علي بن معن العقيلي، فوفد أولادهم على سعدي يشكون مهلهلاً فوعدهم النصر، ورجعهم من عنده فاعترضهم أصحاب مهلهل فأسرهم بنو عقيل ففداهم مهلهل وأوقع بهم على تل عكبرا ونهبهم، فساروا إلى سعدي وهو بسامراء، وأتبع عمه مهلهلاً وظفر به وأسره وأسر مالكاً ابنه، وورد غنائم بني عقيل ورجع إلى حلوان.

واضطربت بغداد واجتمعت عساكر الملك الرحيم ومعهم أبو الأغر دبيس بن مزيد يسعى عند سعدي في أبيه.

وكان ابن سعدي عند السلطان طغرلبك رهينة فرده على أبيه عوضاً عن مهلهل، وأمره بإطلاق مهلهل، فامتعض لذلك سعدي وعصى على طغرلبك.

وسار إلى حلوان فامتنعت عليه، وأقام يتردد بين رشقباد والبردان.

وأظهر مخالفة طغرلبك، ورجع إلى طاعة الملك الرحيم، فبعث طغرلبك العساكر مع بدران بن مهلهل إلى شهرزور، ووجد إبراهيم بن إسحاق من قواده فأوقعوا به، ومضى إلى قلعة رشقباد.

وسار بدر بن مهلهل إلى شهرزور ورجع إبراهيم بن إسحاق إلى حلوان فأقام بها، ثم نهض سنة ست وأربعين إلى الدسكرة فنهبها واستباحها، وسار إلى رشقباد وهي قعلة سعدي وفيها ذخيرته، وفي القلعة البردان فامتنعت عليه فخرب أعماله ووهن الديلم في كل ناحية.

وبعث طغرلبك أبا علي بن أبي كاليجار صاحب البصرة في عسكر من الغز إلى الأهواز فملكها، ونهبها الغز ولقي الناس منهم

عيثاً بالنهب والمصادرة، وأحاطت دعوة طغرلبك ببغداد من كل ناحية، وانقرض الأكراد من أعمالهم واندرجوا في جملة السلطان طغرلبك، تلك الأيام نداولها بين الناس واللّه يؤتي ملكه من يشاء واللّه يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين لا راد لأمره.

الخبر عن الدولة السلجوقية من الترك

المستولين على ممالك الإسلام ودوله بالمشرق كلها إلى حدود مصر مستبدين على الخليفة ببغداد من خلافة القائم إلى هذا الزمان وما كان لهم من الملك والسلطان في أقطار العالم وكيف فعلوا بالعلماء وحجروهم وما تفرع عن دولتهم من الدول

قد تقدم لنا ذكر أنساب الأمم والكلام في أنساب الترك وأنهم من ولد كومر بن يافث أحد السبعة المذكورين من بني يافث في التوراة وهم ماواق وماذاي وماغوغ وقطوبال وماشخ وطيراش.

وعد ابن إسحاق منهم ستة ولم يذكر ماذاي.

وفي التوراة أيضاً: أن ولد كومر ثلاثة: توغرما واشكان وريعات.

ووقع في الإسرائيليات أن الإفرنج من ريعات والصقالبة من أشكال والخزر من توغرما والصحيح عند نسابة الإسرائيليين أن الخزر هم التركمان، وشعوب الترك كلهم من ولد كومر ولم يذكر من أي ولده الثلاثة والظاهر أنهم من توغرما.

وزعم بعض النسابة أنهم من طيراش بن يافث.

ونسبهم ابن سعيد إلى ترك بن غامور بن سويل والظاهر أنه غلط وأن غامور تصحيف كما مر وأما سويل فلم يذكر أحد أنه من بني يافث وقد مر ذكر ذلك كله.

والترك أجناس كثيرة وشعوب فمنهم الروس والإعلان ويقال: إيلان والخفشاخ وهم القفجق والهياطلة والخلج والغز الذين منهم السلجوقية والخطا وكانوا بأرض طمغاج وبمك والقور وتزكس واركس والططر ويقال: الطغرغر وأنكر وهم مجاورون للروم.

واعلم أن هؤلاء الترك أعظم أمم العالم وليس في أجناس البشر أكثر منهم ومن العرب في جنوب المعمور وهؤلاء في شماله قد ملكوا عامة الأقاليم الثلاثة من الخامس والسادس والسابع في نصف طوله مما يلي المشرق فأول مواطنهم من الشرق على البحر بلاد الصين وما فوقها جنوباً إلى الهند وما تحتها شمالاً إلى سد يأجوج ومأجوج.

وقد قيل: إنهم من شعوب الترك وآخر مواطنهم من جهة الغرب بلاد الصقالبة المجاورين للإفرنج مما يلي رومة إلى خليج القسطنطينية وأول مواطنهم من جهة الجنوب بلاد القور المجاورة للنهر ثم خراسان وأذربيجان وخليج القسطنطينية وآخرها من الشمال بلاد فرغانة والشاش وما وراءها من البلاد الشمالية المجهولة لبعدها.

وما بين هذه الحدود من بلاد غزنة ونهر جيحون وما بحفافيه من البلاد وخوارزم ومفاوز الصين وبلاد القفجق والروس حفافي خليج القسطنطينية من جهة الشمال الغربي قد اغتمر هذه البسائط منهم أمم لا يحصيهم إلا خالقهم رحالة متنقلون فيها مستنجعين مساقط الغيث في نواحيه يسكنون الخيام المتخذة من اللبود لشدة البرد في بلادهم فقروا عليها.

ومر بديار بكر وخرج إليه صاحبها نصر بن مروان وحمل مائة ألف دينار لنفقته فلما سمع أنه قبضها من الرعايا ردها عليه ثم مر بناهرو وأمنها وأطاف على السور وجعل يمسحه بيده ويمر بها على خدوده تبركاً بثغر المسلمين ثم مر بالرها وحاصرها فامتنعت عليه.

ثم سار إلى حلب فبعث إليه صاحبها محمود ريغول القائد الذي عنده يخبر بطاعته وخطبته ويستعفيه من الخروج اليه منكراً منه الأذى وبـ « حيّ على خير العمل» فقال: لابد من خروجه.

واشتد الحصار فخرج محمود ليلاً مع أمه بنت وثاب الهنى متطارحاً على السلطان فأكرم مقدمها وخلع عليه وأعاده إلى بلده.

غزاة السلطان ألب أرسلان إلى خلاط وأسر ملك الروم

كان ملك الروم بالقسطنطينية لهذا العهد اسمه أرمانوس وكان كثيراً ما يخيف ثغور المسلمين.

وتوجه في سنة اثنتين وستين في عساكر كثيرة إلى الشام ونزل على مدينة منبج واستباحها، وجمع له محمود بن صالح بن مرداس الكلابي وابن حسان الطائي قومهما ومن إليهم من العرب فهزمتهم الروم.

ثم رجع أرمانوس إلى القسطنطينية واحتشد الروم والفرنج والروس والكرج ومن يليهم من العرب والطوائف وخرج إلى بلاد كرد من أعمال خلاط.

وكان السلطان ألب أرسلان بمدينة حوف من أذربيجان منقلباً من حلب فبعث بأهله وأثقاله إلى همذان مع وزيره نظام الملك وسار هو في خمسة عشر ألف مقاتل وتوجه نحوهم متهيأ، ولقيت مقدمته الروس فهزموهم وجاؤوا بملكهم أسيراً إلى السلطان فجدعه وبعث إسلابهم إلى نظام الملك.

ثم توجه إلى سمرقند ففارقها التكير وأرسل في الصلح ويعتذر عن تومق فصالحه ملك شاه وأقطع بلخ وطخارستان لأخيه شهاب الدين مكين إلى خراسان ثم إلى الري.

فتنة قاروت بك صاحب كرمان ومقتله

كان بكرمان قاروت بك أخو السلطان ألب أرسلان أميراً عليها فلما بلغه وفاة أخيه سار إلى الري لطلب الملك فسبقه إليها السلطان ملك شاه ونظام الملك ومعهما مسلم بن قريش ومنصور بن دبيس وأمراء الأكراد، والتقوا على نهرمان فانهزم قاروت بك وجيء به إلى أمام سعد الدولة كوهراس فقتله خنقاً، وأمر كرمان بسير بنيه وبعث إليهم بالخلع وأقطع العرب والأكراد مجازاة لما أبلوا في الحرب.

وقد كان السلطان ألب أرسلان شافعاً فيه على الخليفة فلقيهم خبر وفاة ألب أرسلان في طريقهم فمروا إلى ملك شاه وسبق إليه مسلم بطاعته.

وأما بهاء الدولة منصور بن دبيس فإن أباه أرسله بالمال إلى ملك شاه فلقيه سائراً للحرب فشهدها معه.

ثم توفي أياز أخو السلطان ملك شاه ببلخ سنة خمس وستين فكفله ابنه ملك شاه إلى سنة سبع وستين.

وتوفي القائم منتصف شعبان منها لخمس وأربعين سنة من خلافته ولم يكن له يومئذ ولد وإنما كان له حافد وهو المقتدي عبد الله بن محمد، وكان أبوه محمد بن القائم ولي عهده وكان يلقب ذخيرة الدين ويكنى أبا العباس.

وتوفي سنة وعهد القائم لحافده فلما توفي اجتمع أهل الدولة وحضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة والشيخ أبو إسحاق الشيرازي ونقيب النقباء طراد وقاضي القضاة الدامغاني فبايعوه بالخلافة لعهد جده إليه بذلك، وأقر فخر الدولة بن جهير على الوزارة وبعث ابنه عميد الدولة إلى السلطان ملك شاه لأخذ بيعته والله الموفق للصواب.

استيلاء السلجوقية على دمشق وحصارهم مصر ثم استيلاء تتش ابن السلطان ألب أرسلان على دمشق

قد تقدم لنا ملك انسز الرملة وبيت المقدس وحصاره دمشق سنة إحدى وستين ثم عاد عنها وجعل يتعاهد نواحيها بالعيث والإفساد كل سنة.

ثم سار إليها في رمضان سنة سبع وستين وحاصرها ثم عاد عنها وهرب منها أميرها من قبل المستنصر العلوي صاحب مصر المعلى بن حيدرة لأنه كثر عسفه بالجند والرعية وظلمه فثاروا به فهرب إلى بانياس ثم إلى صور ثم إلى مصر فحبس ومات بها محبوساً.

واجتمعت المصامدة بدمشق وولي عليهم أنصار بن يحيى المصمودي ويلقب نصير الدولة.

وغلت الأقوات عندهم واضطربوا فعاد إليها أتسز في شعبان سنة ثمان وستين فاستأمنوا إليه وعوض انتصاراً منها بقلعة بانياس ومدينة يافا من الساحل ودخلها في ذي القعدة وخطب بها للمقتدي ومنع من النداء بحيّ على خير العمل وتغلب على كثير من مدن الشام.

ثم سار سنة تسع وستين إلى مصر وحاصرها وضيق عليها، واستنجد المستنصر بالبوادي من نواحيها فوعدوه بالنصر.

وخرج بدر الجمالي في العساكر التي كانت بالقاهرة وجاء أهل البلاد لميعادهم فانهزم أتسز وعساكره ونجا إلى بيت المقدس فوجدهم قد بمخلفه فتحصنوا منه بالمعاقل فافتتحها عليهم عنوة واستباحها حتى قتلهم في المسجد، وقد تقدم ضبط هذا الاسم وأنه عند أهل الشأم أنسيس والصحيح أتسز وهو اسم تركي.

ثم إن السلطان ملك شاه أقطع أخاه تتش بن ألب أرسلان بلاد الشأم وما يفتحه من تلك النواحي سنة سبعين وأربعمائة فقصد حلب أولاً وحاصرها ومعه جموع من التركمان.

وكان بدر الجمالي المستولي على مصر قد بعث العساكر لحصار دمشق وبها أتسز فبعث إلى تتش وهو على حلب يستنجده فسار إليه وأخرت عساكر مصر عنه منهزمين.

ولما وصل إلى دمشق قعد اتسز على لقائه وانتظر قدومه فلقيه عند السور وعاتبه على ذلك فتساهل في العذر فقتله لوقته وملك البلد واستولى على الشام أجمع كما سيأتي وكان يلقب تاج

الدولة.

ثم سار في سنة اثنتين وسبعين إلى حلب فحاصرها أياماً وأفرج عنها وملك مراغة والبيرة وعاد إلى دمشق.

وخالفه مسلم بن قريش إلى حلب فملكها كما تقدم في أخباره وضمنها للسلطان ملك شاه فولاه إياها.

وسار مسلم بن قريش فحاصرها آخر سنة أربع وسبعين، ثم أفرج عنها فخرج تتش وقصد طرسوس من الساحل فافتتحها ورجع، ثم حاصرها مسلم ثانية سنة تسع وسبعين، وبلغه أن تاج الدولة تتش سار إلى بلاد الروم غازياً فخالفه إلى دمشق وحاصرها معه العرب والأكراد، وبعث إليه العلوي صاحب مصر بعده بالمدد.

وبلغ الخبر إلى تتش فكر راجعاً وسبقه إلى دمشق فحاصرها أياماً، ثم خرج إليه تتش في جموعه فهزمه واضطرب أمره ووصله الخبر بانتقاض أهل حران فرحل من مرج الصفر راجعاً إلى بلاده.

ثم سار أمير الجيوش من مصر في العساكر إلى دمشق سنة ثمان وسبعين وحاصرها فامتنعت عليه ورجع، فلحقوا بأخيه تكش في فقوي به وأظهر العصيان واستولى على مرو الروذ ومرو الساهجان وغيرهما وسار إلى نيسابور طامعاً في ملك خراسان.

وبلغ الخبر إلى السلطان فسبقه إلى نيسابور فرجع تتش وتحصن بترمذ، وحاصره السلطان حتى سأل الصلح وأطلق من كان في أسره من عسكر السلطان ونزل عن ترمذ وخرج إليه فأكرمه، ثم عاود العصيان سنة سبع وسبعين وملك مرو الروذ ووصل قريباً من سرخس وحاصر قلعة هناك لمسعود ابن الأمير فاخر.

وتحيل أبو الفتوح الطوسي صاحب نظام وهو بنيسابور على ملطفة وضعوها على شبه خط نظام الملك يخاطب فيها صاحب القلعة بأنه واصل في ركاب السلطان ملك شاه وأنه مصالح للقلعة.

وتعرض حاملها لأهل المعسكر حتى أخذوا كتابه بعد الضرب والعرض على القتل، وحدثهم بمثل ما في الصحيفة وأن السلطان وعساكره في الري فأجفلوا لوقتهم إلى قلعة ربح، وخرج أهل الحصن فأخذوا ما في العسكر وجاء السلطان بعد ثلاثة أشهر فحاصره في قلعته حتى افتتحها وحده ودفعه إلى ابنه أحمد فتسلمه وحبسه فخرجا من يمينه معه.

سفارة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي عن الخليفة

كان الخليفة المقتدي وكان عميد العراق أبو الفتح بن أبي الليث يسيء معاملة الخليفة فبعث المقتدي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي إلى السلطان ملك شاه ووزيره نظام الملك بأصفهان شاكياً من العميد.

فسار الشيخ لذلك ومعه الإمام أبو بكر الشاشي وغيره من الأعيان، ورأى الناس عجباً في البلاد التي يمر بها من إقبال الخلق عليه وازدحامهم على محفته يتمسحون بها ويلثمون أذيالها وينشرون موجودهم عليها من الدراهم والدنانير لأهلها والمصنوعات لأهل الصنائع والبضائع للتجار والشيخ في ذلك يبكي وينتحب.

ولما حضر عند السلطان أظهر المحرمة وأجابه إلى جميع ما طلبه، ورفعت يد العميد عن كل ما يتعلق بالخليفة، وحضر الشيخ مجلس نظام الملك فجرت بينه وبين إمام الحرمين مناظرة خبرها معروف.

اتصال بني جهير بالسلطان ملك شاه ومسير فخر الدولة لفتح ديار بكر

كان فخر الدولة أبو نصر بن جهير وزير المقتدي قد عزل سنة إحدى وسبعين على يد نظام الملك ولحق به ابنه عميد الدولة واسترضاه فرضي نظام الملك وشفع إلى الخليفة فاعتمد عميد الدولة دون أبيه كما تقدم في أخبار الخلفاء.

ثم أرسل المقتدي سنة أربع وسبعين فخر الدولة إلى ملك شاه يخطب له ابنته فسار إليها أصفهان وعقد له نكاحها على خمسين ألف دينار معجلة وعاد إلى بغداد.

ثم عزل المقتدي ابنه عميد الدولة عن الوزارة سنة ست وسبعين وكانوا قد علقوا بخطة من نظام الملك فبعث عن نفسه وعن ملك شاه يطلب حضور بني جهير عندهم فساروا بأهليهم فعظمت حظوظهم عند السلطان، وعقد لفخر الدولة على ديار بكر وبعث معه العساكر لفتحها من يد بني مروان وأذن له اتخاذ الآلة وأن يخطب لنفسه ويكتب اسمه على السكة فسار في العساكر السلطانية.

استيلاء ابن جهير على الموصل

ولما سار فخر الدولة ابن جهير لفتح ديار بكر استنجد ابن مروان مسلم بن قريش وشرط له أمراً وتحالفا على ذلك واجتمعا لحرب ابن جهير.

وبعث السلطان الأمير أرتق بن أكسك في العساكر مدداً لابن جهير فجنح ابن جهير إلى الصلح وبادر أرتق إلى القتال فهزم العرب والأكراد وغنم معسكرهم.

ونجا مسلم بن قريش إلى آمد وأحاطت به العسكر فلما اشتد مخنقه راسل الأمير أرتق في الخروج على مال بذله له فقبله وكانت له حراسة الطريق فخرج إلى الرقة، وسار ابن جهير إلى ميافارقين وفارقه منصور بن مزيد وابنه صدقة فعاد منها إلى خلاط.

ولما بلغ السلطان انحصار مسلم في آمد بعث عميد الدولة في جيش كثيف إلى الموصل ومعه أقسنقر قسيم الدولة الذي أقطعه بعد ذلك حلب.

وساروا إلى الموصل فلقيهم أرتق ورجع معهم، ولما نزلوا على الموصل بعث عميد الدولة إلى أهلها بالترغيب والترهيب فأذعنوا واستولى عليها وجاء السلطان في عساكره إلى بلاد مسلم بن قريش وقد خلص من الحصار وهو مقيم قبالة الرحبة فبعث إليه مؤيد الكتاب ولاطف السلطان واسترضاه ووفد إليه بالقوارح ورده السلطان إلى أعماله وعاد لحرب أخيه تتش الذي ذكرناه آنفاً.

فتح سليمان بن قطلمش أنطاكية والخبر عن مقتله ومقتل مسلم بن قريش واستيلاء تتش على حلب

كان سليمان بن قطلمش بن إسرائيل بن سلجوق قد ملك قرسة وأقصروا وأعمالها من بلاد الروم إلى الشام.

وكانت أنطاكية بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، وكان ملكها لعهده الفردروس فأساء السيرة إلى جنده ورعاياه وتنكر لابنه وحبسه فداخل الشحنة في تمكين سلمان من البلد فاستدعوه سنة سبع وسبعين فركب إليها البحر وخرج إلى البر في أقرب السواحل إليها في ثلثمائة ألف فارس ورجل كثير، وسار في جبال وأوعار فلما انتهى إلى السور وأمكنه الشحنة من تسنم السور دخل البلد وقاتل أهلها فهزمهم وقتل كثيراً منهم، ثم عفا عنهم وملك القلعة وغنم من أموالهم ما لا يحصى، وأحسن إلى أهلها وأمر لهم بعمارة ما خرب وأرسل إلى السلطان ملك شاه بالفتح.

ثم بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه ما كان يحمل إليه الفردروس ملك أنطاكية من المال ويخوفه معصية السلطان فأجابه بتقرير الطاعة للسلطان وبأن الجزية لا يعطيها مسلم فسار مسلم ونهب نواحي أنطاكية فنهب سليمان نواحي حلب.

ثم جمع سليمان العرب والتركمان وسار لنواحي أنطاكية ومعه جماهير التركمان، وجمع سليمان كذلك والتقيا آخر صفر سنة ثمان وسبعين وانحاز جنّ إلى سليمان فانهزمت العرب وقتل مسلم وسار سليمان بن قطلمش إلى حلب وحاصرها فامتنعت عليه وأرسل إليه ابن الحثيثي العباسي كبير حلب بالأموال وطالبه أن يمهل حتى يكاتب السلطان ملك شاه ودس إلى تاج الدولة تتش صاحب دمشق يستدعيه لملكها فجاء لذلك ومعه أرسوس أكسك وكان خائفاً على نفسه من السلطان ملك شاه لفعلته في أمر فاستجار بتتش وأقطعه المورس وسار معه لهذه الحرب، وبادر سليمان بن قطلمش إلى اعتراضهم وهم على تعبية.

وأبلى أرتق في هذه الحروب وانهزم سليمان وطعن نفسه بخنجر فمات وغنم تتش معسكره وبعث إلى ابن الحثيثي العباسي فيما استدعاه إليه فاستهمله إلى مشورة السلطان ملك شاه وأغلظ في القول فغضب تتش وداخله بعض أهل البلد فتسورها وملكها، واستجار ابن الحثيثي بالأمير أرتق فأجاره وسمع له.

استيلاء ابن جهير على ديار بكر

ثم بعث ابن جهير سنة ثمان وسبعين ابنه زعيم الرؤساء أبا القاسم إلى حصار آمد ومعه جناح الدولة أسلار فحاصرها واقتلع شجرها وضيق عليها حتى جهدهم الجوع وغدر بعض العامة في ناحية من سورها ونادى بشعار السلطان واجتمع إليه العامة لما كانوا يلقون من عسف العمال النصارى فبادر زعيم الرؤساء إلى البلد وملكها وذلك في المحرم وكان أبوه فخر الدولة محاصراً لميافارقين ووصل إليه سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد بمدد العساكر فاشتد الحصار وسقطت من السور ثلمه في سادس جمادى فنادوا بشعار السلطان ومنعوا ابن جهير من البلد واستولى على أموال بني مروان وبعثها مع ابنه زعيم الرؤساء إلى السلطان فسار مع كوهرائين إلى بغداد، ثم فارقه إلى السلطان بأصبهان.

ولما انقضى أمر ميافارقين بعث فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة

ابن عمر فحاصرها وقام بعض أهلها بدعوة السلطان وفتحوا مما يليهم باباً قريباً دخل منه العسكر فملكوا البلد، وانقرضت دولة بني مروان من ديار بكر والبقاء لله.

ثم أخذ السلطان ديار بكر من فخر الدولة بن جهير وسار إلى الموصل فأقام بها إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين.

استيلاء السلطان ملك شاه على حلب وولاية أقسنقر عليها

لما ملك تاج الدولة تتش مدينة حلب وكان بها سالم بن ملك بن مروان ابن عم مسلم بن قريش وامتنع بالقلعة وحاصره تتش سبعة عشر يوماً حتى وصل الخبر بمقدم أخيه السلطان ملك شاه وقد كان ابن الحثيثي كتب إليه يستدعيه لما خاف من تتش فسار من أصفهان منتصف تسع وسبعين وفي مقدمته برشق وبدران وغيرهما من الأمراء، ومر بالموصل في رجب.

ثم سار إلى هراة وبها ابن الشاطىء فملكها وأقطعها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأقطعه معها مدينة الرحبة وأعمالها، وحران وسروج والرقة وخابور وزوجه أخته زليخا خاتون.

ثم سار إلى الرها وافتتحها من الروم وكانوا اشتروها من ابن عطية كما مر، وسار إلى قلعة جعفر فملكها وقتل من كان بها من بني قشير وكان صاحبها جعفر أعمى وكان يخيف السابلة هو وولده فأزال ضررهم.

ثم ملك منبج وعبر الفرات إلى حلب فأجفل تتش عن المدينة ودخل ومعه الأمير أرتق، ورجع إلى دمشق فلما وصل السلطان إلى حلب ملكها ثم إلى القلعة فملكها من سالم بن ملك على أن يعطيه قلعة جعفر فلم تزل بيد عقبة إلى أن ملكها منهم نور الدين الشهيد.

ثم بعث إليه نصر بن علي بن منقذ الكناني بالطاعة فأقره على شيراز وتسلم منه اللاذقية وبعرطاف وأفامية ورجع.

ثم رجع السلطان بعد أن ولى على حلب قسيم الدولة أقسنقر.

ورغب إليه أهل حلب أن يعفيهم من ابن الحثيثي فأخرجه عنهم إلى ديار بكر وتوفي بها.

ثم رجع السلطان إلى بغداد فدخلها في ذي الحجة من سنته ونزل بدار المملكة وأهدى للخليفة هدايا كثيرة، واجتمع بالخليفة ليلاً، ثم دخل إليه في مجلسه نهاراً وأفيضت عليه الخلع، وسلم أمراء السلجوقية على الخليفة ونظام الملك قائم يقربهم واحداً واحداً ويعرف بهم، ثم صرح المقتدي للسلطان ملك شاه بالتفويض وأوصاه بالعدل فقبل يده ووضعها على عينيه وخلع الخليفة على نظام الملك وجاء إلى مدرسته التي فيها الحديث وأملى.

خبر الزفاف

قد قدمنا أن السلطان ملك شاه زوج ابنته من الخليفة المقتدي سنة أربع وسبعين بخطبة الوزير بن جهير فلما كان سنة ثمانين في المحرم نقل جهازها للزفاف إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي أكثرها ذهب وفضة ومعه ثلاث عماريات ومعها أربع وسبعون بغلاً مجللة بأنواع الديباج المكي وقلائدها الذهب وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة مملوءة بالحلي والجواهر ومهد عظيم من ذهب.

وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والأمير أرتق وغيرهما من الأمراء والناس ينثرون عليهم الدنانير والثياب.

وبعث الخليفة وزيره أبا شجاع إلى زوجة السلطان تركمان خاتون ومعه خادمه ظفر بمحفة لم ير مثلها ومعهم ثلثمائة من الشمع الموكف ومثلها مشاعل، وأوقدت الشموع في دكاكين الحريم الخلافي، وقال الوزير لخاتون: سيدنا أمير المؤمنين يقول: إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره فقالت: سمعاً وطاعةً، ومشى بين يديها أعيان الدولة مع كل واحد الشمع والمشاعل يحملها الفرسان، ثم جاءت المأمون من بعدهم في محفة مجللة عليها من الذهب والجواهر ما لا يحد ويحيط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك على مراكب رائعة، وأولم الخليفة وليمة لم يسمع بمثلها، ثم أطلع للناس من الغد سماط مائدة عليها أربعون ألفاً من السكر وخلع على أعيان العسكر وعلى جميع الحواشي.

استيلاء السلطان ملك شاه على ما وراء النهر

كان صاحب سمرقند لهذا العهد من الخانية أحمد خان بن خضر خان أخي شمس الملك الذي كان أميراً عليها وعمته خاتون زوجة ملك شاه، وكان رديء السيرة فبعثوا إلى السلطان يسألونه

الرجوع إلى إيالته.

وجاء بذلك مفتي سمرقند أبو طاهر الشافعي قدم حاجاً وأسرّ ذلك إلى السلطان فسار من أصفهان سنة اثنتين وثمانين ومعه رسول الروم بالخراج المقدر عليهم فاستعجم وأحضر للفتح.

ولما انتهى إلى خراسان جمع العساكر وعبر النهر بجيوش لا تحصى وأخذ ما في طريقه من البلاد، ثم انتهى إلى بخارى فملكها وما جاورها.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها وأخذ بهجتها ثم رماها بالمنجنيق وثلم سورها ودخل من الثلمة وملك البلد.

واختفى أحمد خان ثم جيء به أسيراً فأطلقه وبعث به إلى أصفهان وولى على سمرقند أبا طاهر عميد خوارزم وسار إلى كاشغر فبلغ إلى نور وكمن وبعث إلى كاشغر بالخطبة وضرب السكة فأطاع وحضر عند السلطان فأكرمه وخلع عليه وأعاده إلى بلده، ورجع السلطان إلى خراسان، وكان بسمرقند عساكر يعرفون بالحكلية فأرادوا الوثوب بالعميد نائب السلطان فلاطفهم ولحق ببلده خوارزم.

عصيان سمرقند وفتحها ثانياً

كان مقدم الحكلية بسمرقند اسمه عين الدولة وخاف السلطان لهذه الحادثة فكاتب يعقوب تكين أخا ملك كاشغر وكانت مملكته تعرف بإرياسي فاستحضره وملكه.

ثم شكر له يعقوب وحمل أعداءه من الرعية على طلب الثأر منه وقتله بفتاوي الفقهاء واستبد بسمرقند وسار السلطان ملك شاه إليها سنة اثنتين وثمانين.

فلما انتهى إلى بخارى هرب يعقوب إلى فرغانة ولحق بولايته، وجاء بعسكره مستأمنين إلى السلطان فلقوه بالطواويس من قرى بخارى ووصل السلطان إلى سمرقند وولى عليها الأمير أنز وأرسل العساكر في طلب يعقوب وأرسل إلى ملك كاشغر بالجد في طلبه، وشعب على يعقوب عساكره ونهبوا خزائنه ودخل على أخيه كاشغر مستجيراً به، وبعث السلطان في طلبه منه فتردد بين المخافة والأنفة.

ثم غلب عليه الخوف فقبض على أخيه يعقوب وبعثه مع ابنه وأصحابه إلى السلطان وأمرهم أن يسملوه في طريقه فإن قنع السلطان بذلك وإلا أسلموه إليه فلما قربوا على السلطان وعزموا على سلمه بلغهم الخبر بأن طغرل بن نيال أسرى من ثمانين فرسخاً بعساكر لا تحصى فكبس ملك كاشغر وأسره فأطلقوا يعقوب، ثم خشي السلطان شأن طغرل بن نيال وكثرة عساكره فرجع على البلد ودس تاج الملك في استصلاح يعقوب فشفع له ورده إلى كاشغر ورد الطغرل ورجع هو إلى خراسان.

ثم قدم إلى بغداد سنة أربع وثمانين العزمة الثانية ووجد عليه أخوه تاج الدولة تتش صاحب الشام وقسيم الدولة أقسنقر صاحب حلب وبوران صاحب الرها عمال الأطراف وأقام صنيع الميلاد ببغداد وتأنق بما لم يعهد مثله وأمر وزيره نظام الملك وأمراءه ببناء الدور ببغداد لنزلهم ورجع إلى أصفهان.

استيلاء تتش على حمص وغيرها من سواحل الشام

لما قدم السلطان سنة أربع وثمانين وفد عليه أمراء الشام كما قدمنا فلما انصرفوا من عنده أمر أخاه تاج الدولة تتش أن يذهب دولة العلويين من ساحل الشام ويفتح بلادهم، وأمر أقسنقر وبوران أن يسيرا لانجاده.

فلما رجعوا إلى دمشق سار إلى حمص وبها صاحبها ابن ملاعب وقد عظم ضرره وضرر ولده على الناس فحاصرها وملكها.

ثم سار إلى قلعة عرفة فملكها عنوة ثم إلى قلعة أفامية فاستأمن إليه خادم كان بها فأرسل إلى أمراء تتش في إصلاح حاله فسدوا عليه المذاهب فأرسل إلى وزير أقسنقر يسعى له عند صاحبه وعمل له على ثلاثين ألف دينار ومثلها عروضاً فجنح إلى مصالحته واختلف مع تتش على ذلك وأغلظ كل منهما لصاحبه في القول فرحل أقسنقر مغاضباً واضطر الباقون إلى الرحيل وانتقض أمرهم.

ملك اليمن

كان فيمن حضر عند السلطان ببغداد كما قدمناه عثمان جق أمير التركمان صاحب قرمسيس وغيرها فأمره السلطان أن يسير في جموع التركمان للحجاز واليمن فيظهر أمرهم هناك، وفوض إلى سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد قولى عليهم أمير اسمه ترشك.

وسار إلى الحجاز فاستولى عليه وأساء السيرة فيه حتى جاء أمير الحجاز محمد بن هاشم مستغيثاً منهم.

ثم ساروا سنة خمس وثمانين إلى اليمن وعاثوا في نواحيه وملكوا عدن وأساؤوا السيرة في أهلها وأهلكوا ترشك سابع دخولها وأعاده أصحابه إلى بغداد فدفنوه بها.

مقتل الوزير نظام الملك

ثم ارتحل السلطان ملك شاه إلى بغداد سنة خمس وثمانين فانتهى إلى أصفهان في رمضان وخرج نظام الملك من بيته بعد الإفطار عامداً إلى خيمته فاعترضه بعض الباطنية في صورة متظلم فلما استدناه لسماع شكواه طعنه بخنجر فأشواه، وعثر الباطني في أطناب الخيام ودخل نظام الملك الخيمة فمات لثلاثين سنة من وزارته.

واهتاج عسكره فركب إليه السلطان وسكن الناس، ويقال: إن السلطان ملك شاه وضع الباطني على قتله لما وقع منه ومن بنيه من الدالة والتحكم في الدولة.

وقد كان السلطان دس على ابنه جمال الدين من قتله سنة خمس وسبعين.

كان بعض حواشي السلطان سعى به فسطا به جمال الدين وقتله فأحقد السلطان بذلك وأخذ عميد خراسان فقتله خنقاً فدس لخادم من خدم جمال الدين بذلك وأنهم إذا تولوا قتله بأنفسهم كان أحفظ لنعمتهم فسقاه الخادم سماً ومات.

وجاء السلطان إلى نظام الملك وأغراه به، وما زال بطانة السلطان يغضون منه ويحاولون السعاية فيه إلى أن ولي حافده عثمان بن جمال الملك على مرو وبعث السلطان إليها كردن من أكابر المماليك والأمراء شحنة، ووقعت بينه وبين عثمان منازعة في بعض الأيام فأهانه وحبسه ثم أطلقه، وجاء إلى السلطان شاكياً فاستشاط غضباً وبعث فخر الملك ألب أرسلان إلى نظام الملك وأغراه به وما زال يقول: إن كنت تابعاً فقف عند حدك وإن كنت شريكي في سلطاني فافعل ما بدا لك.

وقرر عليه فعل حافده وسائر بنيه في ولايتهم وأرسل معه نكبرد من خواصه ثقة على ما يؤديه من القول ويجيبه الآخر فانبسط لسان نظام الملك يعدد الوسائل منه والمدافعة عن السلطان وجمع الكلمة وفتح الأمصار في كلام طويل حملته عليه الدالة.

وقال في آخره: إن شاء فله مؤيد مروآتي ومتى أطعت هذه زالت تلك فليأخذ حذره.

ثم زاد في انبساطه وقال: قولوا عني ما أردتم فإن توبيخكم نتأ في عضدي.

ومضى نكبرد فصدق السلطان الخبر وجاء الآخرون وحاولوا الكتمان فلم يسعهم لما وشي نكبرد بجلية القول فصدقوه كما صدقه.

ومات نظام الملك بعدها بقليل ومات السلطان بعده بنحو شهر وكان أصل نظام الملك من طوس من أبناء الدهاقين اسمه أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق ذهبت نعمة آبائه وماتوا فنشأ يتيماً ثم تعلم وحذق في العلوم والصنائع وعلق بالخدم السلطانية في بلاد خراسان وغزنة وبلخ، ثم لازم خدمة أبي علي بن شاذان وزير ألب أرسلان، ومات ابن شاذان فأوصى به السلطان ألب أرسلان، وعرفه كفايته فاستخدمه فقام بالأمور أحسن قيام فاستوزره، ثم هلك السلطان ألب أرسلان وهو في وزارته.

ثم استوزره ملك شاه بعد أبيه وكان عالماً جواداً صفوحاً مكرماً للعلماء وأهل الدين ملازماً لهم في مجلسه، شيد المدارس وأجرى فيها الجرايات الكثيرة.

وكان يملي الحديث وكان ملازماً للصلوات محافظاً على أوقاتها، وأسقط في أيامه كثيراً من المكوس والضرائب وأزال لعن الأشعرية من المنابر بعد أن فعله الكندري من قبله وحمل عليه السلطان طغرليك وأجراهم مجرى الرافضة وفارق إمام الحرمين وأبو القاسم القشيري البلاد من أجل ذلك فلما ولي ألب أرسلان حمله نظام الملك على إزالة ذلك ورجع العلماء إلى أوطانهم.

ومناقبه كثيرة وحسبك من عكوف العلماء على مجلسه وتدوينهم الدواوين باسمه، فعل ذلك إمام الحرمين وأشباهه.

وأما مدارسه فقد بنى النظامية ببغداد وناهيك بها ورتب الشيخ أبا إسحاق الشيرازي للتدريس بها.

وتوفي سنة ست وسبعين فرتب ابنه مؤيد الملك مكانه أبا سعيد المتولي فلم يرضه نظام الملك وولى فيها الإمام أبا نصر الصباغ صاحب الشامل ومات أبو نصر في شعبان من تلك السنة فولى أبو سعيد من سنة ثمان وسبعين ومات فدرس بعده الشريف العلوي أبو القاسم الدبوسي وتوفي سنة اثنتين وثمانين وولى تدريسه بعدها أبو عبد الله الطبري والقاضي عبد الوهاب الشيرازي بالنوبة يوماً بيوم.

ثم ولي تدريسها الإمام أبو حامد الغزالي سنة أربع وثمانين واتصل حكمها على ذلك، وفي أيامه عكف الناس على العلم واعتنوا به لما كان من حسن أثره في ذلك والله أعلم.

وفاة السلطان ملك شاه وولاية ابنه محمود

ثم لما سار السلطان بعد مقتل نظام الملك إلى بغداد ودخلها آخر رمضان وكان معه في الدولة أبو الفضل الهروستماني وزير زوجته الخاتون الجلالية من الملوك الخانية فيما وراء النهر وكان من أشد الناس سعاية في نظام الملك وعزم السلطان أن يستوزره لأول دخوله بغداد فعاقت المنية عن ذلك وطرقه المرض ثالث الفطر وهلك منتصف شوال سنة خمس وثمانين.

وكانت زوجته تركمان خاتون الجلالية عنده في بغداد وابنها محمود غائباً في أصفهان فكتمت موته وسارت بشلوه إلى أصفهان وتاج الملك في خدمتها وقدمت بين يديها قوام الدين كربوقا الذي ولي الموصل من بعد وأرسلته بخاتم السلطان إلى مستحفظ القلعة فملكها وجاءت على أثره وقد أفاضت الأموال في الأمراء والعساكر ودعتهم إلى بيعة ولدها محمود وهو ابن أربع سنين فأجابوا إلى ذلك وبايعوه وأرسلت إلى المقتدر في الخطبة له فأجابها على أن يكون الأمير أنز قائماً بتدبير الملك ومجد الملك مشيراً وله النظر في الأعمال والجباية فنكرت ذلك أمه خاتون وكان السفير أبا حامد الغزالي فقال لها إن الشرع لا يجيز ولاية ابنك. فقبلت الشرط وخطب له آخر شوال سنة خمس وثلاثين وأرسلت تركمان خاتون إلى أصفهان في القبض على بركيارق فحبس بأصفهان.

وكان السلطان ملك شاه من أعظم ملوك السلجوقية ملك من الصين إلى الشام ومن أقصى الشام إلى اليمن وحمل إليه ملوك الروم الجزية ومناقبه عظيمة مشهورة.

منازعة بركيارق لأخيه محمود وانتظام سلطانه

كان بركيارق أكبر أولاد السلطان ملك شاه وكانت أمه زبيدة بنت ياقوتي بن داود وياقوتي عم ملك شاه.

ولما حبس بركيارق وخافت عليه أمه زبيدة دست لمماليك نظام الملك فتعصبوا له وكانت خاتون غائبة ببغداد مع ابنها محمود لفقد سلطانه فوثب المماليك النظامية على سلاح لنظام الملك بأصفهان.

وأخرجوا بركيارق من محبسه وخطبوا له وبلغ الخبر إلى خاتون فسارت من بغداد.

وطلب العسكر تاج الملك في عطائهم فهرب إلى قلعة بوجين لينزل منها الأموال وامتنع فيها ونهب العسكر خزائنه وساروا إلى أصفهان وقد سار بركيارق والنظامية إلى الري فأطاعه أرغش النظامي في عساكره وفتحوا قلعة طغرل عنوة وبعثت خاتون العساكر لقتال بركيارق فنزغ إليه سبكرد وكمستكن الجاندار وغيرهما من أمراء عساكره ولقيهم بركيارق فهزمهم وسار في أثرهم إلى أصفهان فحاصرهم بها وكان عز الملك بأصفهان، وكان والياً على خوارزم فحضر عند السلطان قبل مقتل أبيه وبقي هناك بعد وفاة السلطان فخرج إلى بركيارق ومعه جماعة من إخوانه فاستوزره بركيارق وفوض إليه الأمور كما كان أبوه.

مقتل تاج الملك

وهو أبو الغنائم المرزبان بن خسرو فيروز كان وزيراً لخاتون وابنها، ولما هرب إلى قلعة بوجين خوفاً من العسكر كما قدمنا وملكت خاتون أصفهان عاد إليها واعتذر بأن صاحب القلعة حبسه فقبلت عذره وبعثته مع العساكر لقتال بركيارق.

فلما انهزموا حمل أسيراً عنده وكان يعرف كفاءته فأراد أن يستوزره وكان النظامية ينافرونه ويتهمونه بقتل نظام الملك وبذل فيهم أموالاً فلم يغنه ووشوا به فقتلوه في المحرم سنة ست وثمانين.

وكان كثير الفضائل جم المناقب وإنما غطى على محاسنه مما لأته على قتل نظام الملك، وهو الذي بنى تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي والمدرسة بإزائها ورتب بها أبا بكر الشاشي مدرساً.

مهلك محمود

ثم هلك السلطان محمود وهو محاصر بأصفهان لسنة من ولايته، واستقل بركيارق بالملك.

منازعة تتش ألب أرسلان وأخباره إلى حين انهزامه

كان تاج الدولة تتش أخو السلطان ملك شاه صاحب الشام وسار إلى لقاء أخيه ملك شاه ببغداد قبيل موته فلقيه خبر موته بهيت فاستولى عليها وعاد إلى دمشق فجمع العساكر وبذل الأموال وأخذ في طلب الملك فبدأ بحلب ورأى صاحبها قسيم الدولة أقستقر اختلاف ولد ملك شاه وحقرهم فأطاع تاج الدولة

تتش وتبعه في طاعته.

وبعث إلى باغي يسار صاحب أنطاكية وإلى مران صاحب الرها وحران يشير عليهما بمثل ذلك فأجاباه وخطبوا لتاج الدولة تتش في بلادهم وساروا معه إلى الرحبة فملكها ثم إلى نصيبين فملكها واستباحها وسلمها لمحمد بن شرف الدولة مسلم بن قريش.

وساروا إلى الموصل وقدم عليه الكافي بن فخر الدولة بن جهير من جزيرة ابن عمر فاستوزره وكانت الموصل قد ملكها علي بن شرف الدولة مسلم بن قريش وأمه صفية عمة ملك شاه وأطلقت تركمان خاتون عمه إبراهيم فجاء وملك الموصل من يده كما تقدم في أخبار بني المقلد فبعث اليه تتش في الخطبة وأن يهيىء له الطريق إلى بغداد فامتنع وزحف لحربه فانهزم العرب وسيق إبراهيم أسيراً إلى تتش في جماعة من أمراء العرب فقتلوا صبراً ونهبت أموالهم واستولى تتش على الموصل وغيرها، واستناب عليها علي بن مسلم وهو ابن صفية عمة أبيه.

وبعث إلى بغداد في الخطبة ووافقه كوهرائن الشحنة وحرر الجواب بانتظار الرسل من العسكر فسار تتش إلى ديار بكر فملكها.

ثم سار إلى أذربيجان وزحف بركيارق يعتذر من سعيه مع تتش فعزله بركيارق بسعاية كمستكن الجاندار بقسيم الدولة وأقام عوضه شحنة ببغداد الأمير مكرد وأعطاه أقطاعه وسار إلى بغداد، ثم رده من دقوقا لكلام بلغه عنه وقتله وولى على شحنة بغداد فتكين حب.

مقتل إسماعيل بن ياقوتي

كان إسماعيل بن ياقوتي بن داود بن عم ملك شاه وخال بركيارق أميراً على أذربيجان فبعث تركمان خاتون إليه فأطمعته في الملك وأنها تتزوج به فجمع جموعاً من التركمان وغيرهم وسار لحرب بركيارق فلقيه عند كرخ ونزع عنه مكرد إلى بركيارق فانهزم إسماعيل إلى أصفهان فخطبت له خاتون وضربت اسمه على الدنانير بعد ابنها محمود، وأرادت العقد معه فمنعها الأمير أنز مدبر الدولة وصاحب العسكر وخوفهم وفارقهم، ثم أرسل أخته زبيدة أم بركيارق فأصلحت حاله مع ابنها وقدم عليه فأكرمه.

واجتمع به رجال الدولة كمستكن الجاندار وأقسنقر وبوران وكشفوا سره في طلب الملك، ثم قتلوه وأعلموا بركيارق فأهدر دمه.

كان توران شاه بن قاروت بك صاحب فارس وأرسلت خاتون الجلالية الأمير أنز لفتح فارس سنة سبع وثمانين فهزمه أولاً، ثم أساء السيرة مع الجند فلحقوا بتوران شاه وزحف إلى أنز فهزمه واسترد البلد من يده وأصاب توران شاه في المعركة بسهم هلك معه بعد شهرين.

وفاة المقتدي وخلافة المستظهر وخطبته لبركيارق

ثم توفي المقتدي منتصف محرم سنة سبع وثمانين وكان بركيارق قد قدم بغداد بعد هزيمة عمه تتش فخطب له وحملت إليه الخلع فلبسها وعرض التقليد على المقتدي فقرأه وتدبره وعلم فيه وتوفي فجأة وبويع لابنه المستظهر بالخلافة فأرسل الخلع والتقليد إلى بركيارق وأخذت عليه البيعة للمستظهر.

استيلاء تتش على البلاد بعد مقتل أقسنقر ثم هزيمة بركيارق

لما عاد تتش منهزماً من أذربيجان جمع العساكر واحتشد الأمم وسار من دمشق إلى حلب سنة سبع وثمانين واجتمع قسيم الدولة أقسنقر وبوران وجاء كربوقا مدداً من عند بركيارق وساروا لحرب تتش ولقوه على ستة فراسخ من حلب فهزمهم وأخذ أقسنقر أسيراً فقتله ولحق كربوقا وبوران بحلب واتبعهما تتش فحاصرهما وملك حلب وأخذهما أسيرين وبعث إلى حران والرها في الطاعة فامتنعوا فبعث إليهم برأس بوران وملك البلدين وبعث بكربوقا إلى حمص فحبسه بها.

وسار إلى الجزيرة فملكها ثم إلى ديار بكر وخلاط فملكها ثم إلى أذربيجان.

ثم سار إلى همذان ووجد بها فخر الدولة ابن نظام الملك جاء من خراسان إلى بركيارق فلقيه الأمير قماج من عسكر محمود بأصفهان فنهب ماله ونجا إلى همذان فصادف بها تتش فأراد قتله وشفع فيه باغي يسار وأشار بوزارته ليميل الناس إلى بيته واستوزره.

وكان بركيارق قد سار إلى أقسيس فخالفه تتش إلى أذربيجان وهمذان فسار بركيارق من نصيبين وعبر دجلة من فوق الموصل إلى إربل.

فلما تقارب العسكران أشرف الأمير يعقوب بن أنق من

عسكر تتش فكبس بركياق وهزمه ونهب سواده ولم يبق معه إلا برسق وكمستكن الجاندار والبارق من أكابر الأمراء فلجأوا إلى أصفهان وكانت خاتون أم محمود قد ماتت فمنعه محمود وأصحابه من الدخول، ثم خرج إليه محمود وأدخله إلى أصفهان واحتاطوا عليه وأرادوا أن يسلموه فرفض محمود فأبقوه.

مقتل تتش واستقلال بركيارق بالسلطان

ثم مات محمود منسلخ شوال سنة سبع وثمانين واستولى بركيارق على أصفهان.

وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره عوض أخيه عز الملك وكان قد توفي بنصيبين فكاتب مؤيد الملك الأمراء واستمالهم فرجعوا إلى بركيارق وكشف جمعه.

وبعث تاج الملك تتش بعد هزيمة بركيارق يوسف بن أنق التركماني شحنة إلى بغداد في جمع التركمان فمنع من دخول بغداد.

وزحف إليه صدقة بن مزيد صاحب الحلة فقاتله في يعقوب وانهزم صدقة إلى الحله ودخل يوسف بن أنق بغداد وأقام بها.

وكان تتش لما هزم بركيارق سار إلى همذان وقد تحصن بها بعض الأمراء فاستأمن إليه واستولى على همذان وسار في نواحي أصفهان وإلى مرو.

وراسل الأمراء بأصفهان يستميلهم فأجابوه بالمقاربة والوعد وبركيارق مريض، فلما أفاق من مرضه خرج إلى جرباذقان واجتمع إليه من العسكر ثلاثون ألفاً ولقيه تتش فهزمه بركيارق وقتله بعض أصحاب أقسنقر بثأر صاحبه.

وكان فخر الملك بن نظام الملك أسيراً عنده فانطلق عند هزيمته واستقامت أمور بركيارق وبلغ الخبر إلى يوسف.

استيلاء كربوقا على الموصل

قد كنا قدمنا أن تاج الدولة تتش أسر قوام أبا سعيد كربوقا وحبسه بعدما قتل أقسنقر بوزان فأقام محبوساً بحلب إلى أن قتل تتش واستولى رضوان ابنه على حلب فأمره السلطان بركيارق بإطلاقه لأنه كان من جهة الأمير أنز فأطلقه رضوان وأطلق أخاه التوسطاش فاجتمعت عليهما العساكر وكان بالموصل علي بن شرف الدولة مسلم منذ ولاه عليها تتش بعد وقعة المضيع.

وكان بنصيبين أخوه محمد بن مسلم ومعه مروان بن وهب وأبو الهيجاء الكردي وهو يريد الزحف إلى الموصل فكاتب كربوقا واستدعاه للنصرة ولقيه على مرحلتين من نصيبين فقبض عليه كربوقا وسار إلى نصيبين وحاصرها أربعين يوماً وملكها ثم سار إلى الموصل فامتنعت عليه فتحوّل عنها إلى بلد وقتل بها محمد بن شرف الدولة تغريقاً وعاد إلى حصار الموصل ونزل منها على فرسخ واستنجد علي بن مسلم بالأمير مكرس صاحب جزيرة ابن عمر فجاء لإنجاده واعترضه التوسطاش فهزمه ثم سار إلى طاعة كربوقا وأعانه على حصار الموصل ولما اشتدّ بصاحبه علي بن مسلم الحصار بعد تسعة أشهر هرب عنها ولحق بصدقة بن مزيد.

ودخل كربوقا إلى الموصل وعاث التوسطاش في أهل البلد ومصادرتهم واستطال على كربوقا فأمر بقتله ثالثة دخوله سنة تسع وثمانين وسار كربوقا إلى الرحبة فملكها وعاد فأحسن السيرة في أهل الموصل ورضوا عنه، واستقامت أموره.

استيلاء أرسلان أرغون أخي السلطان ملك شاه على خراسان ومقتله

كان أرسلان أرغون مقيماً عند أخيه السلطان ملك شاه ببغداد فلما مات وبويع ابنه محمود سار إلى خراسان في سبعة من مواليه واجتمعت عليه جماعة وقصد نيسابور فامتنعت عليه فعاد إلى مرو وكان بها شحنة الأمير قودر من موالي السلطان ملك شاه وكان أحد الساعين في قتل نظام الملك فمال إلى طاعة أرغون وملّكه البلد وسار إلى بلخ وكان بها فخر الدين بن نظام الملك ففرّ عنها ووصل إلى همذان ووزر لتاج الدولة تتش كما مرّ.

وملك أرسلان أرغون بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان وأرسل إلى السلطان بركيارق وزيره مؤيد الملك في تقرير خراسان عليه بالضمان كما كانت لجدّه داود ما عدا نيسابور فأعرض عنه بركيارق لاشتغاله بأخيه محمود وعمه تتش ثم عزل بركيارق مؤيد الملك عن الوزارة بأخيه فخر الملك.

واستولى فخر الملك ألب أرسلان على الأمور فقطع أرسلان مراسلة بركيارق فبعث حينئذ عمه بورسوس في العساكر لقتاله فانهزم أرسلان إلى بلخ وأقام بورسوس بهراة وسار أرسلان إلى مرو وفتحها عنوة وخرّبها واستباحها وسار إليه بورسوس من هراة سنة ثمان وثمانين وكان معه مسعود بن تاخر الذي كان أبو مقدّم عساكر داود ومعه ملك شاه من أعاظم الأمراء فبعث اليه أرسلان واستمالة فمال إليه ووثب لمسعود بن تاخر وابنه فقتلهما

في خيمته فضعف أمر بورسوس وانفض الناس عنه وجيء به أسيراً إلى أخيه أبلتلان أرغون فحبسه بترمذ ثم قتله في محبسه بعد سنة وقتل أكابر خراسان وخرب أسوارها: مثل سودان ومرو الشاهجان وقلعة سرخس ونهاوند ونيسابور وصادر وزيره عماد الملك بن نظام الملك على ثلثمائة ألف دينار ثم قتله واستبدّ بخراسان وكان مرهف الحدّ كثير العقوبة لمواليه وأنكر على بعضهم يوماً بعض فعلاته وهو خلوة وضربه فطعنه الغلام بخنجر معه فقتله وذلك في المحرّم من سنة تسعين.

ولاية سنجر على خراسان

ولما قتل أرسلان أرغون ملك أصحابه من بعده صبياً صغيراً من ولده وكان السلطان بركيارق قد جهز العساكر لخراسان للقتال ومعه الأتابك قماج ووزيره علي بن الحسن الطغرائي وانتهى إليه مقتل أرسلان بالدامغان فأقاموا حتى لحقهم السلطان بركيارق وساروا إلى نيسابور فملكها في جمادى سنة تسعين وأربعمائة وملك سائر خراسان وسار إلى بلخ وكان أصحاب أرسلان قد هربوا بابنه الذي نصبوه للملك إلى جبل طخارستان وبعثوا يستأمنون له ولهم فأمنهم السلطان وجاؤوا بالصبيّ في آلاف من العساكر فأكرمه السلطان وأقطعه ما كان لأبيه أيّام ملك شاه وانفضّ عنه العسكر الذين كانوا معه وافترقوا على أمراء السلطان وأفردوه فضمته أم السلطان إليها وأقامت من يتولى رتبته وسار السلطان إلى ترمذ فملكها وخطب له بسمرقند ودانت له البلاد وأقام على بلخ سبعة أشهر ثم رجع وترك أخاه سنجر نائباً بخراسان.

ظهور المخالفين بخراسان

لما كان السلطان بخراسان خالف عليه محمود بن سليمان من قرابته ويعرف بأمير أميران وسار إلى بلخ واستمد صاحب غزنة من بني سبكتكين فأمدّه بالعساكر والفيول على أن يخطب له فيما يفتح من خراسان فقويت شوكته فسار إليه الملك سنجر وكسبه فانهزم وجيء به أسيراً فسلمه ولما انصرف السلطان عن خراسان سار نائب خوارزم واسمه أكنجي في اتباعه وسبق إلى مرو فتشاغل بلذّاته وكان بها الأمير تورد قد تشاغل عن السلطان واعتذر بالمرض فداخل بارقطاش من الأمراء في قتل أكنجي صاحب خوارزم فكبسه في طائفة من أصحابه وقتلوه وساروا إلى خوارزم فملكوها مظهرين أن السلطان ولاّهما عليها وبلغ الخبر إلى السلطان وكان قد بلغه في طريقه خروج الأمير أنز بفارس عن طاعته فمضى إلى العراق وأعاد داود الحبشي بن التونطاق في العساكر لقتالهما فسار إلى العراق من هراة وأقام في انتظار العسكر فعاجلاه فهرب أمامهما وهرب جيحون وتقدّم بارقطاش قبل تودن وقاتله فهزمه داود وأسره وبلغ الخبر إلى تودن فثار به عسكره ونهبوا أثقاله ولحق بسنجر فقبض عليه صاحبها ثم أطلقه فلحق بالملك سنجر ببلخ فقتله سنجر وأفرغ هو طاعته في نظمه وجمع العساكر على طاعته، ثم مات قريباً وبقي بارقطاش أسيراً عند داود إلى أن قتل.

بداية دولة بني خوارزم شاه

كان أبو شكين مملوكاً لبعض أمراء السلجوقية واشتراه من بعض أهل غرشقان فدعى أبا شكين غرشه ونشأ على حال مرضيّة وكان مقدّماً وولد له ابنه محمد فأحسن تأديبه وتقدّم هو بنفسه ولما سار الأمير داود الحبشي إلى خراسان كما مرّ سار محمد في جملته فلما مهد خراسان وأزال الخوارج نظر فيمن يولّيه خوارزم وكان نائبها أكنجي قد قتله كما مرّ فوقع اختياره على محمد بن أبي شكين فولاه ولقبه خوارزم شاه فحسنت سيرته وارتفع محله وأقرّه السلطان سنجر وزاده عناية بقدر كفايته واضطلاعه وغاب في بعض الأيام عن خوارزم فقصدها بعض ملوك الأتراك وكان طغرلتكين محمد الذي كان أبوه أكنجي نائباً بخوارزم وبادر محمد بن أبي شكين إلى خوارزم بعد أن استمدّ السلطان سنجر وسار بالعساكر مدداً له وتقدم محمد بن أبي شكين فتأخّر الأتراك إلى منقشلاع ورحل طغرلتكين إلى جرجان وازداد محمد بذلك عناية عند سنجر ولما توفي ولي ابنه بعده أقسز وأحسن السيرة وكان قد قاد الجيوش أيّام أبيه وباشر الحروب فملك مدينة منقشلاع ولما توفي اختصه السلطان سنجر وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه واتصل الملك في بني محمد بن أبي شكين خوارزم شاه وكانت لهم الدولة وتمت دولة بني ملك شاه وعليها كان ظهور الططر بعد المائة السادسة ومنهم أخذوا الملك كما سيأتي في أخبارهم.

استيلاء الإفرنج على أنطاكية وغيرها من سواحل الشّام

كان الإفرنج قد ظهر أمرهم في هذه السنين وتغلبوا على

صقليّة واعتزموا على قصد الشام وملك بيت المقدس وأرادوا المسير إليها في البرّ فراسلوا ملك الروم بالقسطنطينية أن يسهّل لهم الطريق إلى الشام فأجابهم على أن يعطوه أنطاكية فعبروا خليج القسطنطينيّة سنة تسعين وأربعمائة.

وسار أرسلان بن سليمان بن قطلمش صاحب مرقيّة وبلاد الروم لمدافعتهم فهزموه.

ثم مرّوا ببلاد ابن ليون الأرمني ووصلوا الى أنطاكية فحاصروها تسعة أشهر وصاحبها يومئذ باغي سياه فأحسن الدفاع عنها ثم تبوّؤا البلد بمداخلة بعض الحامية أصعدهم السور بعد أن رغبوه بالأموال والأقطاع وجاؤوا إلى السور فدلّهم على بعض المخادع ودخلوا منه ونفخوا البوق فخرج باغي سياه هارباً حتى إذا كان على أربعة فراسخ راجع نفسه وندم فسقط مغشيا عليه ومرّ به أرمني فحمل رأسه إلى أنطاكية وذلك سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

واجتمعت عساكر المسلمين وزحفوا إلى أنطاكية من كل ناحية ليرتجعوها من الإفرنج وجاء قوام الدين كربوقا إلى الشام واجتمعت عليه العساكر بمرج دابق فكان معه دقاق بن تتش وطغرلتكين أتابك وجناح الدولة صاحب حمص وأرسلان تاش صاحب سنجر وسقمان بن أرتق وغيرهم وساروا إلى أنطاكية فنازلوها واستوحش الأمراء من كربوقا وانفضوا من ترفعه عليهم وضاق الحصار بالإفرنج لعدم الأقوات لأنّ المسلمين عاجلوهم عن الاستعداد فاستأمنوا كربوقا فمنعهم الأمان وكان معهم من الملوك برديل وصنجيل وكمدمري والقمص صاحب الرُّها وسمند صاحب أنطاكية وهو مقدّم العساكر فخرجوا مستأمنين وضربوا مصاف وتخاذل الناس لما في قلوبهم من الأضغان لكربوقا فتمت الهزيمة عليهم وآخر من انهزم سقمان بن أرتق واستشهد منهم العرب وغنم العدوّ سوادهم بما فيه وساروا إلى معرة النعمان فملكوها وأفحشوا في استباحتها ثم ساروا إلى غزة فحاصروها أربعة أشهر وامتنعت عليهم وصالحهم ابن منقذ على بلده شيراز وحاصروا حمص فصالحهم صاحبها جناح الدولة ثم ساروا إلى عكا فامتنعت عليهم وكان هذا بداية الإفرنج بسواحل الشام ويقال: إنّ المصريين استنابوا رجلاً يعرف بافتخار الدولة من خلفاء العميد بن نصر لما خشوا من السلجوقية عند استيلائهم على الشام إلى غزة وزحف الاقسيس من أمرائهم إلى مصر وحاصرها وراسلوا الإفرنج واستدعوهم لملك الشام لينشلوهم عن أنفسهم ويحولوا بينهم وبين مصر والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الأمير أنز وقتله

لما سار السلطان بركيارق إلى خراسان ولّى على بلاد فارس الأمير أنز وكانت قد تغلبت الشوانكار واستظهروا بإيران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان فلما سار إليهم أنز قاتلوه فهزموه ورجع إلى أصفهان فاستأذن السلطان فأمره بالمقام هناك وولاه إمارة العراق وكانت العساكر في جواره بطاعته وجاء مؤيد الملك بن نظام الملك من بغداد على الحلّة فأغراه بالخلاف وخوّفه غائله بركيارق وأشار عليه بمكاتبة محمد بن ملك شاه وهو في كنجة وشاع عنه ذلك فازداد خوفه وجمع العساكر وسار من أصفهان إلى الريّ وجاهر السلطان بالخلاف وطلب منه أن يسلم إليه فخر الملك ألب أرسلان وبينما هو في ذلك إذ هجم عليه ثلاثة نفر من الأتراك المولّدين بخوارزم من جنده فطعنوه فقتلوه واهتاج عسكره فنهبوا خزائنه وحمل شلوه إلى أصفهان فدفن بها واشتهر خبر قتله وحُمل إلى السلطان في أحواز الريّ وهو سائر لقتاله فسر بذلك هو وفخر الملك ألب أرسلان وذلك في سنة اثنتين وتسعين وكان محمود المذاهب كبير المناقب ولما قتل هرب اصهنرصبار إلى دمشق فأقام بها مدّة ثم قدم على السلطان محمد سنة إحدى وخمسمائة فأكرمه وأقطعه رحبة مالك بن طوق.

استيلاء الفرنج على بيت المقدس

كان بيت المقدس لتاج الدولة تتش وأقطعه الأمير سقمان بن أرتق التركماني وكان تتش ملكه من يد العلويّين أهل مصر فلما وهن الاتراك بواقعة أنطاكية طمع المصريون في ارتجاعه وسار صاحب دولتهم الأفضل بن بدر الجماليّ وحاصر الأمير سقمان وأخاه ابلغاري وابن أخيهما ياقوتي وابن عمهما سونج ونصب المجانيق فثلموا سوره ثم ملكوه بالأمان لأربعين يوماً من حصاره في شعبان سنة تسع وثمانين وأحسن الأفضل إلى سقمان وابلغاري ومن معهما وأطلقهم فأقام سقمان ببلد الرُّها وسار ابلغاري إلى العراق وولّى الأفضل على بيت المقدس افتخار الدولة من أمرائهم ورجع إلى مصر فلما رجع الإفرنج من عكا وجاؤوا إلى بيت المقدس فحاصروه أربعين يوماً واقتحموه من جهة الشمال آخر شعبان من سنة اثنتين وتسعين وعاثوا في أهله واعتصم فلّهم بمحراب داود عليه السلام ثلاثاً حتى استأمنوا وخرجوا ليلاً إلى عسقلان.

وقتل بالمسجد سبعون ألفاً أو يزيدون من المجاورين فيهم

العلماء والزهّاد والعبّاد وأخذوا نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة زنة كل واحد ثلاثة آلاف وستمائة درهم ومائة وخمسين قنديلاً من الصفّار وتنوراً من الفضّة زنته أربعون رطلاً بالشامي وغير ذلك مما لا يحصى ووصل الصريخ إلى بغداد مستغيثين فأمر المقتدي أن يسير إلى السلطان بركيارق أبو محمد الدامغاني وأبو بكر الشاشي وأبو القاسم الزنجاني وأبو الوفاء بن عقيد وأبو سعد الحلواني وأبو الحسين بن السمّاك فساروا إلى بركيارق يستصرخونه للمسلمين فانتهوا إلى حلوان وبلغهم مقتل مجد الملك ألب أرسلان وفتنة بركيارق مع أخيه محمد فرجعوا وتمكن الإفرنج من البلاد ونحن عازمون على إفراد أخبارهم بالشام وما كان لهم فيه من الدولة على حكم أخبار الدول في كتابنا.

ظهور السلطان محمد بن ملك شاه والخطبة له ببغداد وحروبه مع أخيه بركيارق

كان محمد وسنجر شقيقين وكان بركيارق استعمل سنجر على خراسان ثم لحق به محمد بأصفهان وهو يحاصرها سنة ثمان وثمانين فاقطعه كنجة وأعمالها وأنزل معه الأمير قطلغ تكين أتابك وكانت كنجة من أعمال أرّان وكانت لفضلون فانتزعها ملك شاه وأقطعه استراباذ وولى على اران: سرهناسا وتكين الخادم ثم ضمن فضلون بلاده وأعيد إليها فلما قوي رجع إلى العصيان فسرح إليه ملك شاه الأمير بوزان فغلبه على البلاد وأسره ومات ببغداد سنة أربع وثمانين وأقطع ملك شاه بلاد أرّان لأصحاب باغي سياه صاحب أنطاكية ولما مات باغي سيان رجع ابنه إلى ولاية أبيه ثم أقطع السلطان بركيارق كنجة وأعمالها لمحمد كما قلناه سنة ست وثمانين ولما اشتدوا واستفحل قتل أتابك قطلغ تكين واستولى على بلاد أرّان كلها ولحق مؤيد الملك عبد الله بن نظام الملك بعد مقتل صاحبه أنز فاستخلصه وقربه وأشار عليه مؤيد الملك فطلب الأمر لنفسه فخطب له بأعماله واستوزر مؤيد الملك وقارن ذلك مقتل مجد الملك البارسلاني المتغلب في دولة بركيارق فاستوحش أصحابه لذلك ونزعوا إلى محمد وساروا جميعاً إلى الري وكان بركيارق قد سبقهم إليها واجتمع إليه الأمير نيال بن أبي شكين الحامي من أكابر الأمراء وعز الملك بن نظام الملك ولما بلغه مسير أخيه محمد إليه رجع إلى أصفهان فمنعوه من الدخول فسار إلى خوزستان وملك محمد الري في ذي القعدة سنة اثنتين وتسعين ووجد بها زُبيدة أم بركيارق قد تخلفت عن ابنها فحبسها مؤيد الملك وصادرها ثم قتلها خنقاً بعد أن تنصح له أصحابه في شأنها فلم يقبل وكان سعد الدولة كوهرائين شحنة بغداد قد استوحش من بركيارق فاتفق هو وكربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسرخاب بن بدر صاحب كنكسون وساروا إلى السلطان محمد بقم فخلع عليهم ورد كوهرائين إلى بغداد في شأن الخطبة فخطب له بالخليفة ولقبه حياة الدين والدنيا وسار كربوقا وجكرمش مع السلطان محمد إلى أصفهان والله سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل البارسلاني

كان أبو الفضل سعد البارسلانيي ويلقب مجد الملك متحكماً عند السلطان بركيارق ومتحكماً في دولته ولما فشا القتل في أمرائه من الباطنية استوحشوا ونسبوا ذلك للبارسلاني وكان من أعظم من قتل منهم الأمير برسق فاتهم ابنه زنكي وأقبورني البارسلاني في قتله ونزعوا عن بركيارق إلى السلطان محمد فاجتمع الأمراء ومقدّمهم أمير الحيرة لكابك وطغايرك من الزور وبعثوا إلى بني برسق يستدعونهم للطلب بثار أبيهم فجاؤوا واجتمعوا قريباً من همذان ووافقهم العسكر جميعاً على ذلك وبعثوا إلى بركيارق يطلبون البارسلاني فامتنع وأشار عليه البارسلاني بإجابتهم لئلا يفعلوا ذلك بغير رأي السلطان فيكون وهناً على الدولة فاستحلفهم السلطان فدفعه إليهم فقتله الغلمان قبل أن يتصل بهم وسكنت الفتنة وحمل رأسه إلى مؤيد الملك واستوحش الأمراء لذلك من بركيارق وأشاروا عليه بالعودة إلى الريّ ويكفونه قتال أخيه محمد فعاد متشاغلاً ونهبوا سرادقه وساروا إلى أخيه محمد ولحق بأصفهان ثم لحق رستاق كما تقدّم.

إعادة الخطبة ببغداد لبركيارق

ولما سار بركيارق إلى خوزستان ومعه نيال بن أبي شكين الحسامي مع عسكره سار من هنالك إلى واسط ولقيه صدقة بن مزيد صاحب الحلّة ثم سار إلى بغداد وكان سعد الدولة كوهرائين الشحنة على طاعة محمد فخرج عن بغداد ومعه أبو الغازي بن أرتق وغيره وخطب لبركيارق ببغداد منتصف صفر سنة ثلاث وتسعين بعد أن فارقها كوهرائين وأصحابه وبعثوا إلى السلطان محمد ومؤيد الملك يستحثونهما فأرسلا إليهم كربوقا صاحب الموصل وجكرمش صاحب جزيرة ابن عمر يستكثرون بهم في المدافعة. وطلب جكرمش من كوهرائين السير لبلده خشية عليها فأذن له ثم يئس كوهرائين وأصحابه من محمد فبعثوا إلى بركيارق

بطاعتهم فخرج إليهم واسترضاهم ورجع إلى بغداد وقبض على عميد الدولة بن جهير وزير الخليفة وطالبه بما أخذ هو وأبوه من الموصل وديار بكر أيام ولايتهم عليها فصادرهم على مائة وستين ألف دينار واستوزر الأغرّ أبا المحاسن عبد الجليل بن علي بن محمد الدهستاني وخلع الخليفة على بركيارق.

المصاف الأول بين بركيارق ومحمد ومقتل كوهرائين وهزيمة بركيارق والخطبة لمحمد

ثم سار بركيارق من بغداد لحرب أخيه محمد ومر بشهرزور فاجتمع إليه عسكر كثير من التركمان وكاتب رئيس همذان يستحثه فركب وسار للقاء أخيه على فراسخ من همذان في أوّل رجب من سنة ثلاث وتسعين وفي ميمنته كوهرائين وعز الدولة بن صدقة بن مزيد وسرخاب بن بدر وفي ميسرته كربوقا وفي ميمنة محمد بن اضر وابنه أياز وفي ميسرته مؤيد الملك والنظامية ومعه في القلب أمير سرخو شحنة أصفهان

فحمل كوهرائين من الميمنة على مؤيد الملك والنظاميّة فهزمهم وانتهى إلى خيامهم فنهبها وحملت ميمنة محمد على ميسرة بركيارق فانهزموا وحمل محمد على بركيارق فهزمه ووقف محمد مكانه وعاد كوهرائين من طلب المنهزمين فكبا به فرسه فقتل

وجيء بالأغرّ أبي المحاسن يوسف وزير بركيارق أسيراً فأكرمه مؤيد الملك ونصب له خيمة وبعثه إلى بغداد في الخطبة لمحمد فخطب له منتصف رجب من السنة وكانت أوّلية سعد الدولة كوهرائين انه كان خادماً للملك أبي كاليجار بن بويه وجعله في خدمة ابنه أبي نصر ولما حبسه طغرلبك مضى معه إلى قلعة طغرل فلما مات انتقل إلى خدمة السلطان ألب أرسلان وترقّى عنده وأقطعه واسط وجعله شحنة بغداد وحضر يوم قتله فوقاه بنفسه ثم أرسله مالك شاه إلى بغداد في الخطبة وجاء بالخلع والتقليد وحصل له من نفوذ الأمر واتباع الناس ما لم يحصل لغيره إلى أن قتل في هذه المعركة وولى شحنة بغداد بعده أبلغازي بن أرتق.

مسير بركيارق إلى خراسان وانهزامه من أخيه سنجر ومقتل الأمير داود حبشي أمير خراسان

لما انهزم بركيارق من أخيه محمد خلص في الفلّ إلى الريّ واجتمع له جموع من شيعته فسار إلى خراسان وانتهى إلى اسفراين وكتب الأمير داود حبشي إلى التونطاق يستدعيه من الدامغان وكان أميراً على معظم خراسان وعلى طبرستان وجرجان فأشار عليه بالمقام بنيسابور فقصدها وقبض على عميدها أبي محمد وأبي القاسم بن إمام الحرمين ومات أبو القاسم في محبسه مسموماً ثم زحف سنجر إلى الأمير داود فبعث إلى بركيارق يستدعيه لنجدته فسار إليه والتقى الفريقان بظاهر بوشنج وفي ميمنة سنجر الأمير برغش وفي ميسرته الأمير كوكر ومعه في القلب الأمير رستم فحمل بركيارق على رستم فقتله وانقضّ الناس على سنجر وكاد ينهزم وأخذ بركيارق أمّ سنجر أسيرة وشغل أصحاب بركيارق بالنهب فحمل عليهم برغش وكوكر فانهزموا واستمرّت الهزيمة على بركيارق وهرب الأمير داود فجيء به إلى برغش أسيراً فقتله.

وسار بركيارق إلى جرجان ثم إلى الدامغان ودخل البريّة ثم استدعاه أهل أصفهان وجاءه جماعة من الأمراء منهم جاول صبّاوو وسبقه محمد إلى أصفهان فعدل عنها إلى عسكر مكرّم.

المصاف الثاني بين بركيارق ومحمد وهزيمة محمد وقتل وزيره مؤيد الملك والخطبة لبركيارق

لما انهزم بركيارق أمام سنجر سنة ثلاث وتسعين وسار إلى أصفهان فوجد أخاه محمداً قد سبقه إليها فعدل عنها إلى خوزستان ونزل إلى عسكر مكرّم.

وقدم عليه هناك الأميران زنكي والبكي ابنا برسق سنة أربع وتسعين وساروا معه إلى همذان وهرب إليه الأمير أياز في خمسة آلاف من عسكر محمد لأنّ أميراً آخر مات في تلك الأيام وظنّوا أن مؤيد الملك دسّ عليه وزيره فسمّه وكان أياز في جملة أمير أضر فقتل الوزير المتهم ولحق بركيارق ثم وصل إليه سرخاب بن كنجر وصاحباه فاجتمع له نحو من خمسين ألف فارس ولقيه محمد في خمسة عشر ألفاً واستأمن أكثرهم إلى بركيارق يوم المصاف أوّل جمادى الأخيرة سنة أربع وتسعين واستولت الهزيمة على محمد

وجيء بمؤيد الملك أسيراً فوبخه ثم قتله بيده لأنه كان سيّئ السيرة مع الأمراء كثير الحيل في تدبير الملك ثم بعث الاغرّ أبو المحاسن وزير بركيارق أبا إبراهيم الاستراباذي لاستقصاء أموال مؤيد الملك وذخائره ببغداد فحمل منها ما لا يسعه الوصف يقال: إنّه وجد في ذخائره ببلاد العجم قطعة بلخش زنتها أربعون مثقالاً واستوزر محمد بعده خطيب الملك أبا منصور محمد بن الحسين.

ثم سار السلطان بركيارق إلى الريّ ووفد عليه هنالك كربوقا صاحب الموصل ودبيس بن صدقة وأبوه يومئذ صاحب الحلّة وسار السلطان قافلاً إلى جرجان وبعث إلى أخيه سنجر يستجديه فبعث إليه ما أقامه ثم طلبه في المدد فسار إليه سنجر من خراسان ثم سارا جميعاً إلى الدامغان فخرّباها وسار إلى الريّ واجتمعت عليه النظاميّة وغيرهم فكثرت جموعهم وكان بركيارق بعد الظفر قد فرق عساكره لضيق الميرة ورجع دبيس بن صدقة إلى أبيه وخرج بأذربيجان داود بن إسماعيل بن ياقوتي فبعث لقتاله قوام الدولة كربوقا في عشرة آلاف واستأذنه أياز في المسير إلى ولايته بهمذان ويعود بعد الفطر فبقي في قلّة من العساكر فلما بلغه قرب أخيه محمد وسنجر اضطرب حاله وسار إلى همذان ليجتمع مع أياز فبلغه أنه قد راسل أخاه محمدا وأطاعه فعاد إلى خوزستان.

ولمّا انتهى إلى تستر استدعى ابن برسق وكان من جملة أياز فلم يحضر وتأخر فأمّنه فسار نحو العراق فلمّا بلغ حلوان لحق به أياز وكان راسل محمداً فلم يقبله.

وبعث عساكره إلى همذان فلحق بهمدان أياز وأخذ محمد محلة أياز بهمدان وكانت كثيراً من كل صنف وصودر أصحابه بهمذان بمائة ألف دينار.

وسار بركيارق وأياز إلى بغداد فدخلها منتصف ذي العقدة من سنة أربع وتسعين وطلب من الخليفة المال للنفقة فبعث إليه بعد المراجعة بخمسين ألف دينار وعاث أصحاب بركيارق في أموال الناس وضجروا منه ووفد عليه أبو محمد عبد اللّه بن منصور المعروف بابن المصلحيّة قاضي جبلة من سواحل الشام منهزماً من الإفرنج بأموال جليلة المقدار فأخذها بركيارق منه وقد تقدّم خبر ابن المصلحيّة في دولة العباسيين ثم بعث وزير بركيارق الأغرّ بالمحاسن إلى صدقة بن مزيد صاحب الحلّة في ألف ألف دينار يزعم أنها تخلّفت عنده من ضمان البلاد وتهدّده عليها فخرج عن طاعة بركيارق وخطب لمحمد أخيه وبعث بركيارق في الحضور والتجاوز عن ذلك وضمن له أياز جميع مطالبه فأبى إلا أن يدفع الوزير واستمرّ على عصيانه وطرد عامل بركيارق عن الكوفة واستضافها إليه.

مسير بركيارق عن بغداد ودخول محمد وسنجر إليها

ولما استولى السلطان محمد وأخوه سنجر على همذان سار في اتباع بركيارق إلى حلوان فقدم عليه هنالك أبو الغازي ابن أرتق في عساكره وخدمه وكثرت جموعه فسار إلى بغداد وبركيارق عليل بها فاضطرب أصحابه وعبروا به إلى الجانب الغربي ووصل محمد إلى بغداد آخر سنة أربع وتسعين وتراءى الجمعان بشاطىء دجلة وجرت بينهم المراماة والنشّاب وكان عسكر محمد ينادون عسكر بركيارق يا باطنيّة ثم سار بركيارق إلى واسط ونهب عسكره جميع ما مرّوا عليه ودخل محمد إلى دار المملكة ببغداد وجاءه توقيع المستظهر بالاستبشار بقدومه وخطب له ونزل الملك سنجر بدار كوهرائين ووفد على السلطان محمد ببغداد صدقة صاحب الحلّة في محرّم سنة خمس وسبعين.

قتل بركيارق الباطنيّة

كان هؤلاء الباطنيّة قد ظهروا بالعراق وفارس وخراسان وهم القرامطة والدعوة بعينها دعوتهم إلا أنهم سموا في هذه الأجيال بالباطنيّة والإسماعيلية والملاحدة والفداويّة وكل اسم منها باعتبار: فالباطنيّة لأنهم يبطنون دعوتهم والإسماعيليّة لانتساب دعوتهم في أصلها لإسماعيل الإمام جعفر الصادق والملاحدة لأنّ بدعتهم كلها إلحاد والفداويّة لأنهم يفادون أنفسهم بالمال على قتل من يسلطون. والقرامطة نسبة إلى قرمط منشىء دعوتهم وكان أصلهم من البحرين في المائة الثالثة وما بعدها ثم نشأ هؤلاء بالمشرق أيام ملك شاه فأوّل ما ظهروا بأصفهان واشتدّ في حصار بركيارق وأخيه محمود وأمّه خاتون فيها ثم ثارت عامة أصفهان بهم بإشارة القضاة وأهل الفتيا فقتلوهم في كل جهة وحرقوهم بالنار.

ثم انتشروا واستولوا على القلاع ببلاد العجم كما تقدّم في أخبارهم ثم أخذ بمذهبهم نيران شاه بن بدران شاه بن قاروت بك صاحب كرمان حمله عليه كاتب من أهل خوزستان يسمّى أبا زرعة وكان بكرمان فقيه من الحنفيّة يسمى أحمد بن الحسين البلخي مطاعاً في الناس فخشي من نكيره فقتله فهرب عنه صاحب جيشه وكان شحنة البلد ولحق بالسلطان محمد ومؤيد

الملك بأصفهان وثار الجند بعده بنيران شاه فسار إلى مدينة كرمان فمنعه أهلها ونهبوه فقصد قلعة سهدم واستجار بصاحبها محمد بهستون وبعث أرسلان شاه عساكر لحصارها فطرده بهستون وبعث مقدّم العساكر في طلبه فجيء به أسيراً وبأبي زرعة الكاتب معه فقتلهما أرسلان شاه واستولى على بلاد كرمان.

وكان بركيارق كثيراً ما يسلطهم على من يريد قتله من الأمراء مثل أنز شحنة أصفهان وأرغش وغيرهم فأمنوا جانبه وانتشروا في عسكره وأغروا الناس ببدعتهم وتجاوزوا إلى التهديد عليها حتى خافهم أعيان العسكر وصار بركيارق يصرفهم على أعدائه والناس يتهمونه بالميل إليهم فاجتمع أهل الدولة وعذلوا بركيارق في ذلك فقبل نصيحتهم وأمر بقتل الباطنيّة حيث كانوا فقتلوا وشرّدوا كل مشرد وبعث إلى بغداد بقتل أبي إبراهيم الاستراباذي الذي بعثه أبو الأغر لاستقصاء أموال مؤيد الملك وكان يتهم بمذهبهم فقتل وقتل بالعسكر الأمير محمد من ولد علاء الدين بن كاكويه وهو صاحب مدينة تيرد وكان يتهم بمذهبهم وسعى بالكيا الهراسي مدرّس النظاميّة أنه باطني فأمر السلطان محمد بالقبض عليه حتى شهد المستظهر ببراءته وعلّو درجته في العلم فأطلقه وحسمت علّة الباطنيّة بين الجمهور وبقي أمرهم في القلاع التي ملكوها إلى أن انقرضوا كما تقدّم في أخبارهم مستوفى.

المصاف الثالث بين بركيارق ومحمد والصلح بينهما

ولما رحل بركيارق عن بغداد إلى واسط ودخل إليها السلطان محمد أقام بها إلى منتصف المحرم من سنة خمس وتسعين ثم رحل إلى همذان وصحبه السلطان سنجر لقصد خراسان موضع إمارته وجاءت الأخبار إلى المستظهر باعتزام بركيارق على المسير إلى بغداد ونقل له عنه قبائح من أقواله وأفعاله فاستدعى السلطان محمداً من همذان وقال: أنا أسير معك لقتاله فقال محمد: أنا أكفيكه يا أمير المؤمنين.

ورجع ورتب ببغداد أبا المعالي شحنة وكان بركيارق لما سار من بغداد إلى واسط هرب أهلها منه إلى الزُّبيدية ونزل هو بواسط عليلاً فلما أفاق أراد العبور إلى الجانب الشرقيّ فلم يجد سفناً ولانواتية وجاءه القاضي أبو علي الفارسي إلى العسكر واجتمع بالأمير أياز والوزير فاستعطفهما لأهل واسط وطلب إقامة الشحنة بينهم فبعثاه وطلبا من القاضي من يعبر فأحضر لهم رجالاً عبروا بهم فلما صاروا في الجانب الشرقي نهب العسكر البلد فجاء القاضي واستعطفهم فمنعوا النهب واستأمن إليهم عسكر واسط فأمنوهم.

وسار بركيارق إلى بلاد نج برسق في الأهواز وساروا معه ثم بلغه مسير أخيه محمد عن بغداد فسار في اتباعه إلى نهاوند إلى أن أدركه وتصافوا ولم يقتتلوا لشدّة البرد ثم عاودوا في اليوم الثاني كذلك وكان الرجل يخرج لقريبه من الصف الآخر فيتصافحان ويتساءلان ويفترقان ثم جاء الأمير بكراج وعبر من عسكر محمد إلى الأمير أياز والوزير الأغر فاجتمعوا وعقدوا الصلح بين الفريقين على أن السلطان بركيارق لا يعترض أخاه محمداً في الطبل، وتكون المكاتبة بينهما من الوزيرين ولا يعارض أحد من العسكر في قصد أيهما شاء.

والملك محمد يضرب له ثلاث نوب ويكون له من البلاد حرّة وأعمالها وأذربيجان وديار بكر والجزيرة والموصل ويمده بركيارق بالعساكر على من يمتنع عليه منها وتحالفا على ذلك وافترقا وكان العقد في ربيع الأوّل سنة خمس وتسعين وسار بركيارق إلى ساوة ومحمد إلى استراباذ وكل أمير على أقطاعه والله سبحانه وتعالى أعلم.

انتقاض الصلح والمصاف الرابع بين السلطانين وحصار محمد بأصفهان

لما انصرف السلطان محمد إلى استراباذ وكان اتهم الأمراء الذين سعوا في الصلح بالخديعة فسار إلى قزوين ودسّ إلى رئيسها لأن يصنع صنيعاً ويدعوه إليه مع الأمراء ففعل وجاء السلطان إلى الدعوة وقد تقدّم إلى أصحابه بحمل السلاح ومعه يشمك وأفتكين من أمرائه فقبض عليهما وقتل يشمك وسمل أفتكين وورد عليه الأمير نيال بن أنشوكس الحسامي نازعاً عن أخيه بركيارق.

ولما التقى الفريقان حمل سرخاب بن كيخسرو الديلمي صاحب ساوة على نيال الحسامي فهزمه واتبعه عامّة العسكر واستولت الهزيمة على عسكر محمد ومضى بعضهم إلى طبرستان وبعضهم إلى قزوين وذلك في جمادى من سنة خمس وتسعين لأربعة أشهر من المصاف قبله ولحق محمد في الفلّ بأصفهان ومعه نيال الحسامي وأصفهان في حكمه فحصّنها وسدّ ما ثلم من سورها وأعمق الخندق وفرّق الأمراء في الأسوار وعلى الأبواب ونصب المجانيق وجاء بركيارق في خمسة عشر ألف مقاتل فأقام محاصراً للبلد حتى اشتدّ الحصار وعدمت الأقوات واستقرض

محمد المال للجند من أعيان البلدة مرّة بعد أخرى فلما جهده الحصار خرج من البلد ومعه الأمير نيال وترك باقي الأمراء.

وبعث بركيارق الأمير أياز في عسكر لطلبه فلم يدركه وقيل: بل أدركه وذكّره العهد فرجع عنه بعد أن أخذ رايته وجشره وثلاثة أحمال من المال ولما خرج محمد عن أصفهان طمع المفسدون والسواديّة في نهبها فاجتمع منهم ما يزيد على مائة ألف وزحفوا بالسلالم والدبابات وطمُّوا الخندق وصعدوا في السلالم بإشارة أهل البلد وجدّوا في دفاعهم وعادوا خائبين.

ورحل بركيارق آخر ذي القعدة من سنة خمس وتسعين واستخلف على البلاد القديم الذي يقال له شهرستان مرشد الهراس في ألف فارس مع ابنه ملك شاه وسار إلى همذان وفي الحصار قتل وزير بركيارق الأغرّ أبو المحاسن عبد الجليل الدهستاني عرض له يوماً بعض الباطنيّة عندما ركب من خيمته لباب السلطان طعنه طعنات وتركه بآخر رمق وقتل غلام من غلمان بعض المكوس للوزير ثار فيه بمولاه.

وكان كريماً واسع الصدر وولى الوزارة على حين فساد القوانين وقلّة الجباية فكان يضطرّ لأخذ أموال الناس بالإخافة فنفرت الصفوة منه ولما مات استوزر بركيارق بعده الخطير أبا منصور الميذي كان وزيراً لمحمد وقد وكله في الحصار ببعض الأبواب فبعث إليه محمد نيال بن أبي شكين يطالبه بالأموال لإقامة العسكر فخرج من الباب ليلاً ولحق ببلده وامتنع بقلعتها فأرسل السلطان بركيارق إليها عساكر وحاصروها حتى استأمن وجاء عند قتل وزيره الأغر فاستوزره بركيارق مكانه والله تعالى أعلم بغيبه.

مسير صاحب البصرة إلى واسط

كان صاحب البصرة لهذا العهد إسماعيل بن أرسلان حين كان السلطان ملك شاه شحنة بالريّ وولاه عليها عندما اضطر أهلها وعجز الولاة عنهم فحسنت كفايته وأنخن فيهم وأصلح أمورها ثم عزل عنها وأقطع السلطان بركيارق البصرة للأمير قماج وكان ممن لا يفارقه فاختار إسماعيل لولاية البصرة ثم نزع قماج عن بركيارق وانتقل إلى خراسان فحدّثت إسماعيل نفسه بالاستبداد بالبصرة وانتقض وزحف إليه مهذّب الدولة بن أبي الخير من البطيحة ومعقل بن صدقة بن منصور بن الحسين الأسدي من الجزيرة في العساكر والسفن فقاتلوه في مطاري وقتل معقل بسهم أصابه فعاد ابن أبي الخير إلى البطيحة فأخذ إسماعيل السفن وذلك سنة إحدى وتسعين أسرهما واستفحل أمره بالبصرة وبنى قلعة بالأبلّة وقلعة بالشاطىء قبالة مطاري وأسقط كثيراً من المكوس واتّسعت إمارته لشغل السلاطين بالفتنة وملك المسبار أضافها إلى ما بيده.

ولما كان سنة خمس وتسعين طمع في واسط وداخل بعض أهلها وركب إليها السفن إلى نعما جار وخيّم عليها بالجانب الشرقيّ أياماً ودافعوه فارتحل راجعاً حتى ظن خلاء البلد من الحامية فدسّ إليها من يضرم النار بها ليرجعوا فرجع عنهم فلما دخل أصحابه البلد فتك أهل البلد فيهم وعاد إلى البصرة منهزماً فوجد الأمير أبا سعيد محمد بن نصر بن محمود صاحب الأعمال لعمان وجنابا وشيراز وجزيرة بني نفيس محاصراً للبصرة وكان أبو سعيد قد استبدّ بهذه الأعمال منذ سنين وطمع إسماعيل في الاستيلاء على أعماله وبعث إليها السفن في البحر فرجعوا خائبين فبعث أبو سعيد خمسين من سفنه في البحر فظفروا بأصحاب إسماعيل واتفقوا معهم على الصلح ولم يقع منه وفاء به فسار أبو سعيد بنفسه في مائة سفينة وأرسى بفوهة نهر الأبلة ووافق دخول إسماعيل من واسط فتزاحفوا برّاً وبحراً فلما رأى إسماعيل عجزه عن المقاومة كتب إلى ديوان الخليفة بضمان البلد ثم تصالحا ووقعت بينهما المهادنة وأقام إسماعيل مستبدّاً بالبصرة إلى أن ملكها من يده صدقة بن مزيد في المائة الخامسة كما مرّ في أخباره وهلك برامهرمز.

وفاة كربوقا صاحب الموصل واستيلاء جكرمش عليها واستيلاء سقمان بن أرتق على حصن كيفا

كان السلطان بركيارق أرسل كربوقا إلى أذربيجان لقتال مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الخارج بها سنة أربع وتسعين فاستولى على أكثر أذربيجان من يده ثم توفي منتصف ذي القعدة سنة خمس وتسعين وكان معه أصبهبذ صباوو بن خمارتكين وسنقرجه من بعده وأوصى الترك بطاعته فسار سنقرجه إلى الموصل واستولى عليها.

وكان أهل الموصل لما بلغهم وفاة كربوقا قد استدعوا موسى التركماني من موضع نيابته عن كربوقا بحصن كيفا للولاية عليهم فبادر إليهم وخرج سنقرجه للقائه فظنّ أنه جاء إليه وجرت بينهما محاورات وردّ سنقرجه الأمر إلى السلطان فآل الأمر بينهما إلى المطاعنة وكان مع موسى منصور بن مروان بقية أمراء ديار بكر

وضرب سنقرجه فأبان رأسه وملك موسى البلد ثم زحف جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر إلى نصيبين فملكها وخالفه موسى إلى الجزيرة فبادر إليه جكرمش وهزمه واتبعه إلى الموصل فحاصره بها فبعث موسى إلى سقمان بن أرتق بديار بكر يستنجده على أن يعطيه حصن كيفا فسار سقمان إليه وأفرج عنه جكرمش.

وخرج موسى للقاء سقمان فقتله مواليه ورجع سقمان إلى كيفا وجاء جكرمش إلى الموصل فحاصرها وملكها صلحاً واستلحم قتلة موسى ثم استولى بعد ذلك على الخابور وأطاعه العرب والأكراد وأيمما سقمان بن أرتق فسار بعد مقتل موسى إلى حصن كيفا واستمرّ بيده.

قال ابن الأثير: وصاحبها الآن في سنة خمس وعشرين وستمائة محمود بن محمد بن الفراء.

وكان صاحبها سنة عشرين وستمائة غازي بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق والله تعالى أعلم.

أخبار نيال بالعراق

كان نيال بن أبي شتكين الحسامي مع السلطان محمد بأصفهان لما حاصرها بركيارق بعد المصاف الرابع سنة خمس وتسعين فلمّا خرج محمد من الحصار إلى أذربيجان ومعه نيال استأذنه في قصد الريّ ليقيم بها دعوتهم وسار هو وأخوه عليّ وعسف بأهل الريّ وصادرهم وبعث السلطان بركيارق الأمير برسق بن برسق في ربيع من سنة ست وتسعين فقاتله وهزمه واستولى برسق على الريّ وأعاده على ولاية بقزوين وسلك نيال على الجبال وهلك كثير من أصحابه وخلص إلى بغداد فأكرمه المستظهر وأظهر طاعة السلطان محمد وتحالف هو وأبو الغازي وسقمان بن أرتق على مناصحة السلطان محمد وساروا إلى صدقة بن مزيد بالحلّة فاستحلفوه على ذلك.

ثم إنّ نيال بن أبي شتكين عسف بأهل بغداد وتسلّط عليهم وصادر العمال فاجتمع الناس إلى أبي الغازي بن أرتق وكان نيال صهره على أخته التي كانت زوجاً لتتش وطلبوا منه أن يشفع لهم عنده وبعث المستظهر إليه قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني بالنهي عمّا يرتكبه فأجاب وحلف ثم نكث فأرسل المستظهر إلى صدقة بن مزيد يستدعيه فوصل في شوّال من السنة واتفق مع نيال على الرحيل من بغداد ورجع إلى حلّته وترك ولده دبيساً يزعج نيال للخروج فسار نيال إلى أوان، وعاث في السابلة وأقطع القرى لأصحابه وبعث إلى صدقة فأرسل إليه العساكر وخرج فيها أبو الغازي بن أرتق وأصحاب المستظهر فسار نيال إلى أذربيجان ورجعوا عنه.

ولاية كمستكين النصيري شحنة بغداد وفتنته مع أبي الغازي وحربه

كان أبو الغازي بن أرتق شحنة بغداد ولاه عليها السلطان محمد عند مقتل كوهرائين ولما ظهر الآن بركيارق على محمد وحاصره بأصفهان ونزل بركيارق همذان وأرسل إلى بغداد كمستكين النصيري في ربيع سنة ست وتسعين وسمع أبو الغازي بمقدمه فاستدعى أخاه سقمان بن أرتق من حصن كيفا يستنجده وسار إلى صدقة بن مزيد فحالفه على النصرة والمدافعة ورجع إلى بغداد ووصل إليه أخوه سقمان بعد أن نهب في طريقه ووصل كمستكين إلى قرقيسيا ولقيه شيعة بركيارق وخرج أبو الغازي وسقمان عن بغداد ونهب قرى دجيل واتبعتهما العساكر ثم رفعت عنهما وأرسل كمستكين إلى صدقة صاحب الحلّة فامتنع من طاعة بركيارق وسار من الحلّة إلى صرصر وقطع خطبة بركيارق وعبر بغداد واقتصر على الدعاء للخليفة وبعث صدقة إلى أبي الغازي وسقمان يعرفهما بوصوله وهما بالحربي وجاء إلى دجيل

ونهب القرى واشتدّ فسادهم وأضرّ ذلك بحال بغداد في غلاء الأسعار وجاء أبو الغازي وسقمان ومعهما دبيس بن صدقة فخيموا بالرملة وقاتلهم العامّة ففتكوا فيهم.

وبعث المستظهر قاضي القضاة أبا الحسن الدامغاني وتاج الرؤساء بن الرحلات إلى صدقة بن مزيد بمراجعة الطاعة فشرط خروج كمستكين عن بغداد فأخرجه المستظهر إلى النهروان وعاد صدقة إلى الحلّة وأعيدت خطبة السلطان محمد ببغداد.

ثم سار كمستكين النّصيري إلى واسط وخطب فيها لبركيارق ونهب عسكره سوادها فسار صدقة وأبو الغازي إليه وأخرجاه من واسط وتحصّن بدجلة فقصده صدقة فانفضّ عنه أصحابه ورجع إلى صدقة بالأمان فأكرمه وعاد إلى بركيارق وأعيدت خطبة السلطان محمد بواسط وبعده لصدقة وأبي الغازي وولّى كل واحد فيها ولده وعاد أبو الغازي إلى بغداد وعاد صدقة إلى الحلّة وبعث ابنه منصوراً مع أبي الغازي يطلب الرضا من المستظهر لأنه كان سخطه من أجل هذه الحادثة.

المصاف الخامس بين بركيارق ومحمد

كان السلطان محمد لما سار عن كنجة وبلاد أران استخلف بها الأمير غزغلي وأقام بها في طائفة من عسكره مقيماً خطبة السلطان محمد في جميع أعماله إلى زنجان من آخر أذربيجان فلما انحصر محمد بأصفهان سار غزغلي لإنجاده ومعه منصور بن نظام الملك ومحمد ابن أخيه مؤيد الملك فانتهوا إلى الريّ وملكوها آخر خمس وتسعين ولقوا السلطان محمداً بهمذان عندما خرج من أصفهان ومعه نيال بن أبي شتكين وأخوه علي وأقاموا معه بهمذان ثم جاء الخبر بمسير بركيارق إليهم فتوجه السلطان محمد قاصداً شروان وانتهى إلى أذربيجان فبعث إليه مودود بن إسماعيل بن ياقوتي الذي كان بركيارق قتل أباه إسماعيل وكانت أخت مودود هذا تحت محمد وكان له طائفة من أعمال أذربيجان فاستدعى محمداً ليظاهره على بركيارق فسار إليه وانتهى إلى سقمان وتوفي مودود في ربيع سنة ست وتسعين واجتمع عساكره على السلطان محمد وفيهم سقمان القطبي ومحمد بن ياغي سياه، الذي كان أبوه صاحب أنطاكية.

ونزل أرسلان بن السبع الأحمر فسار إليهم بركيارق وقاتلهم على خراسان وسار أياز من عسكر بركيارق وجاء من خلف السلطان محمد فانهزم محمد وأصحابه ولحق بارقيش من أعمال خلاط ولقيه الأمير علي صاحب أرزن الروم فمضى إلى أصفهان وصاحبها منوجهر أخو فضلون الروادي ثم سار إلى هرمز وأمّا محمد بن مؤيد الملك بن نظام الملك فنجا من الوقعة إلى ديار بكر ثم إلى جزيرة ابن عمر ثم إلى بغداد وكان أيام أبيه مقيماً ببغداد في جوار المدرسة النظاميّة فشكى إلى أبيه وخاطب كوهرائين بالقبض عليه فاستجار بدار الخلافة ولحق سنة اثنتين وتسعين بمجد الملك البارسلاني وأبوه بكنجة عند السلطان محمد فلمّا خطب السلطان محمد لنفسه واستوزر أباه مؤيد الملك ولحق محمد هذا بأبيه ثم قتل أبوه وبقي في جملة السلطان محمد.

استيلاء ملك بن بهرام على مدينة عانة

كان ملك بن بهرام بن أرتق ابن أخي أبي الغازي بن أرتق مالكاً مدينة سروج فملكها الفرنج من يده فسار عنها إلى عانة وغلب عليها بني العيش بن عيسى من خلاط وكانت لهم فقصدوا صدقة بن مزيد مستنجدين به فأنجدهم وجاء معهم فرحل ملك بن بهرام والتركمان عنها ودخلها بنو العيش وأخذ صدقة رهائنهم وعاد إلى الحلّة فرجع ملك إليها في ألفي رجل من التركمان وحاربها قليلاً ثم عبر المخاضة وملكها واستباح أهلها ومضى إلى هيت ورجع عنها.

الصلح بين السلطان بركيارق ومحمد

ثم استقر الأمر آخراً بالسلطان بركيارق في الريّ وكان له الجبال وطبرستان وخوزستان وفارس وديار بكر والجزيرة والحرمين ولمحمد أذربيجان وبلاد أران وأرمينية وأصفهان والعراق جميعاً غير تكريت والبطائح بعضها وبعضها والبصرة لهما جميعاً وخراسان لسنجر من جرجان إلى ما وراء النهر يخطب فيها لأخيه محمد وله من بعده والعساكر كلهم يتحكمون عليهم بسبب الفتنة بينهما وقد تطاول الفساد وعمّ الضرر واختلفت قواعد الملك فأرسل بركيارق إلى أخيه محمد في الصلح مع فقيهين من أماثل الناس ورغباه في ذلك وأعاد معهما رسلاً آخرين وتقرّر الأمر بينهما أن يستقر محمد على ما بيده سلطانا ولا يعارضه بركيارق في الطبل ولا يذكر اسمه في أعمال محمد وأنّ المكاتبة تكون بين الوزيرين والعساكر بالخيار في خدمة من شاؤوا منهما ويكون للسلطان محمد من النهر المعروف بأستراباذ إلى باب الأبواب وديار بكر والجزيرة والموصل والشام والعراق بلاد صدقة بن مزيد وبقية الممالك الإسلامية لبركيارق.

وتحالفا على ذلك وانتظم الأمر وأرسل السلطان محمد إلى أصحابه بأصفهان بالخروج عنها لأخيه بركيارق واستدعاهم إليه فأبوا وجنحوا إلى خدمة بركيارق وساروا إليه بحريم السلطان محمد الذي كانوا معهم فأكرمهم بركيارق ودلّهم إلى صاحبهم.

وحضر أبو الغازي بالديوان ببغداد وسار المستظهر في الخطبة لبركيارق فخطب له سنة سبع وتسعين وكذلك بواسط وكان أبو الغازي قبل ذلك في طاعة محمد فأرسل صدقة إلى المستظهر يعذله في شأنه ويخبره بالمسير لإخراجه من بغداد ثم سار صدقة ونزل عند الفجاج وخرج أبو الغازي إلى عقرقوبا وبعث لصدقة بأنه إنما عدل عن طاعة محمد للصلح الواقع بينه وبين أخيه وأنهما تراضيا على أن بغداد لبركيارق وأنا شحنة بها واقطاعي حلوان فلا يمكنني التحوُّل عن طاعة بركيارق فقبل منه ورجع إلى الحلّة وبعث المستظهر في ذي القعدة سنة سبع وتسعين بالخلع للسلطان بركيارق والأمير أياز والوزير الخطير واستحلفهم جميعاً وعاد إلى بغداد والله سبحانه وليّ التوفيق.

حرب سقمان وجكرمس الإفرنج

قد تقدّم لنا استيلاء الإفرنج على معظم بلاد الشام وشغل الناس عنهم بالفتنة وكانت حرّان لقراجا من مماليك ملك شاه وكان غشوماً فخرج منها لبعض مذاهبه وولّى عليها الأصفهاني من أصحابه فعصى فيها وطرد أصحاب قراجاً منها ما عدا غلاماً تركياً اسمه جاولي جعله مقدّم العسكر وأيس به فقرّره وتركه وملك حرّان وسار الإفرنج إليها وحاصروها وكان بين جكرمش صاحب جزيرة ابن عمر وسقمان صاحب كيفا حروب وسقمان يطالبه بقتل ابن أخيه فانتدبا لنصر المسلمين واجتمعا على الخابور وتحالفا وسار سقمان في سبعة آلاف من التركمان وجكرمش في ثلاثة آلف من الترك والعرب والأكراد والتقوا بالإفرنج على نهر بلخ فاستطرد لهم المسلمون نحو فرسخين ثم كرّوا عليهم فغنموا فيهم وقتلوا سوادهم.

وأخذ القمص برديل صاحب الرها أسره تركماني من أصحاب سقمان في نهر بلخ وكان بيمند صاحب أنطاكية من الإفرنج وطنكري صاحب الساحل منهم قد كمنا وراء الجبل ليأتيا المسلمين من ورائهم عند المعركة

فلما عاينوا الهزيمة كمنوا يومهم ثم هربوا فاتبعهم المسلمون واستلحموهم وأسروا منهم كثيراً وفلت بيمند وطنكري بدماء أنفسهم ولما حصل الظفر للمسلمين عصى أصحاب جكرمش باختصاص سقمان وشق ذلك عليه وأراد أصحابه فأبى حذراً من افتراق المسلمين ورحل وفتح في طريقه عدّة حصون وسار جرمكش إلى حرّان ففتحها ثم سار إلى الرُّها فحاصرها خمس عشرة ليلة وعاد إلى الموصل وقاد من القمص بخمسة وثلاثين ألف ديناراً ومائة وستين أسيراً من المسلمين.

وفاة بركيارق وولاية ابنه ملك شاه

ثم توفي السلطان بركيارق بن ملك شاه بنزدجرد في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين لاثنتي عشرة سنة ونصف من ملكه جاء إليها عليلاً من أصفهان واشتدّ مرضه بنزدجرد فولّى عهده لابنه ملك شاه وعمره نحو من خمس سنين وخلع عليه وجعل الأمير أياز كافله وأوصى أهل الدولة بالطاعة والمساعدة وبعثهم إلى بغداد فأدركهم خبر وفاته بالطريق ورجع أياز حتى دفنه بأصفهان وجمع السرادقات والخيام والجشر والشمسية لابنه ملك شاه وكان بركيارق قد لقي في ملكه من الرخاء والشدّة والحرب والسلم ما لم يلقه أحد فلما استقرّ واستقامت سعادته أدركته المنية ولما توفي خطب لابنه ملك شاه ببغداد وكان أبو الغازي قد سار من بغداد إليه وهو بأصفهان يستحثّه إلى بغداد وجاء معه فلما مات سار مع ابنه ملك شاه والأمير أياز إلى بغداد وركب الوزير أبو القاسم عليّ بن جهير فلقيهم به مالي وحضر أبو الغازي والأمير طغايرك بالديوان وطلبا الخطبة للملك شاه فخطب له ولقب بألقاب جده ملك شاه.

حصار السلطان محمد الموصل

لما انعقد الصلح بين بركيارق ومحمد واختص كل منهما أعماله وكانت أذربيجان في قسمة محمد رجع محمد إلى أذربيجان ولحق به سعد الملك أبو المحاسن الذي كان نائباً بأصفهان بعد أن أبلى في المدافعة عنها ثم سلمها بعد الصلح إلى نواب بركيارق واستوزره فأقام محمد إلى صفر من سنة ثمان وتسعين ثم سار يريد الموصل على طريق مراغة ورحل وبلغ الخبر إلى جكرمش فاستعدّ للحصار وأدخل أهل الضاحية إلى البلد وحاصره محمد ثم بعث له يذكره ما استقرّ عليه بينه وبين أخيه وأنّ الموصل والجزيرة له وعرض عليه خط بركيارق بذلك وبأيمانه عليه ووعده أن يقرّها في عمالته فقال له جكرمش: إنّ السلطان كتب إليّ بعد الصلح بخلاف ذلك فاشتدّ في حصاره واشتدّ أهل البلد في المدافعة ونفّس الله عنهم برخص الأسعار وكان عسكر جكرمش مجتمعين قريباً من الموصل وكانوا يغزون على أطراف العسكر ويمنعون عنهم الميرة ثم وصل الخبر عاشر جمادى الأولى بوفاة السلطان بركيارق فاستشار جكرمش أهل البلد فردّوا النظر إليه واستشار الجند فأشاروا بطاعة السلطان محمد فأرسل إليه بذلك واستدعى وزيره سعد الملك فدخل عليه وأشار عليه بلقاء السلطان فخرج إليه على كره من أهل البلد فتلقاه السلطان بالكرامة وأعاده سريعاً إلى البلد ليطمئن الناس.

استيلاء السلطان محمد على بغداد وخلع ملك شاه ابن أخيه ومقتل أياز

قد كنا قدّمنا صلح بركيارق وأخيه محمد من أنه يستقل بركيارق بالسلطنة وينفرد محمد بالأعمال التي ذكرنا وموت بركيارق أثر ذلك وتقديم ابنه ملك شاه ببغداد.

فوصل الخبر بذلك إلى محمد وهو بحاصر الموصل فأطاعه

جكرمش وسار محمد إلى بغداد ومعه جكرمش وسقمان القطبي مولى قطب الدولة إسماعيل بن ياقوتي عمّ ملك شاه ومحمد وغيرهما من الأمراء وجمع صدقة صاحب الحلّة العساكر وبعث ابنه بدران ودبيساً إلى محمد يستحثانه وجاء السلطان محمد إلى بغداد فاعتزم الأمير أياز أتابك ملك شاه على دفاعه وخيم خارج بغداد وأشار عليه بذلك أصحابه وخالفهم وزيره أبو المحاسن الضبعي وأبلغ في النصيحة له بطاعة السلطان فأقام متردّداً ونزل محمد بالجانب الغربي وخطب له هنالك منفرداً ولهما معاً في بعض الجوامع واقتصر على السلطان العالم في بعضها.

ورجع أياز إلى استحلاف الأمراء ثانياً فوقف بعضهم وقال: لا فائدة في إعادة اليمين وارتاب أياز عندها وبعث وزيره الضبعي أبا المحاسن لعقد الصلح مع السلطان واستحلافه فقرأ على وزيره سعد الملك أبي المحاسن سعد بن محمد فدخل معه إلى السلطان وأجابه إلى ما طلب وجاء معه من الغد قاضي القضاة والمفتيان واستحلفاه لأياز وللأمراء فحلف إلا أن ينال الحسامي ووقال: أمّا ملك شاه فهو ابني وأنا أبوه. وجاء أياز من الغد وقارن وصول صدقة بن مزيد فأنزلهما واحتفى بهما وذلك آخر جمادى الأولى من سنة ثمان وتسعين.

ثم احتفل أياز بعدها في عمل صنيع للسلطان في بيته وهي دار كوهرائين وأهدى إليه تحفاً من جملتها حبل البلخش الذي أخذه من تركة نظام الملك بن مؤيد الملك واتفق أن أياز تقدم لمواليه بلبس السلاح ليعرضهم على السلطان وكان عندهم مصفعان فألبسوه درعاً تحت ثيابه وتناولوه بالنخس فهرب عنهم ودخل في حاشية السلطان مذعوراً فلمسوه فإذا الدرع تحت ثيابه فارتابوا ونهض السلطان إلى داره ثم دعا الأمراء بعد ذلك بأيام فاستشارهم في بعث يبعثهم إلى ديار بكر أنّ أرسلان بن سليمان بن قطلمش قصدها فاتفقوا على الإشارة بمسير أياز وطلب هو أن يكون معه صدقة بن مزيد فأسعفه السلطان بذلك واستدعاهما لإنفاذ ذلك وقد أرصد في بعض المخادع بطريقهم جماعة لقتل أياز فلما مرّ بهم تعاورته سيوفهم وقطع رأسه وهرب صدقة وأغمي على الوزير وهرب عسكر أياز فنهبوا داره وأرسل السلطان من دفعهم عنها وسار السلطان من بغداد إلى أصفهان وهذا أياز من موالي السلطان ملك شاه ثم سار في جملة ملك آخر فساء وأمّا الضبعي وزير أياز فاختفى أشهراً ثم حمل إلى الوزير سعد الملك في رمضان فلما وصل كان ذلك سبب رياسته بهمذان.

استيلاء سقمان بن أرتق على ماردين لا موته

كان هذا الحصن في ديار بكر أقطعه السلطان بركيارق لمغنٍ كان عنده وكان حواليها خلق كثير من الأكراد يغيرون عليها ويخيفون سابلتها.

واتفق أنّ كربوقا خرج من الموصل لحصار آمد وكانت لبعض التركمان فاستنجد بسقمان فسار لإنجاده ولقيه كربوقا ومعه زنكي بن أقسنقر وأصحابه وأبلوا ذلك اليوم بلاء شديداً فانهزم وأسر ابن أخيه ياقوتي بن أرتق فحبسه بقلعة ماردين عند المغني فبقي مدّة محبوساً وكثر خروج الأكراد بنواحي ماردين فبعث ياقوتي إلى المغني يسأله أن يطلقه ويقيم عنده بالريف لدفاع الأكراد ففعل وصار يغير عليهم في سائر النواحي إلى خلاط وصار بعض أجناد القلعة يخرجون للإغارة فلا يهيجهم ثم حدّثته نفسه بالتوثّب على القلعة فقبض عليهم بعض الأيام بعد مرجعه من الإغارة ودنا من القلعة وعرّضهم للقتل إن لم يفتحها أهلوهم ففتحوها وملكها وجمع الجموع وسار إلى نصيبين وإلى جزيرة ابن عمر وهي لجكرمش فكبسه جكرمش وأصحابه، وأصابه في الحرب سهم فقتله وبكاه جكرمش وكانت تحت ياقوتي بنت عمه سقمان فمضت إلى أبيها وجمعت التركمان وجاء بهم إلى نصيبين لطلب الثأر فبعث إليه جكرمش ما أرضاه من المال في ديته فرجع وأقام بماردين بعد ياقوتي أخوه على طاعة جكرمش وخرج منها لبعض المذاهب وكتب نائبه بها إلى عمه سقمان بأنه تملك ماردين على جكرمش فبادر إليها سقمان واستولى عليها وعوّض عنها ابن أخيه جبل جور وأقامت ماردين في حكمه مع حصن كيفا واستضاف إليها نصيبين ثم بعث إليها فخر الملك بن عمار صاحب طرابلس يستنجده على الإفرنج وكان استبدّ بها على الخلفاء العبيديّين أهل مصر وثار له الإفرنج عندما ملكوا سواحل الشام فبعث بالصريخ إلى سقمان بن أرتق سنة ثمان وتسعين فأجابه وبينما هو يتجهز للمسير وافاه كتاب طغتكين صاحب دمشق المستبدّ بها من موالي بني تتش يستدعيه لحضور وفاته خوفاً على دمشق من الفرنج فأسرع السير معتزماً على قصد طرابلس وبعدها فانتهى إلى القريتين وندم طغتكين على استدعائه وجعل يدبّر الرأي مع أصحابه في صرفه ومات هو بالقريتين فكفاهم الله تعالى أمره وقد كان أصحابه عندما أيقن بالموت أشاروا عليه بالعودة إلى كيفا فامتنع وقال: هذا جهاد وإن مت كان لي ثواب شهيد.

خروج منكبرس على السلطان محمد ونكبته

كان منكبرس بن يورس بن ألب أرسلان مقيماً بأصفهان وانقطعت عنه المواد من السلطان فخرج إلى نهاوند ودعا لنفسه وكاتب الأمراء بني برسق بخوزستان وبعثوا به إلى طاعته وكان أخوهم زنكي عند السلطان محمد فقبض عليه وكاتب إخوته في التدبير على منكبرس فأرسلوا إليه بالطاعة حتى جاءهم فقبضوا عليه بخوزستان وبعثوا به إلى أصفهان فاعتقل مع ابن تتش وأطلق زنكي بن برسق وأعيد إلى مرتبته وكانت أقطاع بني برسق الأسير وسابور وخوزستان وغيرهما ما بين الأهواز وهمذان فعوضهم عنها بالدينور وأخرجهم من تلك الناحية والله تعالى أعلم.

مقتل فخر الملك بن نظام الملك

قد ذكرنا قبل أنّ فخر الملك بن نظام الملك كان وزيراً لتتش ثم حبسه ولما هزمه بركيارق وجده في محبسه أطلقه وكان أخوه مؤيد الملك وزيراً له فمال إليه فخر الدولة بسعاية مجد الملك البارسلاني واستوزره سنة ثمان وثمانين ثم فارق وزارته ولحق بسنجر بن ملك شاه بخراسان فاستوزره فلما كان في آخر المائة الخامسة جاء باطني يتظلّم إلى باب داره فأدخله يسمع شكواه فطعنه بخنجر فقتله وأمر السلطان سنجر بضربه فأقرّ على جماعة من الناس وقتل.

ولاية جاولي سكاوو على الموصل وموت جكرمش

كان جاولي سكاوو قد استولى على ما بين خوزستان وفارس فعمّر قلاعها وحصنها وأساء السيرة في أهلها فلمّا استقلّ السلطان محمد بالملك خافه جاولي وأرسل السلطان إليه الأمير مودود بن أنوتكين فتحصّن منه جاولي وحاصره مودود ثمانية أشهر ودسّ جاولي إلى السلطان بطلب غيره فأرسل إليه خاتمه مع أمير آخر فسار إليه بأصفهان وجهّزه في العساكر لجهاد الإفرنج بالشام واسترجاع البلاد منهم وكان جكرمش صاحب الموصل قد قطع الحمل فأقطع السلطان الموصل وديار بكر والجزيرة لجاولي فسار إلى الموصل وجعل طريقه على البواريح فاستباحها أياماً ثم سار إلى إربل وكان صاحبها أبو الهيجاء بن برشك الكردي الهرباني إلى جكرمش يستحثه فسار في عسكر الموصل والتقوا قريباً من إربل فانهزم أصحاب جكرمش وكان يحمل في المحفة فقاتل عنده غلمانه وأحمد بن قاروت بك فخرج وانهزم إلى الموصل ومات وجيء بجكرمش فحبسه ووصل من الغد إلى الموصل فولوا أزنكين بن جكرمش.

وأقام بالجزيرة وقام بأمره غزغلي مولى مولى أبيه وفرّق الأموال والخيول وكتب إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم وكان قد شيّد الموصل وبنى أسوارها وحصّنها بالخندق وبينما هو كذلك سار إليه قليج أرسلان من بلاد الروم باستدعاء غزغلي كما تقدّم.

وانتهى إلى نصيبين فرحل جاولي عن الموصل ثم جاء البرسقي شحنة بغداد ونزل عن الموصل وخاطبهم فلم يجيبوه فرجع من يومه وسار قليج أرسلان من نصيبين إلى الموصل وتأخر عنها جاولي إلى سنجر واجتمع أبو الغازي بن أرتق وجماعة من عسكر جكرمش وجاء صريخ رضوان بن تتش من الشام على الإفرنج فسار إلى الرحبة وبعث أهل الموصل وعسكر جكرمش إلى قليج أرسلان بنصيبين واستحلفوا فحلف وجاء إلى الموصل فملكها في منتصف ختام المائة الخامسة وخلع على ابن جكرمش وخطب لنفسه بعد الخليفة وقطع خطبة السلطان محمد وأحسن إلى العسكر وأخذ القلعة من غزغلي فولّى جكرمش وأقرّ القاضي أبا محمد عبد الله بن القاسم الشهرزوري على القضاء وجعل الرئاسة لأبي البركات محمد بن خميس وكان في جملة فلّهم أرسلان إبراهيم بن نيال التركماني صاحب آمد ومحمد بن حموا صاحب خرتبرت كان إبراهيم بن نيال ولاّه تتش على آمد فبقيت بيده وكان ابن حموا ملك خرتبرت من يد القلادروس ترجمان الروم كانت له الرُّها وأنطاكية فملك سليمان قطلمش أنطاكية وبقيت له الرها وخرتبرت وأسلم القلادروس الرها.

فلما ولي فخر الدولة بن جهير ديار بكر ضعف القلادروس عن الرُّها على يد ملك شاه وأمره عليها ولما سار جاولي إلى الرحبة قاصداً صريخ رضوان بن تتش نزل عليها آخر رمضان من السنة وحاصرها وبها محمد بن السبّاق من بني شيبان ولاه عليها دقاق فاستبدّ بها وخطب لقليج أرسلان فحاصره جاولي وكتب إلى رضوان يستدعيه ويعده بالمسير معه للدفاع فجاء رضوان وحاصر معه الرحبة ثم دسّ إلى جاولي جماعة من حامية الأسوار فوثبوا بها ودخلوا وملك البلد وأبقى على محمد الشيباني وسار معه.

ثم أنّ قليج أرسلان لما فرغ من أمر الموصل ولّى عليها ابنه ملك شاه في عسكر ومعه أمير يدبره وسار إلى قتال جاولي ورجع عنه إبراهيم بن نيال إلى بلده آمد من الخابور فبعث إلى بلده في

الحشد فعاجله جاولي بالحرب والتقوا في آخر ذي القعدة من السنة وانهزم أصحاب قليج أرسلان على دفاعه وأعاد الخطبة للسلطان واستصفى أصحاب جكرمش ثم سار إلى الجزيرة وبها حبيس بن جكرمش ومعه غزغلي من موالي أبيه فحاصره مدّة ثم صالحه على ستة آلاف دينار ورجع إلى الموصل وأرسل ملك شاه من قليج أرسلان إلى السلطان محمد واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

مقتل صدقة بن مزيد

ولما استوحش صدقة بن مزيد صاحب الحلّة من السلطان محمد سار إليه السلطان وملك أعماله ولقيه صدقة فهزمه السلطان وقتل في المعركة كما ذكرنا ذلك في أخبار صدقة في دولة ملوك الحلّة واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

قدوم ابن عمّار صاحب طرابلس على السلطان محمد

كان فخر الدولة أبو علي بن عمّار صاحب طرابلس استبد بها على العبيدين فلما ملك الإفرنج سواحل الشام ردّدوا عليها الحصار فضافت أحوالها فلما انتظم الأمر للسلطان محمد واستقام ملكه قصده فخر الملك بن عمّار صريخاً للمسلمين بعد أن استخلف على طرابلس ابن عمه ذا المناقب وفرق في الجند عطاءهم لستة أشهر ورتّب الجامكية في مقاعدهم للقتال وسار إلى دمشق فلقيه طغتكين أتابك وخيم بظاهرها أياماً ورحل إلى بغداد فأركب السلطان الأمراء لتلقيه ولم يدخر عنه براً ولا كرامة وكذلك الخليفة وأتحف السلطان بهدايا وذخائر نفيسة وطلب النجدة وضمن النفقة على العسكر فوعده بالنصر وأقام ثم لقي الأمير حسين بن أتابك طغتكين ليسير بالعساكر إلى الموصل مع الأمير مودود لقتال صدقة جاولي ثم يسير حسين معه إلى الشام ثم رحل السلطان عن بغداد سنة إحدى وخمسمائة لقتال صدقة واستدعى ابن عمّار وهو بالنهروان فودعه وسار معه الأمير حسين إلى دمشق وكان ابن عمّار لما سار عن طرابلس استخلف عليها ابن عمه ذا المناقب فانتقض واجتمع مع أهل طرابلس على إعادة الدولة العلويّة وبعثوا إلى الأفضل ابن أمير الجيوش المستبدّ على الدولة بمصر بطاعتهم ويسألون الميرة فبعث إليهم شرف الدولة بن أبي الطيّب والياً ومعه الزاد من الأقوات والسلاح فدخل البلد وقبض على أهل ابن عمّار وأصحابه واستصفى ذخائرهم وحمل الجميع إلى مصر في البحر.

استيلاء مودود بن أبي شتكين على الموصل من يد جاولي

قد تقدّم لنا استيلاء جاولي على الموصل من يد قليج بن أرسلان وابن جكرمش وهلاكهما على يده واستفحل ملكه بالموصل وجعل السلطان محمد بن ألْيَة ولاية ما يفتحه من البلاد له فقطع الحمل عن السلطان واستنفره لحرب صدقة فلم ينفر معه وداخل صدقة بأنه معه فلمّا فرغ السلطان من أمر صدقة بعث مودود بن أبي شتكين في العساكر وولاه الموصل وبعث معه الأمراء ابن برسق وسقمان القطبي وأقسنقر البرسقي ونصر بن مهلهل بن أبي الشوك الكردي وأبو الهيجاء صاحب إربل مدداً فوصلوا الموصل وخيّموا عليها فوجدوا جاولي قد استعدّ للحصار وحبس الأعيان وخرج عن البلد وترك بها زوجته هي وابنه برسق في ألف وخمسمائة مقاتل فأحسن في مصادرة الناس واشتدّ عليهم الحصار فلما كان المحرّم سنة اثنتين خرج بعض الحامية من فرجة من السور وأدخلوا منها مودود والعساكر وأقامت زوجة جاولي بالقلعة ثمانية أيام ثم استأمنت وخرجت إلى أخيها يوسف بن برسق بأموالها واستولى مودود على الموصل وأعمالها.

وأمّا جاولي فلما سار عن الموصل وحمل معه القمص الذي كان أسره بنعمان وأخذه منه جكرمش وسار به إلى نصيبين وسأل من صاحبها أبو الغازي بن أرتق المظاهرة على السلطان فلم يجبه إلى ذلك ورحل عن نصيبين إلى ماردين بعد أن ترك ابنه مقيماً مع الحامية فتبعه جاولي ودخل عليه وحده بالقلعة متطارحاً عليه فأجابه وسار معه إلى نصيبين ثم إلى سنجر وحاصراها فامتنعت عليهما ثم هرب أبو الغازي ليلاً إلى نصيبين وتركه فسار جاولي إلى الرحبة وأطلق القمص برديل لخمس سنين من الصرّة على مال قرّره عليه وأسرى من المسلمين يطلقهم وعلى النصرة مهما طلبه وأرسله إلى سالم بن مالك بقلعة جعفر حتى جاء ابن خالته جوسكر صاحب تل باشر من زعماء الفرنج وكان أسر مع القمص فافتدى بعشرين ألف دينار وأقام جوسكر رهينة وسار القمص إلى أنطاكية.

ثم أطلق جاولي جوسكر وأخذ رهناً عنه صهره وصهر القمص وبعثه في إتمام ما ضمن ولما وصل إلى أنطاكية أعطاه شكري صاحبها ثلاثين ألف دينار وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك وكانت الرُّها وسروج بيد القمص ولما أسر ملك جكرمش الرها

من أصحابه طلبها منه الآن فلم يجبه فخرج القمص مغاضباً له ولحق بتل باشر وقدم عليه جوسكر عندما أطلقه جاولي ثم سار إليهما شكري يعاجلهما قبل اجتماع أمرهما فحاصرهما أياماً ورجع القمص وجوسكر على حصون أنطاكية واستمدّ أبو سيل الأرمني صاحب رعبان وكيسوم والقلاع شمالي حلب فأنجدهم بألف فارس وسار إليهم شكري وحضر البترك وشهد جماعة من القسيسين والبطارقة أنّ أسمند خال شكري قال له عندما ركب البحر إلى بلاده: أعد الرُّها إلى القمص إذا خلص من الأسر. فحكم البترك بإعادتها فأعادها تاسع صفر من السنة وعبر القمص الفرات ليرفع إلى جاولي المال والأسرى كما شرط له.

وكان جاولي لما أطلق القمص سار إلى الرحبة ولقيه أبو النجم بدران وأبو كامل منصور وكانا مقيمين بعد قتل أبيهما عند سالم بن مالك فاستنجداه ووعداه أن يسير معهما إلى الحلّة واتفقوا على تقديم أبي الغازي تكين ثم قدم عليهم أصبهبد صباوو وقد أقطعه السلطان الرحبة فأشار على جاولي بقصد الشام لخلوها عن العساكر والتجنب عن العراق وطريق السلطان فقبل إشارته وأحصر على الرحبة ثم وفد عليه صريخ سالم بن مالك صاحب جعفر يستغيث به من بني نمير وكان حيوش البصري قد نزل على ابن سالم بالرَّقّة وملكها وسار إليه رضوان من حلب فصالحه بنو نمير بالمال ورجع عليهم فاستنجد سالم الآن جاولي فجاء وحاصر بني نمير بالرقّة سبعين يوماً فأعطوه مالاً وخيلاً ورحل عنهم واعتذر لسالم.

ثم وصل جاولي إلى الأمير حسين بن أتابك قطلغ تكين كان أبوه أتابك السلطان محمد بكنجة فقتلته وتقدّم ولده هذا عند السلطان وبعثه مع ابن عمّار ليصلح أمر جاولي وتسير العساكر كلها إلى الجهاد مع ابن عمّار فأجاب جاولي لذلك وقال لحسين: سر إلى الموصل ورحّل العساكر عنها وأنا أعطيك ولدي رهينة وتكون الجباية لوال من قبل السلطان فجاء حسين إلى العساكر قبل أن يفتحوها فكلهم أجاب إلا الأمير مودود فإنه امتنع من الرحيل إلا بإذن من السلطان وأقام محاصراً لها حتى افتتحها وعاد ابن قطلغ إلى السلطان فأحسن الاعتذار عن جاولي وسار جاولي إلى بالس فملكها من أصحاب رضوان بن تتش وقتل جماعة من أهلها فيهم القاضي محمد بن عبد العزيز بن إلياس وكان فقيهاً صالحاً.

ثم سار رضوان بن دقاق لحرب جاولي واستمدّ شكري صاحب أنطاكية فأمدّه بنفسه وبعث إلى القمص بالرُّها يستمدّه وترك له مال المفاداة فباء إليه بنفسه ولحقه بمنبج وجاء الخبر إلى جاولي باستيلاء مودود وعساكر السلطان على الموصل وعلى خزائنه فاضطرب أمره وانفض عنه كثير من أصحابه منهم زنكي بن أقسنقر وبكتاش وبقي معه أصبهبذ صباوو وبدران بن صدقة وابن جكرمش وانضمّ إليه كثير من المتطوّعة ونزل تل باشر وأتى عسكر رضوان وشكري وكاد أن يهزمهم لولا أنّ أصحابه ساروا عنه وسار في اتباعهم فأبوا عليه فمضى منهزماً وقصد اصبهبذ الشام وبدران بن صدقة قلعة جعفر وابن جكرمش جزيرة ابن عمر وقتل من المسلمين خلق ونهب صاحب أنطاكية سوادهم وهرب القمص وجوسكر إلى تل باشر وكان المنهزمون من المسلمين يمرون بهم فيكرمونهم ويجيزونهم إلى بلادهم ولحق جاولي بالرحبة فلقي بها سرايا مودود صاحب الموصل وخفي عنهم فارتاب في أمره ولم ير الخير له من قصد السلطان محمد ثقة بما ألقى إليه حسين بن قطلغ تكين في شأنه فأوغر في السير ولحق بالسلطان قريباً من أصفهان ونزل حسين بن قطلغ فدخل به إلى السلطان فأكرمه وطلب منه بكتاش ابن عمه تتش واعتقله بأصفهان.

مقتل مودود بن أنوتكين صاحب الموصل في حرب الإفرنج وولاية البرسقي مكانه

كان السلطان محمد قد أمر مودوداً صاحب الموصل سنة خمس وخمسمائة بالمسير لقتال الإفرنج وأمدّه بسمقان القطبي صاحب ديار بكر وأرمينية وأياكي وزنكي ابني برسق أمراء همذان وما جاورها والأمير أحمد بك أمير مراغة وأبو الهيجاء صاحب إربل والأمير أبو الغازي صاحب ماردين وبعث إليه أياز مكانه فسار إلى سنجر وفتحوا حصوناً للإفرنج وحاصروا مدينة الرُّها فامتنعت عليهم وأقام الإفرنج على الفرات بعد أن طرقوا أعمال حلب فعاثوا فيها ثم حاصر العساكر الإسلاميّة قلعة باشر فامتنعت ودخلوا إلى حلب فامتنع رضوان من لقائهم فعادوا ومات سقمان القطبي في دلاس فحمله أصحابه في تابوت إلى بلاده واعترضهم أبو الغازي بن أرتق ليأخذهم فهزموه.

ثم افترقت العساكر بمرض ابن برسق ومسير أحمد بن صاحب مراغة إلى السلطان لطلب بلاد سقمان القطبي واجتمع قطلغتكين صاحب دمشق بمودود ونزل معه على نهر القاضي وسمع الإفرنج بافتراق العساكر فساروا إلى ماميا.

وجاء السلطان ابن منقذ صاحب شيرز إلى مودود وقطلغتكين وحصرهما على الجهاد ونزلوا جميعاً على شيزر ونزل الفرنج قبالتهم ثم رأوا قوّة المسلمين فعادوا إلى أفامية ثم سار

مودود سنة ست إلى الرُّها وسروج فعاث في نواحيها فكبسه جوسكر صاحب تلك باشر في الإفرنج ونال منه.

ثم اجتمع المسلمون سنة سبع للجهاد باستنجاد قطلغتكين صاحب دمشق لمودود فاجتمع معه بمنزل صاحب سنجر وأياز بن أبي الغازي وعبروا الفرات إلى قطلغتكين وقصدوا القدس فسار إليهم صاحبها بقزوين ومعه جوسكر ومعه تل باشر على جيشه ونزلوا الأردن واقتتلوا قريباً من طبرية فانهزم الإفرنج وقتل كثير منهم وغرق كثير في بحيرة طبرية ونهر الأردن وغنم المسلمون سوادهم ثم لقيهم عسكر طرابلس وأنطاكية من الفرنج فاستعانوا بهم وعاودوا الحرب ونزلوا في جبل طبرية فحاصرهم فيه المسلمون ثم ساروا فغاثوا في بلاد الإفرنج ما بين عكا إلى القدس.

ثم نزلوا دمشق وفرق مودود عساكره ووعدهم العود من قابل للجهاد ودخل دمشق ليستريح عند قطلغتكين فصلى الجمعة في الجامع فطعنه باطنيّ فأثواه وهلك لآخر يومه واتهم قطلغتكين به وقتل الباطني من يومه ولما بلغ الخبر السلطان بقتل مودود ولّى على الموصل وأعمالها أقسنقر البرسقي سنة ثماني وخمسمائة وبعث معه ابنه الملك مسعود في جيش كثيف وأمره بجهاد الإفرنج وكتب إلى الأمراء بطاعته فوصل إلى الموصل واجتمعت إليه عساكر النواحي فيهم عماد الدين زنكي بن أقسنقر وغير صاحب سنجر وسار البرسقي إلى جزيرة ابن عمر فأطاعه نائب مودود بها ثم سار إلى ماردين فأطاعه أبو الغازي صاحبها وبعث معه ابنه أياز فسار إلى الرُّها فحاصرها شهرين ثم ضاقت الميرة على عسكره.

ثم رحل إلى سميساط بعد أن خرب نواحي الرُّها وسروج وسميساط وكانت مرعش للإفرنج هي وكيسوم ورعبان وكان صاحبها كراسك واتفقت وفاته وملكت زوجته بعده فراسلت البرسقي بالطاعة وبعث إليها رسوله فأكرمته ورجعته إلى البرسقي بالهدايا والطاعة وفرّ عنها كثير من الإفرنج إلى أنطاكية ثم قبض البرسقي على أياز بن أبي الغازي لاتهامه إيّاه في الطاعة فسار إليه أبو الغازي في العساكر وهزمه واستنقذ ابنه أياز من أسره كما ترى في أخبار دولة أبي الغازي وبنيه وبعث السلطان يهدّده فوصل يده بقطلغتكين صاحب دمشق والفرنج وتحالفوا على التظاهر ورجع أبو الغازي إلى ديار بكر فسار إليه قزجان بن مراجا صاحب حمص وقد تفرّق عنه أصحابه فظفر به وأسره وجاء قطلغتكين في عساكره وبعث إلى قزجان في إطلاقه فامتنع وهمّ بقتله فعاد عنه قطلغتكين إلى دمشق وكان قزجان قد بعث إلى السلطان يخبره وانتظر من يصل في قتله فأبطأ عليه فأطلق أبا الغازي بعد أن توثق منه بالخلف وأعطاه ابنه أياز رهينة ولما خرج سار إلى حلب وجمع التركمان وحاصر قزجان في طلب ابنه إلى أن جاءت عساكر السلطان.

مسير العساكر لقتال أبي الغازي وقطلغتكين والجهاد بعدهما

ولما كان ما ذكرناه من عصيان أبي الغازي وقطلغتكين على السلطان محمد وقوّة الفرنج على المسلمين جهز السلطان جيشاً كثيراً مقدّمهم الأمير برسق صاحب همذان ومعه الأمير حيُوس بك والأمير كشغرة وعساكر الموصل والجزيرة وأمرهم بقتال أبي الغازي وقطلغتكين فإذا فرغوا منهما ساروا إلى الفرنج فارتجعوا البلاد من أيديهم فساروا لذلك في رمضان من سنة ثمان وعبروا الفرات عند الرقّة وجاؤوا إلى حلب وطلبوا من صاحبها لؤلؤ الخادم ومن مقدّم العسكر المعروف بشمس الخواص تسليم حلب بكتاب السلطان في ذلك فتعلل عليهم وبعث إلى أبي الغازي وقطلغتكين بالخبر واستنجدهما فسار إليه في ألفين وامتنعت حلب على عساكر السلطان فسار برسق بالعساكر إلى حماة وهي لقطلغتكين فملكها عنوة وسلمها إلى قرجان صاحب حمص بعهد السلطان له بذلك في كل ما يفتحونه من البلاد فثقل ذلك على الأمراء وتخاذلوا وتسلم قرجان حماة من برسق وأعطاه ابن أبي الغازي ابنه رهينة عنده.

ثم سار أبو الغازي وقطلغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية مستنجدين بصاحبها برديل وجاءهم بعد ذلك بغدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الإفرنج واتفقوا على تأخير الحرب إلى انصرام الشتاء واجتمعوا بقلعة أفامية وأقاموا شهرين وانصرم الشتاء والمسلمون مقيمون فوهنت عزائم الإفرنج وعادوا إلى بلادهم وعاد أبو الغازي إلى ماردين وقطلغتكين إلى دمشق وسار المسلمون إلى كفرطاب من بلاد الإفرنج فحاصروه وملكوه عنوة وأسروا صاحبه واستلحموا من فيه ثم ساروا إلى قلعة أفامية فامتنعت عليهم فعادوا إلى المعرة وفارقهم حيُوس بك إلى مراغة فملكه.

وسارت العساكر من المعرّة إلى حلب وقدموا أثقالهم وخيامهم فصادفهم برديل صاحب أنطاكية في خمسمائة فارس وألفي راجل صريخاً لأهل كفرطاب وصادف مخيم العسكر ففتك فيه وفعل الأفاعيل وهم متلاحقون وجاء الأمير برسق وعاين مصارعهم وأشار عليه إخوته بالنجاء بنفسه فنجا بنفسه واتبعهم

الإفرنج ورجعوا عنهم على فرسخ وعاثوا في المسلمين في كل ناحية وقتل أياز بن أبي الغازي قتله الموكلون به وجاء أهل حلب وغيرها من بلاد المسلمين ما لم يحتسبوه ويئسوا من النصرة ورجعت العساكر منهزمة إلى بلادها وتوفي برسق زنكي سنة عشر بعدها.

ولاية حيّوس بك ومسعود ابن السلطان محمد علي الموصل

ثم أقطع السلطان الموصل وما كان بيد أقسنقر البرسقي للأمير حيُوس بك وبعث معه ابنه مسعوداً وأقام البرسقي بالرحبة وهي إقطاعه إلى أن توفي السلطان محمد.

ولاية جاولي سكاو على فارس وأخباره فيها ووفاته

كان جاولي سكاو لما رجع إلى السلطان محمد ورضي عنه ولاه فارس وأعمالها وبعث معه ابنه جعفري بك طفلاً كما فصل من الرضاع وعهد إليه بإصلاحها فسار إليها ومرّ بالأمير بلداجي في بلاده كليل وسرماة وقلعة إصطخر وكان من مماليك السلطان ملك شاه فاستدعاه للقاء جعفري بك وتقدّم إليه بأمر يأمر بالقبض عليه فقبض عليه ونهبت أمواله وكان أهله وذخائره في قلعة إصطخر وقد استناب فيها وزيره الخيمي ولم يمكنه إلا من بعض أهله فلما وصل جاولي إلى فارس ملكها منه وجعل فيها ذخائره ثم أرسل إلى خسرو وهو الحسين بن مبارز صاحب نسا وأمير الشوامكار من الأكراد فاستدعاه للقاء جعفري بك من السلطان خشية مما وقع لبلداجي فأعرض عنه وأظهر الرجوع إلى السلطان ومضى رسول بخبره فبشر بانصرافه عن فارس فما أدّى إليه الخبر إلا وجاولي قد خالطهم رجع من طريقه وأوعز في السير إليهم.

ثم هرب خسرو إلى عدالج وفتك جاولي في أصحابه وماله ثم سار جاولي إلى مدينة نسا فملكها ونهب جهرم وغيرها وسار إلى خسرو فامتنع عليه بحصنه فرجع إلى شيراز وأقام بها ثم سار إلى كازرون فملكها وحاصر أبا سعيد بن محمد في قلعته مدّة عامين وراسله في الصلح فقتل الرسول مرّتين ثم اشتدّ عليه الحصار واستأمن فأمّنه وملك الحصن ثم استوحش من جاولي فهرب وقبض على ولده وجيء به أسيراً فقتل

ثم سار جاولي إلى دارابجرد فهرب صاحبها إلى كرمان وصاحبها أرسلان شاه كرمان شاه ابن أرسلان بك بن قاروت بك فسار جاولي إلى حصار درابجرد فامتنعت عليه فخرج إلى البرية ثم جاءهم من طريق كرمان كأنة مدد لهم من صاحب كرمان فأدخلوه فملك البلد واستلحم أهله.

ثم سار إلىكرمان وبعث إلى خسرو مقدّم الشوذكان يستدعيه للمسير معه فلم يجد بدّاً من موافقته وجاء وصاحبه إلى كرمان وبعث إلى ملك كرمان بإعادة الشواذكان الذين عنده فبعث بالشفاعة فيهم فاستخلص السلطان الرسول بالإحسان وحثه على صاحبه ووعده بأن يردّ العساكر عن وجهه ويخذلهم عنه ما استطاع وانقلب عنه إلى صاحبها في عساكر كرمان مع وزيره بالسيرجان فتراءى لهم أنّ جاولي عازم على مواصلتهم وأنه مستوحش من اجتماع العساكر بالسيرجان وأشار عليه بالرجوع فرجعوا وسار جاولي في أثر الرسول وحاصر حصناً بطرف كرمان فارتاب ملك كرمان بخبر الرسول ثم اطلع عليه من غير جامعة فقتله ونهب أمواله وبعث العساكر لقتاله

واجتمع معهم صاحب الحصن المحاصر وسلك بهم غير الجادّة وسمع جاولي بخبرهم فأرسل بعض الأمراء ليأتيه بالخبر فلم يجد أحداً فرجع وأخبره أن عسكر كرمان قد رجع فاطمأنّ ولم يكن إلا قليل حتى بيتته عساكر كرمان في شوّال سنة ثمان وخمسمائة فانهزم وفتكوا فيه قتلاً وأسراً وأدركه خسرو بن أبي سعد الذي كان قتل أباه فلما رآهما خاف منهما فآنساه وأبلغاه إلى مأمنه بمدينة نسا ولحقه عساكره وأطلق ملك كرمان الأسرى وجهزهم إليه وبينما هو يجهز العساكر لكرمان لأخذ ثأره توفي جعفري بك ابن السلطان في ذي الحجة من تسع لخمس سنين من عمره فقطعه ذلك عن معاداة كرمان ثم بعث ملك كرمان إلى السلطان ببغداد في منع جاولي عنه فقال: لا بدّ أن تسلّم الحصن إلى حاصره جاولي في حدّ كرمان وانهزم عليه وهو حصن فرح ثم توفي جاولي في ربيع سنة عشر فأمنوا إعادته والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان محمد وملك ابنه محمود

ثم توفي السلطان محمد بن ملك شاه آخر ذي الحجة سنة اثنتي عشرة من ملكه بعد أن أجلس ولده محموداً على الكرسي قبل وفاته بعشر ليال وفوّض إليه أمور الملك فلما توفي نفذت وصيته لابنه محمود فأمره فيها بالعدل والإحسان وخطب له ببغداد

وكان مناهز الحلم وكان السلطان محمد شجاعاً عادلاً حسن السيرة وله آثار جميلة في قتال الباطنيّة وقد مرّ ذكرها في أخبارهم ولما ولي قام بتدبير دولته الوزير أبو منصور وأرسل إلى المستظهر في طلب الخطبة ببغداد له في منتصف المحرم من سنة اثنتي عشرة وأقر طهارون شحنة على بغداد وقد كان السلطان محمد ولاه عليها سنة اثنتين وخمسمائة ثم عاد البرسقي وقاتله وانهزم إلى عسكر السلطان محمود على الحلّة دبيس بن صدقة وقد كان عند السلطان محمد منذ قتل أبوه صدقة وأحسن إليه وأقطعه وولّى على الحلّة سعيد بن حميد العمري صاحب جيش صدقة فلما توفي رغب من ابنه السلطان محمود بالعودة إلى الحلّة فأعاده واجتمع عليه العرب والأكراد.

وفاة المستظهر وخلافة ابنه المسترشد

ثم توفي المستظهر بن المقتدي سنة اثنتي عشرة وخمسمائة منتصف ربيع الآخر ونصب للخلافة ابنه المسترشد واسمه الفضل وقد تقدّم ذلك في أخبار الخلفاء.

خروج مسعود ابن السلطان محمد على أخيه محمود

تقدّم لنا أنّ السلطان ولّى على الموصل ابنه مسعوداً ومعه حيُوس بك وأن السلطان محموداً ودبيس بن صدقة سارا إلى الحلّة فلما توفي السلطان محمد وولي ابنه محمود سار مسعود من الموصل مع أتابك حيُوس بك ووزيره فخر الملك عليّ بن عمّار وقسيم الدولة وزنكي بن أقسنقر صاحب سنجر وأبي الهيجاء صاحب إربل وكرباوي بن خراسان صاحب البوازيج وقصدوا الحلّة فدافعهم دبيس فرجعوا إلى بغداد وسار البرسقي إلى قتالهم فبعث إليه حيُوس بك بأنهم إنما جاؤوا لطلب الصريخ على دبيس صاحب الحلّة فاتفقوا وتعاهدوا ونزل مسعود بدار الملك ببغداد وجاء الخبر بوصول عماد الدين منكبرس الشحنة وقد كان البرسقي هزم ابنه حسيناً كما مر فسار بالعساكر إلى البرسقي فلما علم بدخول مسعود إلى بغداد عبر دجلة من النعمانيّة إلى دبيس بن صدقة فاستنجده وخرج مسعود وحيُوس بك والبرسقي ومن معهم للقائهم وانتهوا إلى المدائن فأتتهم الأخبار بكثرة جموع منكبرس ودبيس فرجعوا وأجازوا نهر صرصر ونهبوا السواد من كل ناحية.

وبعث المسترشد إلى مسعود والبرسقي والحث على الموادعة والصلح وجاءهم الخبر بأنّ منكبرس ودبيس بعثا مع منصور أخي دبيس وحسين بن ارز وبني منكبرس عسكراً لحماية بغداد فرجع البرسقي إلى بغداد ليلاً ومعه زنكي بن أقسنقر وترك ابنه عز الدين مسعوداً على العسكر بصرصر فالتقى ومنع عسكر منكبرس من العبور وأقام يومين ثم وافاه كتاب ابنه بأنّ الصلح تمّ بين الفريقين بعده ففشل وعبر إلى الجانب الغربي ومنصور وحسين في أثره ونزلا عند جامع السلطان وخيم البرسقي عند القنطرة القبلية وخيم مسعود وحيُوس بك عند المارستان ودبيس ومنكبرس تحت الرقة وعز الدين مسعود بن البرسقي عند منكبرس منفرداً عن أبيه.

وكان سبب انعقاد الصلح أن حيُوس بك أرسل إلى السلطان محمود يطلب الزيارة له وللملك مسعود فأقطعهما أذربيجان ثم وصل الخبر بمسيرهما إلى بغداد فاستشعر منهما العصيان وجهز العساكر إلى الموصل فكتب إليه رسوله بذلك ووقع الكتاب بيد منكبرس الشحنة فبعث إليه وضمن له إصلاح الحال له وللسلطان مسعود وكان منكبرس متزوّجاً بأم السلطان مسعود واسمها سرجهان فكان يؤثر مصلحته فاستقرّ الصلح واتفقوا على إخراج البرسقي من بغداد إلى الملك وأقام عنده واستقر منكبرس شحنة بغداد وساء أثره في الرعية وتعرض لأموال الناس وحرمهم وبلغ الخبر إلى السلطان محمود فاستدعاه إليه فبقي يدافع ثم سار خوفاً من عامة بغداد والله سبحانه وتعالى أعلم.

خروج الملك طغرل على أخيه السلطان محمود

كان الملك طغرل بن السلطان محمد عند وفاة أبيه مقيماً بقلعة سرجهان وكان أبوه أقطعه سنة أربع سماوة وآوه وزنجان وجعل أتابكه الأمير شيركير الذي حاصر قلاع الإسماعيليّة كما مرّ في أخبارهم وكان عمره يومئذ عشراً فأرسل السلطان محمد الأمير كسعدي أتابكاً له وأعجله إليه وكان كسعدي حاقداً عليه فحمل طغرل على العصيان ومنعه من المجيء إلى أخيه وانتهى ذلك إلى محمود فأرسل إلى أخيه بتحف وخلع وثلاثين ألف دينار ومواعد جميلة فلم يصيخوا إليها وأجابه كسعدي: إننا في الطاعة ومعترضون لمراسم الملك فسار إليهم السلطان مغذّاً ليكيسهم وجعل طريقه على قلعة شهران التي فيها ذخائر طغرل وأمواله

ونمي الخبر إلى طغرل وكسعدي فخرجا من العسكر في خفية فاصدين شهران وأخلى الطريق عنها لما سبق من اللطف فوقعا على قلعة سرجهان وجاء السلطان إلى العسكر فأخذ خزائن أخيه طغرل وفيها ثلاثمائة ألف دينار ثم أقام بزنجان أياماً ولحق منها بالريّ ولحق طغرل وكسعدي بكنجة واجتمع إليه أصحابه وتمكنت الوحشة بينه وبين أخيه.

فتنة السلطان محمود مع عمه سنجر

ولما توفي السلطان محمود بلغ الخبر إلى أخيه سنجر بخراسان أظهر من الجزع والحزن ما لم يسمع بمثله حتى جلس للغراء على الرماد وأغلق بابه سبعاً ثم سمع بولاية ابنه محمود فنكر ذلك وعزم على قصد بلاد الجبل والعراق وطلب السلطنة لنفسه مكان أخيه وكان قد سار إلى غزنة سنة ثمان وخمسين وفتحها وتنكر لوزيره أبي جعفر محمد بن فخر الملك أبي المظفر بن نظام الملك لما بلغه أنّه أخذ عليه الرشوة من صاحب غزنة ليثنيه عن قصده إليه وفعل مثل ذلك بما وراء النهر وامتحن أهل غزنة بعد فتحها وأخذ منها أموالاً عظيمة وشكا إليه الأمراء إهانته أياهم فلما عاد إلى بلخ قبض عليه وقتله واستصفى أمواله وكانت لا يعبر عنها كان فيها من العين وحده ألف دينار مرتين واستوزر بعده شهاب الإسلام عبد الرزاق ابن أخي نظام الملك وكان يعرف بابن الفقير فلما مات أخوه السلطان محمد عزم على طلب الأمر لنفسه وعاوده الندم على قتل وزيره أبي جعفر لما يعلم من اضطجاعه بمثلها.

ثم انّ السلطان محموداً بعث إليه يصطنعه بالهدايا والتحف وضمن له ما يزيد عن مائتي ألف دينار كل سنة وبعث في ذلك شرف الدين أنو شروان بن خالد وفخر الدين طغرل فقال لهما سنجر: ان ابن أخي صغير وقد تحكم عليه وزيره وعلى ابن عمر الحاجب فلا بدّ من المسير وبعث في مقدّمته الأمير أنز.

وسار السلطان محمود وبعث في مقدّمته الحاجب علي بن محمد وكان حاجب أبيه قبله فلما تقاربت المقدّمتان بعث الحاجب علي بن عمر إلى الأمير أنز وهو بجرجان بالعتاب ونوع من الوعيد فتأخر عن جرجان فلحقته بعض العساكر ونالوا منه ورجع الحاجب إلى السلطان محمود بالريّ فشكر له فعله وأقاموا بالريّ ثم ساروا إلى كرمان وجاءته الأمداد من العراق مع منكبرس ومنصور بن صدقة أخي دبيس وأمراء فسار إلى همذان وتوفي وزيره الربيب فاستوزر أبا طالب الشهيري.

ثم سار السلطان في عشرين ألفاً وثمانية عشر فيلاً ومعه ابن الأمير أبي الفضل صاحب سجستان وخوارزم شاه محمد والأمير أنز والأمير قماج وكرشاسف بن ضرام بن كاكويه صاحب برد وهو صهره على أخته وكان خصيصاً بالسلطان محمد فاستدعاه بعد موته سنجر وتأخر عنه وأقطع بلده لقراجا السامر فبادر إليه وتراجعوا بقرب ساوة في جمادي ثالث عشرة فسبقت عساكر السلطان محمود إلى الماء من أجل المسافة التي بين ساوة وخراسان وكانت عساكر السلطان ثلاثين ألفاً ومعه الحاجب علي بن عمر ومنكبرس وأتابك غزغلي وبنو برسق وأقسنقر البخاري وقراجاً الساني ومعه سبعمائة حمل من السلاح فعندما اصطفوا جلى الحرب انهزم عساكر السلطان سنجر ميمنة وميسرة وثبت هو في القلب والسلطان محمود قبالته.

وحمل السلطان سنجر في الفيلة فانهزمت عساكر السلطان محمود وأسر أتابك غزغلي وكان يكاتب السلطان سنجر بأنه يحمل إليه ابن أخيه فعاتبه على ذلك ثم قتله ونزل سنجر في خيام محمود واجتمع إليه أصحابه ونجا محمود من الواقعة وأرسل دبيس بن صدقة للمسترشد في الخطبة لسنجر فخطب له أواخر جمادى الأولى من السنة وقطعت خطبة محمود ثم إنّ السلطان سنجر رأى قلة أصحابه وكثرة أصحاب محمود فراسله في الصلح وكانت تحضه على ذلك والدته فامتنع ولحق البرسقي بسنجر وكان عند الملك مسعود بأذربيجان من يوم خروجه من بغداد فسار سنجر من همذان إلى الكرخ وأعاد مراسلة السلطان محمود في الصلح ووعده بولاية عهده فأجاب وتحالفا على ذلك.

وسار محمود إلى عمه سنجر في شعبان بهدية حافلة ونزل على جدّته فتقبّل منه سنجر وقدّم له خمسة أفراس عربيّة وكتب لعماله بالخطبة لمحمود بعده في جميع ولايته وإلى بغداد بمثل ذلك وأعاد عليه جميع ما أخذه من بلاده سوى الريّ وصار محمود في طاعة عمه سنجر ثم سار منكبرس عن السلطان محمود إلى بغداد وبعث دبيس بن صدقة من منعه من دخولها فعاد ووجه الصلح بين الملكين قد أسفر فقصد السلطان سنجر مستجيراً به من الاستبداد عليه ومسيره لشحنة بغداد من غير إذنه ثم إنّ الحاجب علي بن عمر ارتفعت منزلته في دولته وكثرت سعاية الأمراء عنه فاضمر السلطان نكبته فاستوحش وهرب إلى قلعة له كان ينزل بها أهله وأمواله وسار منها إلى خوزستان وكانت بنو برسق أسوري وابن أخويه أرغوي بن ملتكي وهدد بن زنكي بعثوا عسكراً يصدّونه عن بلادهم ولقوه قريباً من تستر فهزموه وجاؤوا به أسيراً وكاتبوا السلطان محموداً بأمرهم فأمرهم بقتله وحمل رأسه

إليه ثم أمر السلطان سنجر بإعادة مجاهد الدّين تهدّدوا إلى شحنة بغداد فعاد إليها وعزل نائب دبيس بن صدقة.

استبداد علي بن سكمان بالبصرة

كان السلطان محمد قد أقطع البصرة للأمير أقسنقر البخاري واستخلف عليها سنقر الشامي فأحسن السيرة فلما توفي السلطان محمد وثب عليه غزغلي مقدّم الأتراك الإسماعيلية وكان يحج بالناس منذ سنين وسنقر ألباً وملكا البصرة من يده وحبساه وذلك سنة إحدى عشرة.

وهم سنقر ألباً بقتله فعارضه غزغلي فلم يرجع وقتله. فقتله غزغلي به وسكن الناس وكان بالبلد أمير اسمه علي بن سكمان حج بالناس وغاب عن هذه الواقعة فغصّ به غزغلي لتمام الحج على يده وخشي أن يثأر منهم بسنقر ألبا لتقدّمه عليهم فأوغر إلى عرب البريّة فنهب الحاج وانثنى علي بن سكمان في الدفاع عنهم إلى أن قارب البصرة والعرب يقاتلونه فبعث إليه غزغلي بالمنع من البصرة فقصد القرى أسفل دجلة وصدق الحملة على العرب فهزمهم ثم سار إليه غزغلي وقاتله فأصابه سهم فمات وسار علي بن سكمان إلى البصرة وملكها وكاتبه أقسنقر البخاري وصاحب عمان بالطاعة وأقرّ نوابه على أعماله وكان عند السلطان وطلبه أن يوليه البصرة فأبى وبقي ابن سكمان مستبداً بالبصرة إلى أن بعث السلطان أقسنقر البخاري إلى البصرة سنة أربع عشرة فملكها من علي بن سكمان.

استيلاء الكرج على تفليس

كان الكرج قديماً يغيرون على أذربيجان وبلاد أرّان.

قال ابن الأثير: والكرج هم الخزر.

وقد بينا الصحيح من ذلك عند ذكر الأنساب وأنّ الخزر هم التركمان إلا أن يكون الكرج من بعض شعوبهم فيمكن ولما استفحل ملك السُّلجوقيّة أمسكوا عن الإغارة على البلاد المجاورة لهم فلما توفي السلطان محمد رجعوا إلى الغارة فكانت سراياهم وسرايا القفجاق تغير على البلاد ثم اجتمعوا وكانت بلد الملك طغرك وهي أرّان ونقجوان إلى أوس مجاورة لهم فكانوا يغيرون عليها إلى العراق للملك بغداد ونزل على دبيس بن صدقة فسار هو وأتابك كبغري ودبيس بن صدقة وأبي الغازي بن أرتق.

وسار في ثلاثين ألفاً إلى الكرج والقفجاق فاضطرب المسلمون وانهزموا وقتل منهم خلق وتبعهم الكفار عشرة فراسخ وعادوا عنهم وحاصروا مدينة تفليس وأقاموا عليها سنة وملكوها عنوة سنة خمس عشرة ووصل صريخهم سنة ست عشرة إلى السلطان محمود بهمذان فسار لصريخهم وأقام بمدينة تبريز وأنفد عساكره إلى الكرج فكان من أمرها ما يذكر إن شاء الله تعالى.

الحرب بين السلطان محمود وأخيه مسعود

قد تقدّم مسير مسعود إلى العراق وموت أبيه السلطان محمد وما تقرّر بينهما من الصلح ورجوعه إلى الموصل بلده وأن السلطان محموداً زاده أذربيجان ولحق به قسيم الدولة البرسقي عندما طرده عن شحنة بغداد فأقطعه مسعود مراغة مضافة إلى الرحبة وكاتب دبيس حيُّوس بك أتابك مسعود يحرّضه على نكبة البرسقي وأنه يباطن السلطان محموداً ووعده على ذلك بالأموال وحرضهم على طلب الأمر لمسعود ليقع الاختلاف فيحصل له علو الكلمة كما حصل لأبيه في فتنة بركيارق ومحمد وشعر البرسقي بسعاية دبيس فخشي على نفسه ولحق بالسلطان محمود فقبله وأعلى محلّه.

ثم اتصل بالملك مسعود الأستاذ أبو إسماعيل الحسين بن علي الأصفهاني الطغرائي وكان ابنه أبو الوليد بن أبي إسماعيل يكتب الطغراء للملك مسعود فلما وصل أبوه استوزره مسعود وعزل أبا عليّ بن عمّار صاحب طرابلس سنة ثلاث عشرة فأغرى مسعوداً بالخلاف على أخيه السلطان محمود فكتب إليهم السلطان بالترغيب والترهيب فأظهروا أمرهم وخاطبوا الملك مسعوداً بالسلطان وضربوا له النوب الخمس وأغذّوا إليه السير وهو في خف من العسكر فسار إليهم في خمسة عشر ألفاً وفي مقدّمته البرسقي ولقيهم بعقبة أستراباز منتصف ربيع الأوّل سنة أربع عشرة فانهزم الملك مسعود وأصحابه وأسر جماعة من أعيانهم منهم الأستاذ أبو إسماعيل الطغرائي وزير الملك مسعود فأمر السلطان محمود بقتله وقال: ثبت عندي فساد عقيدته وكان قتله لسنة من وزارته وكان كاتباً شاعراً يميل إلى صناعة الكيمياء وله فيها تصانيف معدودة.

ولما انهزم الملك مسعود لحق ببعض الجبال على اثني عشر فرسخاً من المعركة فاختفى فيه مع غلمان صغار وبعث يستأمن إلى أخيه فأرسل إليه أقسنقر البرسقي يؤمنه ويجيء به إليه وخالفه إليه بعض الأمراء فحرّضه على اللحاق بالموصل وأذربيجان ومكاتبة دبيس ومعاودة الحرب فسار معه لذلك وجاء البرسقي إلى مكانه

الأوّل فلم يجده فاتبعه إلى أن أدركه على ثلاثين فرسخاً وأعلمه حال أخيه من الرضا عنه وأعاده فرجع ولقيه العساكر بأمر السلطان محمود وأنزله عند أمه ثم أحضره وهشّ له وبكى وخلطه بنفسه وذلك لثمانية وعشرين يوماً من الخطبة بأذربيجان. وأما حيُوس بك الأتابك فافترق عن السلطان من المعركة وسار إلى الموصل وجمع الغلال من سوادها واجتمعت إليه العساكر وبلغه فعل السلطان مع أخيه فسار إلى الزاب موريا بالصيد ثم أجدّ السير إلى السلطان بهمذان فأمنه وأحسن إليه وبلغ الخبر بالهزيمة إلى دبيس وهو بالعراق فنهب البلاد وأخربها وبعث إليه السلطان فلم يصغ إلى كتابه.

ولاية أقسنقر البرسقي على الموصل ثم على واسط وشحنة العراق

ولما وصل حيُوس بك إلى السلطان محمود بعثه إلى أخيه طغرل وأتابك كبغري فسار إلى كنجة وبقي أهل الموصل فوضى من غير وال وكان أقسنقر البرسقي قد أبلى في خدمة السلطان محمود وردّ إليه أخاه مسعوداً يوم الهزيمة فعرف له حقّ نصحه وحسن أثره فأقطعه الموصل وأعمالها وما يضاف إليها كسنجر والجزيرة فسار إليها سنة خمس عشرة وتقدّم إلى سائر الأمراء بطاعته وأمره بمجاهدة الإفرنج واسترجاع البلاد منهم فوصل إلى الموصل وقام بتدبيرها وإصلاح أحوالها ثم أقطعه سنة ست عشرة بعدها مدينة واسط وأعمالها مضافة إلى الموصل وجعله شحنة بالعراق فاستخلف عماد الدين زنكي بن أقسنقر وبعثه إليها فسار إليها في شعبان من السنة.

مقتل حيوس بك والوزير الشهيرمي

ثم إنّ السلطان بعد وصول حيُوس بك بعثه لحرب أخيه طغرل كما قلناه وأقطعه أذربيجان فتنكر له الأمراء وأغروا به السلطان فقتله على باب هرمز في رمضان سنة عشر وأصله تركي من موالي السلطان محمد وكان عادلاً حسن السيرة ولما ولي الموصل والجزيرة وكان الأكراد بتلك الأعمال انتشروا وكثرت قلاعهم وعظم فسادهم فقصدهم وفتح كثيراً من قلاعهم كبلد الهكاريه وبلد الزوزن وبلد النكوسة وبلد التخشيبة وهربوا منه في الجبال والشعاب والمضايق وصلحت السابلة وأمن الناس.

وأما الوزير الكمال أبو طالب الشهيرمي فإنه برز مع السلطان دبيس إلى همذان وخرج في موكبه وضاق الطريق فتقدّم الموكب بين يديه فوثب عليه باطني وطعنه بسكين فأنفذه واتبعه الغلمان فوثب عليه آخر فجذبه عن سرجه وطعنه طعنات وشردهم الناس عنه فوثب آخر فجذبه وذلك لأربع سنين من وزارته وكان سيّئ السيرة ظلوماً غشوماً كثير المصادرات ولما قتل رفع السلطان ما كان أحدث من المكوس.

رجوع طغرل إلى طاعة أخيه السلطان محمود

قد ذكرنا عصيان طغرل على أخيه السلطان محمود بالريّ سنة ثلاث عشرة وأنّ السلطان محمود سار إليه وكبسه فلحق برجهان ثم لحق منها بكنجة وبلاد أرّان ومعه أتابك كبغري فاشتدّت شوكته وقصد التغلب على بلاد أذربيجان وهلك كبغري في شوّال سنة خمس عشرة ولحق باقسنقر الأرمني صاحب مراغة ليقيم له الأتابكية وحرّضه على قتال السلطان محمود فسار معه إلى مراغة ومروا بأردبيل فامتنعت عليهم فساروا إلى هرمز وجاءهم الخبر هنالك بأن السلطان محمود بعث الأمير حيُوس بك إلى أذربيجان وأقطعه البلاد وأنه وصل إلى مراغة في عسكر كثيف فساروا عن هرمز إلى خونج وانتقض عليهم وراسلوا الأمير شيركير الذي كان أتابك طغرل أيام أبيه يستنجد به وكان كبغري الأتابك قبض عليه بعد السلطان محمد ثم أطلقه السلطان سنجر وعاد إلى أبهر وزنجان وكانت أقطاعه فأجاب داعيهم وسار أمامهم إلى أبهر ولم يتم أمرهم فراسلوا السلطان في الطاعة وعاد طغرل إلى أخيه وانتظم أمرهم.

مقتل وزير السلطان محمود

وكان وزير السلطان محمود شمس الملك بن نظام الملك وكان حظيّاً عنده فكثرت سعاية أصحابه فيه وكان ابن عمّه الشهاب أبو المحاسن وزير السلطان سنجر فتوفي واستوزر سنجر بعده أبا طاهر القمّي عدوّاً لبني نظام الملك فأغرى السلطان سنجر حتى أمر محمود بنكبته فقبض عليه ودفعه إلى طغرل فحبسه بقلعة جلجلال ثم قتله بعد ذلك وكان أخوه نظام الدين أحمد قد استوزره المسترشد وعزل به جلال الدين أبا علي بن صدقة فلما بلغه نكبة شمس الملك ومقتله عزل أخاه نظام الدين وأعاد ابن صدقة إلى وزارته والله سبحانه وتعالى أعلم.

ظفر السلطان بالكرج

ثم وفد سنة سبع عشرة على السلطان محمود جماعة من أهل دنباوند وشروان يستصرخونه على الكرج ويشكون ما يلقون منهم فسار لصريخهم ولما تقارب الفئتان همّ السلطان بالرجوع وأشار به وزيره شمس وتطارح عليه أهل شروان فأقام وباتوا على وجل ثم وقع الاختلاف بين الكرج وقفجاق واقتتلوا ليلتهم ورحلوا منهزمين وعاد السلطان إلى همذان والله تعالى أعلم.

عزل البرسقي عن شحنة العراق وولاية برتقش الزكوي

كان الخليفة المسترشد قد وقعت بينه وبين دبيس بن صدقة حروب شديدة بنواحي المباركة من أطراف عانة وكان البرسقي معه وانهزم دبيس فيها هزيمة شنيعة كما مرّ في أخباره وقصد غزنة صريخاً فلم يصرخوه فقصد المتنفق وسار بهم إلى البصرة فدخلوها واستباحوها وقتلوا سلمان نائبها فأرسل الخليفة إلى البرسقي بالنكير على إهمال أمر دبيس حتى فتك في البصرة فسار البرسقي إليه وهرب دبيس فلحق بالإفرنج وجاء معهم لحصار حلب فامتنعت فلحق بطغرل بن السلطان محمد يستحثه لقصد العراق كما مرّ ذلك في أخبار دبيس وبقيت في نفس المسترشد عليه ولحق بها أمثالها فتنكر له وبعث إلى السلطان محمود في عزله فعزله وأمره بالعود إلى الموصل لجهاد الإفرنج ووصل نائب برتقش إلى بغداد وأقام بها الشحنة وبعث السلطان ابناً له صغيراً ليكون معه على الموصل وسار البرسقي به ووصل الموصل وقام بولايتها.

بداية أمر بني أقسنقر وولاية عماد الدين زنكي على البصرة

كان عماد الدين زنكي في جملة البرسقي ولما أقطعه السلطان واسط بعث عليها زنكي فأقام فيها أياماً ثم كان مسير البرسقي إلى البصرة في أتباع دبيس فلما هرب دبيس عنها بعث البرسقي إليها عماد الدين زنكي فأقام بحمايتها ودفع العرب عنها ثم استدعاه البرسقي عندما سار إلى الموصل فضجر من تلون الأحوال عليه واختار اللحاق بأصفهان فقدم عليه بأصفهان فأكرمه السلطان وأقطعه البصرة وعاد إليها سنة ثمان عشرة والله تعالى أعلم.

استيلاء البرسقي على حلب

لما سار دبيس إلى الإفرنج حرّضه على حلب وأن ينوب فيها عنهم ووجدهم قد ملكوا مدينة صور وطمعوا في بلاد المسلمين وساروا مع دبيس إلى حلب فحاصروها حتى جهد أهلها الحصار وبها يومئذ تاس بن ابن أرتق فاستنجد بالبرسقي صاحب الموصل وشرط عليهم أن يمكنوه من القلعة ويسلموها إلى نوابه وسار إلى إنجادهم فأجفل عنهم الإفرنج ودخل إلى حلب فأصلح أمورها ثم سار إلى كفرطاب فملكها من الإفرنج ثم سار إلى قلعة إعزاز من أعمال حلب وصاحبها جوسكين فحاصرها وسارت إليه عساكر الإفرنج فانهزم وعاد إلى حلب فخلف فيها ابنه مسعوداً وعبر الفرات إلى الموصل.

مسير طغرل ودبيس إلى العراق

ولما ارتحل الإفرنج عن حلب فارقهم دبيس ولحق بالملك طغرل فتلقاه بالكرامة والمبرة وأغراه بالعراق وضمن له ملكه فساروا لذلك سنة تسع عشرة وانتهوا إلى دقوقا فكتب مجاهد الدين بهروز من تكريت إلى المسترشد يخبرهم فتجهز للقائهم وأمر برتقش الزكوي أن يتجهز معه خامس صفر وانتهى إلى الخالص وعدل طغرل ودبيس إلى طريق خراسان ثم نزلوا رباط جلولاء ونزل الخليفة بالدسكرة وفي مقدّمته الوزير جلال الدين بن صدقة وسار دبيس إلى جسر النهروان لحفظ المقابر وقد كان رأيه مع طغرل أن يسير طغرل إلى بغداد فيملكها وتقدّم دبيس في انتظاره فقعد به المرض عن لحاقه وغشيتهم أمطار أثقلتهم عن الحركات وجاء دبيس إلى النهروان طريحاً من التعب والبرد والجوع.

واعترضوا ثلاثين حملاً للخليفة جاءت من بغداد بالملبوس والمأكول فطعموا وأكلوا وناموا في دفء الشمس وإذا بالمسترشد قد طلع عليهم في عساكره بلغه الخبر بأنّ دبيساً وطغرل خالفوه إلى بغداد فاضطرب عسكره وأجفلوا راجعين إلى بغداد فلقوا في طريقهم دبيساً كما ذكرنا على ديالي غرب النهروان وقف الخليفة عليه فقبّل دبيس الأرض واستعطف حتى همّ الخليفة بالعفو عنه ثم وصل الوزير ابن صدقة فثناه عن رأيه ووقف دبيس مع برتقش الزكوي يحادثه ثم شغل الوزير بمدّ الجسر للعبور فتسلل دبيس ولحق بطغرل وعاد المسترشد إلى بغداد ولحق طغرل ودبيس بهمذان فعاثوا في أعمالها وصادروا أهلها وخرج إليهم السلطان محمود فانهزموا بين يديه ولحقوا بالسلطان سنجر بخراسان شاكين

من المسترشد وبرتقش الشحنة والله أعلم بغيبه وأحكم.

مقتل البرسقي وولاية ابنه عز الدين على الموصل

ثم إن المسترشد تنكر للشحنة برتقش وتهدده فلحق بالسلطان محمود في رجب سنة عشرين فأغراه بالمسترشد وخوّفه غائلته وأنه تعوّد الحروب وركب العيث ويوشك أن يمتنع عنك ويستصعب عليك فاعتزم السلطان على قصد العراق وبعث إليه الخليفة يلاطفه في الرد لغلاء البلاد وخرابها ويؤخره إلى حين صلاحها فصدق عنده حديث الزكوي وسار مجدّا فعبر المسترشد بأهله وولده وأولاد الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة راحلاً عن بغداد والناس باكون لفراقه وبلغ ذلك إلى السلطان فشق عليه وأرسل يستعطفه في العودة إلى داره فشرط عليه الرجوع عن العراق في القوت كما شرط أوّلا فغضب السلطان وسار نحو بغداد والخليفة بالجانب الغربي ثم أرسل خادمه عفيفاً إلى واسط يمنع عنها نواب السلطان فسار إليه عماد الدين زنكي من البصرة وهزمه وفتك في عسكره قتلاً وأسراً وجمع المسترشد السفن إليه وسد أبواب قصره ووكل حاجب الباب ابن الصاحب بدار الخلافة.

ووصل السلطان إلى بغداد في العاشر من ذي الحجة ونزل باب الشماسية

وأرسل المسترشد في العود والصلح وهو يمتنع وجرت بين العسكرين مناوشة ودخل جماعة من عسكر السلطان إلى دار الخليفة ونهبوا التاج أوّل المحرّم سنة إحدى وعشرين وخمسمائة فضج العامة لذلك ونادوا بالجهاد وخرج المسترشد من سرادقة ينادي بأعلى صوته وضربت الطبول ونفخت البوقات ونصب الجسر وعبر الناس دفعة وعسكر السلطان مشتغلون بالنهب في دور الخلافة والأمراء وكان في دار الخلافة ألف رجل كامنون في السرداب فخرجوا عند ذلك ونالوا من عسكر السلطان وأسروا جماعة من أمرائه ونهب العامة دور وزير السلطان وأمرائه وحاشيته وقتل منهم خلق.

وعبر المسترشد إلى الجانب الشرقي في ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد ودفع السلطان وعسكره عن بغداد وحفر عليها الخنادق واعتزموا على كبس السلطان فأخافهم أبو الهيجاء الكردي صاحب اربل ركب للقتال فلحق بالسلطان ووصل عماد الدين زنكي من البصرة في جيش عظيم في البرّ والبحر أذهل الناس برؤيته فخام المسترشد عن اللقاء وتردّد الرسل بينهما فأجاب إلى الصلح وعفا السلطان عن أهل بغداد وأقام بها إلى عاشر ربيع الآخر وأهدى إليه المسترشد سلاحاً وخيلاً وأموالاً ورحل إلى همذان.

وولّى زنكي بن أقسنقر شحنة بغداد ثقة بكفايته واستقامت أحواله مع الخليفة وأشار به أصحابه ورأوا أنه يرفع الخرق ويصلح الأمر فولاه على ذلك مضافاً إلى ما بيده من البصرة وواسط وسار إلى همذان وقبض في طريقه على وزيره أبي القاسم علي بن الناصر الشادي اتهمه بمالأة المسترشد لكثرة سعيه في الصلح فقبض عليه واستدعى شرف الدولة أنو شروان بن خالد من بغداد فلحقه بأصفهان في شعبان واستوزره عشرة أشهر ثم عزله ورجع إلى بغداد وبقي أبو القاسم محبوساً إلى أن جاء السلطان سنجر إلى الريّ فأطلقه وأعاده إلى وزارة السلطان محمود آخر اثنتين وعشرين.

وفاة عز الدين بن البرسقي وولاية عماد الدين زنكي على الموصل وأعمالها ثم استيلاؤه على حلب

ولما استولى عز الدين على الموصل وأعمالها واستفحل أمره طمحت همته إلى الشام فاستأذن السلطان في المسير إليه وسار إلى دمشق ومرّ بالرحبة فحاصرها وملكها ثم مات إثر ذلك وهو عليها وافترقت عساكره وشغلوا عن دفنه ثم دفن بعد ذلك ورجعت العساكر إلى الموصل وقام بالأمر مملوكه جاولي ونصب أخاه الأصغر وأرسل إلى السلطان يطلب تقرير الولاية له وكان الرسول في ذلك القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي الشهرزوري وصلاح الدين محمد الباغسياني أمير حاجب البرسقي واجتمعا بنصير الدين جعفر مولى عماد الدين زنكي وكان بينه وبين صلاح الدين سر فخوفهما جعفر بن جاولي وحملهما على طلب عماد الدين زنكي وضمن لهما عنه الولايات والاقطاع فأجابوه وجاء بهما إلى الوزير شرف الدين أنو شروان بن خالد فقالا له: إنّ الجزيرة والشام قد تمكن منهما الإفرنج من حدود ماردين إلى عريش مصر، وكان البرسقي يكفهم وقد قتل وولده صغير ولابد للبلد ممن يضطلع بأمرها ويدفع عنها وقد خرجنا عن النصيحة إليكم. فبلغ الوزير مقالتهما إلى السلطان فأحضرهما واستشارهما فذكرا جماعة منهم عماد الدين زنكي وبذلا عنه مقرباً إلى خزانة السلطان مالاً جزيلا فولاه السلطان لما يعلم من كفايته وولّى

مكانه شحنة العراق مجاهد الدين بهروز صاحب تكريت.

وسار عماد الدين زنكي فبدأ بالبواريح وملكها ثم سار إلى الموصل وتلقاه جاولي مطيعاً وعاد إلى الموصل في خدمته فدخلها في رمضان وأقطع جاولي الرحبة وبعثه إليها وولّى نصير الدين جعفراً قلعة الموصل وسائر القلاع وجعل صلاح الدين محمد الباغسياني أمير صاحب وولى بهاء الدين الشهرزوري قضاء بلاده جميعا وزاده أملاكاً وإقطاعاً وشركه في رأيه.

ثم سار إلى جزيرة ابن عمر وقد امتنع بها مماليك البرسقي فجدّ في قتالهم وكانت دجلة تحول بينه وبين البلد فعبر بعسكره الماء سبحاً واستولى على المسافة التي بين دجلة والبلد وهزم من كان فيها من الحامية حتى أحجزهم بالبلد وضيّق حصارهم فاستأمنوا وأمنهم ثم سار إلى نصيبين وهي لحسام الدين تمرتاش ابن أبي الغازي صاحب ماردين فحاصرها واستنجد حسام الدين ابن عمه ركن الدولة داود بن سكمان بن أرتق صاحب كيفا فأنجده بنفسه وأخذ في جمع العساكر وبعث تمرتاش ماردين إلى نصيبين يعرّف العساكر بالخبر وأنّ العساكر واصلة إليهم عن خمسة أيام وكتبه في رقعة وعلقها في جناح طائر فاعترضه عسكر زنجي وصادره وقرأ زنكي الرقعة وعوّض الخمسة أيام بعشرين يوماً وأطلق الطائر بها إلى البلد فقرؤوا الكتاب وأسقط في أيديهم واستطالوا العشرين واستأمنوا لعماد الدين زنكي فأمنهم وملك نصيبين وسار عنها إلى سنجر فملكها صلحاً وبعث العساكر إلى الخابور فملكها.

ثم سار إلى حرّان وخرج إليه أهل البلد بطاعتهم وكانت الرُّها وسروج والميرة ونواحيها للإفرنج وعليها جرسكين صاحب الرُّها فكاتب زنكي وهادنه ليتفرّغ للجهاد بعد ثم عبر الفرات إلى حلب في المحرّم سنة اثنتين وعشرين وقد كان عز الدين مسعود بن أقسنقر البرسقي لما سار عنها إلى الموصل بعد قتل أبيه استخلف عليها قرمان من أمرائه ثم عزله بآخر اسمه قطلغ أبه وكتب له إلى قرمان فمنعه إلا أن يرى العلامة التي بينه وبين عز الدين بن البرسقي فعاد قطلغ إلى مسعود ليجيء بالعلامة فوجده قد مات بالرحبة فعاد إلى حلب وأطاعه رئيسها فضائل بن بديع والمقدّمون بها واستنزلوا قرمان من القلعة على ألف دينار وأعطوه إيّاها وملك قطلغ القلعة منتصف إحدى وعشرين ثم ساءت سيرته وظهر ظلمه وجوره.

وكان بالمدينة بدر الدولة سليمان بن عبد الجبّار بن أرتق وكان ملكها قبل وخُلع عنها فدعاه الناس إلى البيعة وثاروا بقطلغ فامتنع بالقلعة فحاصروه وجاء مهيار صاحب منبج وحسن صاحب مراغة لإصلاح أمرهم فلم يتفق وطمع الإفرنج في ملكها وتقدّم جوسكين بعسكره إليها فدافعوه بالمال ثم وصل صاحب أنطاكية فحاصرهم إلى آخر السنة وهم محاصرون القلعة فلما ملك عماد الدين زنكي الموصل والجزيرة والشام فأطاعوا وسار عبد الجبار وقطلغ إلى عماد الدين بالموصل وأقام أحد الأميرين بحلب حتى بعث عماد الدين زنكي صاحبه صلاح الدين محمد الباغسياني في عسكر فملك القلعة ورتّب الأمور وولىّ عليها وجاء عماد الدين بعساكره في أثره وملك في طريقه منبج ومراغة ثم دخل حلب وأقطع أعمالها الأجناد والأمراء وقبض على قطلغ ابه وسلّمه لابن بديع فكحله فمات واستوحش ابن بديع فهرب إلى قلعة جعفر وأقام عماد الدين مكانه في رئاسة حلب أبا الحسن علي بن عبد الرزاق.

قدوم السلطان سنجر إلى الريّ ثم قدوم السلطان محمود إلى بغداد

الموصل طغرل ودبيس إلى السلطان سنجر بخراسان حرّضه دبيس على العراق والسلطان محمود قد اتفقا على الامتناع منه فسار سنجر وأخبر السلطان محمود باستدعائه فوافاه لأقرب وقت وأمر العساكر بتلقيه وأجلسه معه على التخت وأقام السلطان محمود عنده إلى آخر اثنتين وعشرين ثم رجع سنجر إلى خراسان بعد أن أوصى محمود بدبيس وأعاده إلى بلده ورجع محمود إلى همذان ثم سار إلى العراق وخرج الوزير للقائه ودخل بغداد في تاسوعاء سنة ثلاث وعشرين ثم لحقه دبيس بمائة ألف دينار في ولاية الموصل وسمع بذلك زنكي وجاء إلى السلطان وحمل المائة ألف مع هدايا جليلة فخلع عليه وأعاده وسار منتصف السنة عن بغداد إلى همذان بعد أن ولىّ الحلّة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد.

وفاة السلطان محمود وملك ابنه داود

ثم توفي السلطان محمود بهمذان في شوّال سنة خمس وعشرين لثلاث عشرة سنة من ملكه بعد أن كان قبض على جماعة من أمرائه وأعيان دولته منهم عزيز الدولة أبو نصر أحمد بن حامد المستوفي وأبو شتكين المعروف بشيركين بن حاجب وابنه عمر خافهم الوزير أبو القاسم الشابادي فأغرى بهم السلطان فنكبهم وقتلهم ولما توفي اجتمع الوزير أبو القاسم والأتابك أقسنقر الأحمديلي وبايعوا لابنه داود وخطبوا له في جميع بلاد الجبل

وأذربيجان ووقعت الفتنة بهمذان وسائر بلاد الجبل ثم سكنت وهرب الوزير إلى الري مستجيراً بالسلطان فأمّر بها.

منازعة السلطان مسعود لداود ابن أخيه واستيلاؤه على السلطان بهمذان

لما هلك السلطان محمود سار أخوه مسعود من جرجان إلى تبريز فملكها فسار داود من همذان في ذي القعدة سنة خمس وعشرين وحاصره بتبريز في محرّم سنة ست وعشرين ثم اصطلحوا وتأخّر داود عن الأمر لعمّه مسعود فسار مسعود من تبريز إلى همذان وكاتب عماد الدين زنكي صاحب الموصل يستنجده فوعده بالنصر وأرسل إلى المسترشد في طلب الخطبة ببغداد وكان داود قد أرسل في ذلك قبله وردّ المسترشد الأمر في الخطبة إلى السلطان سنجر ودسّ إليه أن لا يأذن لواحد منهما وأن تكون الخطبة له فقط وحَسُن موقع ذلك عنده وسار السلطان مسعود إلى بغداد وسبقه إليها أخوه سلجوق شاه مع أتابك قراجا الساقي صاحب فارس وخوزستان ونزل في دار السلطان واستخلفه الخليفة لنفسه.

ولما سار السلطان مسعود أوعز إلى عماد الدين زنكي أن يسير إلى بغداد فسار من الموصل إليها وانتهى السلطان مسعود إلى عبّاسة الخالص وبرزت إليه عساكر المسترشد وسلجوق شاه وسار قراجا الساقي إلى مدافعة زنكي فدافعه على المعشوق فهزمه وأسر كثيرا من أصحابه ومرّ منهزماً إلى تكريت وبها يومئذ نجم الدين أيّوب أبو الأملاك الأيّوبيّة فهيّأ له المعابر وعبر دجلة إلى بلاده وسار السلطان مسعود من العبّاسة وقاتلت طلائعه طلائع أخيه سلجوق وبعث سلجوق يستحث قراجا بعد انهزام زنكي فعاد سريعاً وتأخّر السلطان مسعود بعد هزيمة زنكي وأرسل إلى المسترشد بأنّ عمه سنجر وصل إلى الريّ عازماً على بغداد ويشير بمدافعته عن العراق وتكون العراق لوكيل الخليفة ثم تراسل القوم واتفقوا على ذلك وتحالفوا عليه وأن يكون مسعود السلطان وليّ العهد ودخلوا إلى بغداد فنزل مسعود ديار السلطان وسلجوق دار الشحنة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

هزيمة السلطان مسعود وملك طغرل أخيه

لما توفي السلطان محمود سار السلطان سنجار من خراسان إلى بلاد الجبال ومع طغرل ابن أخيه محمد وانتهى إلى الريّ ثم سار إلى همذان فسار مسعود لقتاله ومعه قراجا الساقي وسلجوق شاه وقد كان الخليفة عزم أن لا يتجهّز معهم فأبطأ فبعثوا إليه قراجا فسار إلى خانقين وأقام وقطعت خطبة سنجار من العراق وخالفهم إلى بغداد دبيس وزنكي وقد سمّى إقطاعه لسنجار الحلّة وزنكي ولاه شحنة بغداد فرجع المسترشد إلى بغداد لموافقتهما وسار السلطان وأخوه سلجوق شاه للقاء سنجار ثم سمعا بكثرة عساكره فتأخرا فسار في طلبهم يوماً وليلة ثم تراجعوا عند الدينور وكان مسعود يماطل باللقاء انتظاراً للمسترشد فلم يجد بدّاً من اللقاء فالتقوا على النقيبة وحمل قراجا عليهم وتورّط في المعركة وأصيب بجراحات ثم التفُّوا عليه وأسروه وانهزم من أصحاب مسعود قزل وقد كان واطأهم على الهزيمة فانهزم السلطان مسعود عند ذلك منتصف ستة وعشرين وقتل كثير من أكابر الأمراء ونزل سنجار في خيامهم وأحضر قراجا فقتله وجيء إليه بالسلطان مسعود فأكرمه وأعاده إلى كنجة وخطب للملك طغرل ابن أخيه في السلطنة وخطب له في جميع البلاد واستوزر له أبا القاسم الساباذي وزير السلطان محمود وعاد إلى نيسابور آخر رمضان سنة ست وعشرين وخمسمائة.

هزيمة السلطان داود واستيلاء طغرل بن محمد على الملك

لما ولي طغرل همذان وولّى عنه السلطان سنجار إلى خراسان وبلغه أن صاحب ما وراء النهر المرْخان قد انتقض عليه فسار لإصلاحه وشغل بذلك فقام الملك داود بأذربيجان وبلاد كنجة وطلب الأمر لنفسه وجمع العساكر وسار إلى همذان ومعه برتقش الزّكوي وأتابك أقسنقر الأحمديلي ومعه طغرل بن برسق ونزل وقد استقرّ ثم اضطرب عسكر داود وأحسوا من برتقش الزكوي بالفشل فنهب التركمان خيامه وهرب أقسنقر أتابك وانهزم في رمضان سنة ست وعشرين ثم قدم بغداد في ذي القعدة ومعه أتابك أقسنقر فأكرمه الخليفة وأنزله بدار السلطان.

عود السلطان مسعود إلى الملك وهزيمة طغرل

قد تقدّم لنا هزيمة السلطان مسعود من عمه سنجار وعوده إلى كنجة وولاية طغرل السلطان ثم محاربة داود ابن أخيه له

وانهزام داود ثم رجوع داود إلى بغداد فلما بلغ الخبر إلى مسعود جاء إلى بغداد ولقيه داود قريباً منها وترجّل له عن فرسه ودخلا بغداد في صفر سنة سبع وعشرين ونزل مسعود بدار السلطان وخطب له ولداود بعده وطلبا من السلطان عسكراً ليسير معهما إلى أذربيجان فبعث معهما العساكر إلى أذربيجان ولقيهم أقسنقر الأحمديلي في مراغة بالإقامة والأموال وملك مسعود بلاد أذربيجان وهرب بين يديه من كان بها من الأمراء وامتنعوا بمدينة أذربيجان فحاصرهم بها وملكها عليهم وقتل منهم جماعة وهرب الباقون.

ثم سار إلى همذان لمحاربة أخيه طغرل فهزمه وملك همذان في شعبان من السنة ولحق طغرل بالريّ وعاد إلى أصفهان ثم قتل أقسنقر الأحمديلي بهمذان غيلة ويقال: إنّ السلطان مسعوداً دسّ عليه من قتله ثم سار إلى حصار طغرل بأصفهان ففارقها طغرل إلى فارس وملكها مسعود وسار في أثر طغرل إلى البيضاء فاستأمن إليه بعض أمراء طغرل فأمنه وخشي طغرل أن يستأمنوا إليه فقصد الريّ وقتل في طريقه وزيره أبا القاسم الساباذي في شوّال من السنة ومثل به غلمان الأمير شيركين الذي سعى في قتله كما مرّ ثم سار الأمير مسعود يتبعه إلى أن تراجعا ودارت بينهما حرب شديدة وانهزم طغرل وأسر من أمرائه الحاجب تنكي وأتى بقرا وأطلقهما السلطان مسعود وعاد إلى همذان والله تعالى أعلم.

عود الملك طغرل إلى الجبل وهزيمة السلطان مسعود

ولما عاد مسعود من حرب أخيه طغرل بلغه انتقاض داود ابن أخيه محمود بأذربيجان فسار إليه وحاصره بقلعة فحصر جمع طغرل العساكر وتغلب على بلاده وسار إليه واستعمل بعض قوّاده فسار مسعود للقائه ولقيه عند قزوين وفارق مسعود الأمراء الذين استمالهم طغرل ولحقوا به فانهزم مسعود في رمضان سنة ثمان وعشرين وبعث إلى المسترشد يستأذنه في دخول بغداد فأذن له وكان أخوه سلجوق بأصفهان مع نائبه فيها البقش السلاحي فلما سمع بانهزامه سبقه إلى بغداد وأنزله المسترشد بدار السلطان وأحسن إليه بالأموال ووصل مسعود وأكثر أصحابه رجلاً فوسع عليه الخليفة بالإنفاق والمراكب والظهر واللباس والآلة ودخل دار السلطان منتصف شوّال وأقام طغرل بهمذان.

وفاة طغرل واستيلاء مسعود على الملك

ولما وصل مسعود إلى بغداد حمل إليه المسترشد ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان لمدافعة طغرل ووعده بالمسير معه بنفسه فتبطأ مسعود عن المسير واتصل جماعة من أمرائه بخدمة الخليفة ثم أطلع على مداخلة بعضهم لطغرل فقبض عليه ونهب ماله وارتاب الآخرون فهربوا عن السلطان مسعود وبعث المسترشد في إعادتهم إليه فدافعه ووقعت لذلك بينهما وحشة فقعد المسترشد عن نصره بنفسه وبينما هم في ذلك وصل الخبر بوفاة أخيه طغرل في المحرّم سنة تسع وعشرين فسار مسعود إلى همذان واستوزر شرف الدين أنو شروان بن خالد حمله من بغداد وأقبلت إليه العساكر فاستولى على همذان وبلاد الجبل.

فتنة المسترشد مع السلطان مسعود ومقتله وخلافة ابنه الراشد

قد تقدّم لنا أنّ الوحشة وقعت عندما كان ببغداد بسبب أمرائه الذين اتصلوا بخدمة المسترشد ثم هربوا عنه إلى السلطان مسعود فلما سار السلطان مسعود إلى همذان بعد موت أخيه طغرل وملكها استوحش منه جماعة من أعيان أمرائه منهم برتقش وقزل وقرا سنقر الخمارتكين والي همذان وعبد الرحمن بن طغرلبك ودبيس بن صدقة وساروا إلى خوزستان ووافقهم صاحبها برسق بن برسق واستأمنوا إلى الخليفة فارتاب من دبيس وبعث إلى الآخرين بالأمان مع سديد الدولة بن الأنباري وارتاب دبيس منهم أن يقبضوا عليه فرجع إلى السلطان مسعود وسار الآخرون إلى بغداد فاستحثوا المسترشد للمسير إلى قتال مسعود فأجابهم وبالغ في تكرمتهم.

وبرز آخر رجب من سنة تسع وعشرين وهرب صاحب البصرة إليها وبعث إليه بالأمان فأبى فتكاسل عن المسير فاستحثّوه وسهلوا له الأمر فسار في شعبان ولحق به برسق بن برسق وبلغ عدّة عسكره سبعة آلاف وتخلف بالعراق مع خادمه إقبال ثلاثة آلاف وكاتبه أصحاب الأطراف بالطاعة وأبطأ في مسيره فاستعجلهم مسعود وزحفوا إليه فكان عسكره خمسة عشر ألفاً.

وتسلل عن المسترشد جماعة من عسكره، وأرسل إليه داود ابن محمود من أذربيجان يشير بقصد الدينور والمقام بها حتى يصل في عسكره فأبى واستمرّ في مسيره.

وبعث زنكي من الموصل عسكراً فلم يصل حتى تواقعوا

وسار السلطان محمود إليهم مجدّاً فوافاهم عاشر رمضان ومالت مسيرة المسترشد إليه وانهزمت ميمنته وهو ثابت لم يتحرّك حتى أخذ أسيراً ومعه الوزير والقاضي وصاحب المحرّر وابن الأنباري والخطباء والفقهاء والشهود فأنزل في خيمة ونهب مخيمه وحمل الجماعة أصحابه إلى قلعة ترجمعان ورجع بقية الناس إلى بغداد ورجع السلطان إلى همذان وبعث الأمير بك أبه إلى بغداد شحنة فوصلها سلخ رمضان ومعه عميد وقبضوا أملاك المسترشد وغلاتها وكانت بينهم وبين العامّة فتنة قتل فيها خلق من العامّة وسار السلطان في شوال إلى مراغة وقد تردّدت الرسل بينهما في الصلح على مال يؤدّيه المسترشد وأن لا يجمع العساكر ولا يخرج من داره لحرب ما عاش وأجابه السلطان وأذن له في الركوب وحمل الغاشية وفارق المسترشد بعض الموكلين به فهجم عليه جماعة من الباطنيّة فألحموه جراحا وقتلوه ومثلوا به جدعاً وصلباً وتركوه سليباً في نفر من أصحابه قتلوهم معه وتبع الباطنيّة فقتلوا وكان ذلك منتصف ذي القعدة سنة ستة وعشرين لثمان عشرة سنة من خلافته وكان كاتباً بليغاً شجاعاً قرماً ولما قتل بمراغة كتب السلطان مسعود إلى بك أبه شحنة بغداد بأن يبايع لابنه فبويع ابنه الراشد أبو جعفر منصور بعهده إليه لثمانية أيام من مقتله وحضر بيعته جماعة من أولاد الخلفاء وأبو النجيب الواعظ وأمّا إقبال خادم المسترشد فلما بلغه خبر الواقعة وكان مقيما ببغداد كما قدّمناه عبر إلى الجانب الغربيّ ولحق بتكريت ونزل على مجاهد الدين بهروز.

فتنة الراشد مع السلطان مسعود

لمّا بويع الراشد بعث إليه السلطان مسعود برتقش الزكوي يطالبه بما استقرّ عليه الصلح مع أبيه المسترشد وهو أربعمائة ألف دينار فأنكر الراشد أن يكون له مال وإنما مال الخلافة كان مع المسترشد فنهب ثم جمع الراشد العساكر وقدّم عليهم كجراية وشرع في عمارة السور واتفق برتقش مع بك أبه على هجوم دار الخلافة وركبوا لذلك في العساكر فقاتلهم عساكر الراشد والعامّة وأخرجوهم عن البلد إلى طريق خراسان وسار بك أبه إلى واسط وبرتقش إلى سرخس ولما علم داود بن محمود فتنة عمه مسعود مع الراشد سار من أذربيجان إلى بغداد في صفر سنة ثلاثين ونزل بدار السلطان ووصل بعده عماد الدين زنكي من الموصل وصدقة بن دبيس من الحلّة ومعه عش بن أبي العسكر يدبر أمره ويديره وكان أبوه دبيس قد قتل بعد مقتل المسترشد بأذربيجان وملك هو الحلّة.

ثم وصل جماعة من أمراء مسعود منهم برتقش بازدار صاحب فروق والبقش الكبير صاحب أصفهان وابن برسق وابن الأحمديلي وخرج للقائهم كجراية والطرنطاي وكان إقبال خادم المسترشد قد قدم من تكريت فقبض عليه الراشد وعلى ناصر الدولة أبي عبد اللّه الحسن بن جهير فاستوحش أهل الدولة وركب الوزير جلال الدين بن صدقة إلى لقاء عماد الدين زنكي فأقام عنده مستجيراً حتى أصلح حاله مع الراشد واستجار به قاضي القضاة الزينبي ولم يزل معه إلى الموصل وشفع في إقبال فأطلق وسار إليه ثم جدّ الراشد في عمارة السور وسار الملك داود لقتال مسعود استخلفه الراشد واستخلفه عماد الدين زنكي وقطعت خطبة مسعود من بغداد وولّى داود شحنة بغداد برتقش بازدار.

ثم وصل الخبر بأنّ سلجوق شاه أخا الأمير مسعود ملك واسط وقبض على الأمير بك أبه فسار الأمير زنكي لدفاعه فصالحه ورجع وعبر إلى طريق خراسان للحاق داود واحتشد العساكر ثم سار السلطان مسعود لقتالهم وفارق زنكي داود ليسير إلى مراغة ويخالف السلطان مسعود إلى همذان وبرز الراشد من بغداد أوّل رمضان وسار إلى طريق خراسان وعاد بعد ثلاث وعزم على الحصار ببغداد واستدعى داود الأمراء ليكونوا معه عنده فجاؤوا لذلك ووصلت رسل السلطان مسعود بطاعة الراشد والتعريض بالوعيد للأمراء المجتمعين عنده فلم يقبل طاعة من أجلهم واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

حصار بغداد ومسير الراشد إلى الموصل وخلعه وخلافة المقتفي

ثم إنّ السلطان مسعوداً أجمع المسير إلى بغداد وانتهى إلى الملكية فسار زين الدين علي من أصحاب زنكي حتى شارف معسكره وقاتلهم ورجع ونزل السلطان على بغداد والعيّارون أفسدوا سائر المحال ببغداد وانطلقت أيديهم وأيدي العساكر في النهب ودام الحصار نيفاً وخمسين يوماً تأخر السلطان مسعود إلى النهروان عازماً على العود إلى أصفهان فوصله طرنطاي صاحب واسط في سفن كثيرة فركب إلى غربيّ بغداد فاضطرب الأمراء وافترقوا وعادوا إلى أذربيجان وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إليه الراشد وسار معه إلى الموصل ودخل السلطان مسعود بغداد منتصف ذي القعدة فسكن الناس وجمع القضاة والفقهاء وأوقفهم على يمين الراشد التي كتبها بخطه: إني متى جمعت أو خرجت أو لقيت أحدا من أصحاب السلطان بالسيف فقد خلعت نفسي من

الأمر. فأفتوا بخلعه واتفق أرباب الدولة ممن كان ببغداد ومن أسر مع المسترشد وبقي من عند السلطان مسعود كلهم على ذمّه وعدم أهليته على ما مرّ في أخباره بين أخبار الخلفاء.

وبويع محمد بن المستظهر ولقب المقتفي وقد قدّمت هذه الأخبار بأوسع من ذلك.

ثم بعث السلطان العساكر مع قراسنقر لطلب داود فأدركته عند مراغة وقاتله فهزمه وملك أذربيجان ومضى داود إلى خوزستان واجتمع عليه عساكر من التركمان وغيرهم فحاصر تستر وكان عمه سلجوق بواسط فسار إليه بعد أن أمره أخوه مسعود بالعساكر ولقي داود على تستر فهزمه داود ثم عزل السلطان وزيره شرف الدين أنوشروان بن خالد واستوزر كمال الدين أبا البركات بن سلامة من أهل خراسان ثم بلغه أنّ الراشد قد فارق الموصل فأذن للعساكر التي عنده ببغداد في العودة إلى بلادهم وصرف فيهم صدقة بن دبيس صاحب الحلّة بعد أن أصهر إليه في ابنته وقدم عليه جماعة من الأمراء الذين كانوا مع داود منهم البقش السلامي وبرسق بن برسق وصاحب تستر وسنقر الخمارتكين شحنة همذان فرضي عنهم وأمّنهم وعاد إلى همذان سنة إحدى وثلاثين.

الفتنة بين السلطان مسعود وبين داود الراشد وهزيمة مسعود ومقتل الراشد

كان الأمير بوزابة صاحب خوزستان والأمير عبد الرحمن طغرلبك صاحب خلخال والملك داود ابن السلطان محمود خائفين من السلطان فاجتمعوا عند الأمير منكبرس صاحب فارس وبلغهم مسير الراشد من الموصل إلى مراغة فراسلوه في أن يجتمعوا عليه ويردّوه إلى خلافته فأجابهم وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود فسار إليهم في شعبان سنة اثنتين وثلاثين وأوقع بهم وأخذ منكبرس أسيراً فقتله وافترقت عساكره للنهب فانفرد بوزابة وطغرلبك وصدقا الحملة عليه فانهزم وقبض على جماعة من الأمراء مثل صدقة بن دبيس صاحب الحلّة وكافله نمبترين أبي العساكر وابن أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وحبسهم بوزابة حتى تحقق قتل منكبرس.

ولحق السلطان مسعود بأذربيجان منهزما وسار داود إلى همذان فملكها ووصل اليه الراشد هنالك وأشار بوزابة وكان كبير القوم بالمسير إلى فارس فساروا معه واستولى عليها وملكها ولما علم سلجوق شاه وهو بواسط أنّ أخاه السلطان مسعود أمضى إلى أذربيجان سار هو إلى بغداد ليملكها ودافعه البقش النحت ونظم الخادم أمير الحاج وثار العيّارون بالبلدان وأفحشوا في النهب فلما رجع الشحنة استأصل شأفتهم وأخذ المستورين بجنايتهم فجلا الناس عن بغداد إلى الموصل وغيرها. ولما قتل صدقة بن دبيس أقرّ السلطان مسعود أخاه محمدا على الحلّة ومعه مهلهل بن أبي العساكر أخو عش المقتول كما مرّ في أخباره.

ثم لما ملك بوزابة فارس رجع مع الراشد والملك داود ومعهما خوارزم شاه إلى خوزستان وخرّبوا الجزيرة فسار إليهم مسعود ليمنعهم عن العراق فعاد الملك داود إلى فارس وخوارزم شاه إلى بلده وسار الراشد إلى أصفهان فثار به نفر من الخراسانية كانوا في خدمته فقتلوه عند القائلة في خامس عشر رمضان من السنة ودفن بظاهر أصفهان ثم قبض السلطان آخر السنة على وزيره أبي البركات بن سلامة الدركزيني واستوزر بعده كمال الدين محمد بن الخازن وكان نبيهاً حسن السيرة فرفع المظالم وأزال المكوس وأقام وظائف السلطان وجمع له الأموال وضرب على أيدي العمّال وكشف خيانتهم فثقل عليهم وأوقعوا بينه وبين الأمراء فبالغوا في السعاية فيه عند السلطان وتولى كبرها قراسنقر صاحب أذربيجان فإنه بعث إلى السلطان يتهدّده بالخروج عن طاعته فأشار على السلطان خواصه بقتله خشية الفتنة فقتله على كره وبعث برأسه إلى قراسنقر فرضي.

وكان قتله سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة لسبعة أشهر من وزارته واستوزر بعده أبا العزّ طاهر بن محمد اليزدجردي وزير قراسنقر ولقب عزّ الملك وضاقت الأمور على السلطان وأقطع البلاد للأمراء ثم قتل السلطان البقش السلاحيُّ الشحنة بما ظهر منه من الظلم والعسف فقبض عليه وحبسه بتكريت عند مجاهد الدين بهروز ثم أمر بقتله فلما قرب للقتل ألقى نفسه في دجلة فمات وبعث برأسه إلى السلطان فقدّم مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد فحسن أثره ثم عزله السلطان سنة ست وثلاثين وولى فيها قرلي أميراً آخراً من موالي السلطان محمود وكانت له يزدجرد والبصرة فأضيف له إليهما والله سبحانه وتعالى أعلم بغيبه.

فتنة السلطان سنجار مع خوارزم شاه

وهو أوّل بداية بني خوارزم قد تقدّم لنا ذكر أوّليّة محمد خوارزم شاه وهو محمد بن أبي شتكين وأنّ خوارزم شاه لقب له وأنّ الأمير داود حبشي لما ولاه بركيارق خراسان وقتله إكنجي ولى محمد بن أبي شتكين وولي بعده ابنه أتسز فظهرت كفاءته

وقرّبه السلطان سنجار واستخلصه واستظهر به في حروبه فزاده ذلك تقدماً ورفعة واستفحل ملكه في خوارزم ونمي للسلطان سنجار أنه يريد الاستبداد فسار إليه سنة ثلاث وثلاثين وبرز أتسز ولقيه في التعبئة فلم يثبت وانهزم وقتل من عسكره خلق وقتل له ابن فحزن عليه حزناً شديداً وملك سنجار خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمد ورتّب له وزيراً وأتابك وحاجباً وعاد إلى مرو منتصف السنة فخالفه أتسز إلى خوارزم وهرب سليمان شاه ومن معه إلى سنجار واستولى أتسز على خوارزم وكان من أمره ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى.

استيلاء قراسنقر صاحب أذربيجان على بلاد فارس

ثم جمع أتابك قراسنقر صاحب أذربيجان وبرز طالباً ثأر أبيه الذي قتله بوزابة في المصاف كما مرّ.

وأرسل السلطان مسعود في قتل وزيره الكمال فقتله كما مرّ فانصرف عنه إلى بلاد فارس وتحصن عنه بوزابة في القلعة البيضاء ووطىء قراسنقر البلاد وملكها ولم يمكنه مقام فسلمها لسجلوق شاه ابن السلطان محمود وهو أخو السلطان مسعود وعاد إلى أذربيجان فنزل بوزابة من القلعة سنة أربع وثلاثين وهزم سلجوق شاه وأسره وحبسه ببعض قلاعه واستولى على البلاد ثم هلك قراسنقر صاحب أذربيجان وأران بمدينة أردبيل وكان من مماليك طغرل وولي مكانه جاولي الطغرلي والله سبحانه وليّ التوفيق.

مسير جهان دانكي إلى فارس

ثم أمر السلطان سنة خمس وثلاثين الأمير إسماعيل جهان دانكي فسار إليها ومنعها مجاهد الدين بهروز من الوصول واستعدّ لذلك بخسف المعابر وتغريقها فقصد الحلّة فمنعها أيضاً فقصد واسط فقاتله طرنطاي وانهزم ودخل واسط ونهبها ونهب النعمانيّة وما إليها واتبعهم طرنطاي إلى البطيحة ثم فارقه عسكره إلى طرنطاي فلحق بتستر وكتب إسماعيل إلى السلطان فعفا عنه.

هزيمة السلطان سنجار أمام الخطا واستيلاؤهم على ما وراء النهر

وتلخيص هذا الخبر من كتاب ابن الأثير: أن أتسز بن محمد ملك خوارزم واستقرّ بها فبعث إلى الخطا وهم أعظم الترك فيما وراء النهر وأغراهم بمملكة السلطان سنجار واستحثّهم لها فساروا في ثلثمائة ألف فارس وسار سنجار في جميع عساكره وعبر إليهم النهر ولقيهم سنة ست وثلاثين واقتتلوا أشدّ قتال ثم انهزم سنجار وعساكره وقتل منهم مائة ألف فيهم أربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار ولحق سنجار بترمذ وسار منها إلى بلخ وقصد أتسز مدينة مرو فدخلها مراغماً للسلطان وفتك فيها وقبض على جماعة من الفقهاء والأعيان وبعث السلطان سنجار إلى السلطان مسعود يأذن له في النصر وفي الريّ ليدعوه إن احتاج إليه فجاء عباس صاحب الريّ بذلك إلى بغداد وسار السلطان مسعود إلى الريّ امتثالا لأمر عمه سنجار.

قال ابن الأثير: وقيل إنّ بلاد تركستان وهي كاشغر وبلاد سامسون وجبّى وطراز وغيرها مما وراء النهر كانت بيد الخانيّة وهم مسلمون من نسل مراسيان ملك الترك المعروف خبره مع ملوك الكينيّة وأسلم جدّهم الأول سبق قراخان لأنه رأى في منامه أن رجلاً نزل من السماء وقال له بالتركيّة ما معناه أسلم تسلم في الدنيا والآخرة. وأسلم في منامه ثم أسلم في يقظته. ولما مات ملك مكانه موسى بن سبق ولم يزل الملك في عقبه إلى أرسلان خان بن سليمان بن داود بن بقرخان بن إبرهيم طغاج خان بن ايلك نصر بن أرسلان بن علي بن موسى بن سبق فخرج عليه قردخان وانتزع الملك منه ثم نصر سنجار وقتل قردخان وخرج بعد ذلك خوارزم ونصره السلطان سنجار منهم وأعاده إلى ملكه وكان في جنده نوع من الأتراك يقال لهم القارغليّة والأتراك الغزّية الذين نهبوا خراسان على ما نذكره بعد وهم صنفان: صنف يقال لهم: حق وأميرهم طوطي بن داديك وصنف يقال لهم: برق وأميرهم برغوث بن عبد الحميد.

وكان لأرسلان نصر خان شريف يصحبه من أهل سمرقند وهو الأشرف بن محمد بن أبي شجاع العلوي فحمل ابن أرسلان نصر خان وطلبوا انتزاع الملك منه فاستصرخ السلطان سنجار فعبر إليه في عساكره سنة أربع وعشرين وخمسمائة وانتهى إلى سمرقند فهرب القارغليّة أمامه وعاد إلى سمرقند فقبض على أرسلان خان وحبسه ببلخ فمات بها وولى على سمرقند مكانه قليج طمغاج أبا المعالي الحسن بن علي بن عبد المؤمن ويعرف بحسن تكر من أعيان بيت الخانية إلا أنّ أرسلان خان أطرحه فولاه سنجار ولم تطل أيامه فولى بعده محمود ابن أرسلان خان وأبوه هو الذي ملك سمرقند من يده وهو ابن أخت سنجار.

وكان في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة قد خرج كوهرخان

من الصين إلى حدود كاشغر في جموع عظيمة وكوهر الأعظم بلسانهم وخان السلطان فمنعاه أعظم ملك ولقيه صاحب كاشغر أحمد بن الحسن الخان فهزمه وقد كان خرج قبله من الصين أتراك الخطا وكانوا في خدمة الخانيّة أصحاب تركستان وكان أرسلان خان محمد بن سليمان ينزلهم على الدروب بينه وبين الصين مسالح ولهم على ذلك جرايات وإقطاعات وسخط عليهم بعض السنين وعاقبهم بما عظم عليهم فطلبوا فسيحا من البلاد يأمنون فيه من أرسلان خان لكثرة ما كان يغزوهم ووصفت لهم بلاد سامسون فساروا إليها.

ولما خرج كونان من الصين ساروا إليه واجتمعوا عليه ثم ساروا جميعاً إلى بلاد ما وراء النهر ولقيهما الخان محمود بن أرسلان خان محمد في حدود بلاده في رمضان سنة إحدى وثلاثين فهزموه وعاد إلى سمرقند وعظم الخطب على أهلها وأهل بخارى واستمدّ محمود السلطان سنجار وذكر ما لقي السلطان من العنت واجتمع عنده ملوك خراسان وملك سجستان من بني خلف وملك غزنة من الغوريين وملك مازندران وعبر النهر للقاء الترك في أكثر من ألف وذلك لآخر خمس وثلاثين وخمسمائة.

وشكا إليه محمود خان من القارغليّة فقصدهم واستجاروا بكوهرخان ملك الصين فكتب إلى سنجار بالشفاعة فيهم فلم يشفعه وكتب إليه يدعوه للإسلام ويتهدّده بكثرة العساكر فأهان الرسول وزحف للقاء سنجار والتقى الجمعان بموضع يسمّى قطران خامس صفر سنة ست وثلاثين وأبلى القارغليّة من الترك وصاحب سجستان من المسلمين ثم انهزم المسلمون فقتل كثير منهم وأسر صاحب سجستان والأمير قماج وزوجة السلطان سنجار فأطلقهم كوخان ومضى السلطان سنجار منهزماً وملك الترك الكفّار والخطا بلاد ما وراء النهر إلى أن مات كوخان ملكهم سنة سبع وثلاثين ووليت بعده ابنته ثم ماتت قريباً وملكت أمّها من بعدها وهي زوجة كوخان وابنه محمد وصار ما وراء النهر بيد الخطا إلى أن غلبهم عليه عماد الدين محمد خوارزم شاه سنة اثنتي عشرة وستمائة.

أخبار خوارزم شاه بخراسان وصلحه مع سنجار

ولما عاد السلطان منهزماً سار خوارزم شاه إلى سرخس في ربيع سنة ست وثلاثين فأطاعته ثم إلى مرو الشاهجان فشفع فيهم الإمام أحمد الباخرزي ونزل بظاهرها وبينما هو قد استدعى أبا الفضل الكرماني وأعيان أهلها للشورى ثار عامّة البلد وقتلوا من كان عندهم من جنده وامتنعوا فطاولها ودخلها عنوة وقتل كثيراً من علمائها ثم رجع في شوّال من السنة إلى نيسابور وخرج إليه علماؤها وزهّادها يسألون معافاتها مما نزل بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أصحاب السلطان وقطع خطبة سنجار وبعث عسكراً إلى أعمال صغد فقاتلوهم أياما ولم يطق سنجار مقاومته لكان الخطا وجوارهم له.

ثم سار السلطان سنجار سنة ثمان وثلاثين لقتال خوارزم وحاصرها أياماً وكاد يملكها واقتحمها بعض أمرائه يوماً فدافعه أتسز بعد حروب شديدة ثم أرسل أتسز إلى سنجار بالطاعة والعود إلى ما كان عليه فقبله وعاد سنة ثمان وثلاثين.

صلح زنكي مع السلطان مسعود

ثم وصل السلطان مسعود سنة ثمان وثلاثين إلى بغداد عادته فتجهّز لقصد الموصل وكان يحمل لزنكي جميع ما وقع من الفتن فبعث إليه زنكي يستعطفه مع أبي عبد اللّه بن الأنباري وحمل معه عشرين ألف دينار وضمن مائة ألف على أن يرجع عنه فرجع وانعقد الصلح بينهما وكان مما رغب السلطان في صلحه أنّ ابنه غازي بن زنكي هرب من عند السلطان خوفا من أبيه فردّه إلى السلطان ولم يجتمع به فوقع ذلك من السلطان أحسن موقع واللّه تعالى أعلم.

انتقاض صاحب فارس وصاحب الريّ

كان بوزابة صاحب فارس وخوزستان كما قدّمنا فاستوحش من السلطان مسعود فانتقض سنة أربعين وخمسمائة وبايع لمحمد بن محمود وهو ابن أخي السلطان مسعود وسار إلى مامشون واجتمع بالأمير عبّاس صاحب الريّ ووافقه على شأنه واتصل به سليمان شاه أخو السلطان مسعود وتغلبوا على كثير من بلاده فسار إليهم من بغداد في رمضان من السنة ومعه الأمير طغابرك حاجبه وكان له التحكم في الدولة والميل إلى القوم واستخلفه وسار فلما تقاربوا للحرب نزع السلطان شاه عنهم إلى أخيه مسعود وسعى عبد الرّحمن في الصلح فانعقد بينهما على ما أحبه القوم وأضيف إلى عبد الرّحمن ولاية أذربيجان وأران إلى خلخال عوضاص من جاولي الطغرلي واستوزر أبا الفتح بن دارست وزير بوزابة وقد كان السلطان سنة تسع وثلاثين قبض

على وزيره اليزدجردي واستوزر مكانه المرزبان بن عبد اللّه بن نصر الأصفهاني وسلم إليه اليزدجردي واستصفى أمواله فلما كان هذه السنة وفعل بوزابة في صلح القوم ما فعل اعتضد بهم على مقامه عند السلطان وتحكم عليه وعزل وزيره واستوزر له أبا الفتح هذا.

مقتل طغابرك وعباس

قد قدمنا أن طغابرك وعبد الرحمن تحكّما على السلطان واستبدّا عليه ثم آل أمره إلى أن منعا بك أرسلان المعروف بابن خاص بك بن بنكري من مباشرة السلطان وكان تربته وخاصاً به ونجيّ خلوته وتجهز طغابرك لبعض الوجوه فحمله في جملته فأسرّ السلطان إلى أرسلان الفتك بطغابرك وداخل رجال العسكر في ذلك فأجاب منهم زنكي جاندار أن يباشر قتله بيده ووافق بك أرسلان جماعة من الأمراء واعترضوا له في موكبه فضربه الجاندار فصرعه عن فرسه وأجهز عليه ابن خاص بك ووقف الأمراء الذين واطؤوه على ذلك دون الجاندار فمنعوه وكان ذلك بظاهر صهوة وبلغ الخبر إلى السلطان مسعود ببغداد ومعه عباس صاحب الريّ في جيش كثيف فامتعض لذلك ونكره فداراه السلطان حتى سكن وداخل بعض الأمراء في قتله فأجابوه وتولى كبر ذلك البقش حروسوس اللحف وأحضر السلطان عباساً وأدخله في داره وهذان الأميران عنده وقد أكمنوا له في بعض المخادع رجالاً وعدلوا به إلى مكانهم فقتلوه ونهبت خيامه وأصاخت البلاد لذلك ثم سكنت وكان عباس من موالي السلطان محمود وكان عادلاً حسن السيرة وله مقامات حسان في جهاد الباطنيّة وقتل في ذي القعدة سنة إحدى وأربعين ثم حبس السلطان أخاه سليمان شاه في قلعة تكريت وسار عن بغداد إلى أصفهان واللّه سبحانه وتعالى وليّ التوفيق.

مقتل بوزابة صاحب فارس

قد تقدم لنا أن طغابرك كان مستظهراً على السلطان بعباس صاحب الري وبوزابة صاحب فارس وخوزستان فلما قتل طغابرك وامتعض له عباس قتل إثره وانتهى الخبر إلى بوزابة فجمع العساكر وسار إلى أصفهان سنة اثنتين وأربعين فحاصرها وبعث عسكراً آخر لحصار همذان وآخراً إلى قلعة الماهكي من بلاد اللحف من قلاع البقش كون خر فسار إليها ودفعهم عنها ثم سار بوزابة عن أصفهان لطلب السلطان مسعود فامتنع وتراجفا بمرج مزاتكن واشتد القتال بينهما وكبا الفرس ببوزابة وسيق إلى السلطان فقتل بين يديه وقيل: أصابه سهم فسقط ميتاً وانهزمت عساكره وكان هذا الحرب من أعظم الحروب بين السلجوقية.

انتقاض الأمراء على السلطان

ولما قتل طغابرك وعباس وبوزابة اختص بالسلطان ابن خاص بك ليله إليه وأطرح بقية الأمراء فاستوحشوا وارتابوا بأنفسهم أن يقع بهم ما وقع بالآخرين ففارقوه وساروا نحو العراق أبو ركن المسعودي صاحب كنجة وأران والبقش كون خر صاحب الجبل والحاجب خريطاي المحمودي شحنة واسط وابن طغابرك والركن وقرقوب ومعهم ابن أخي السلطان وهو محمد بن محمود وانتهوا إلى حران فاضطرب الناس ببغداد وغلت الأسعار وبعث إليهم المقتفي بالرجوع فلم يرجعوا ووصلوا إلى بغداد في ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعين ونزلوا بالجانب الشرقي وهرب أجناد مسعود شحنة بغداد إلى تكريت ووصل إليهم علي بن دبيس صاحب الحلة ونزل بالجانب الغربي وجمع الخليفة العساكر ثم قاتل العامة عساكر الأمراء فاستطردوا لهم ثم كروا عليهم فملؤوا الأرض بالقتلى ثم جاست خيولهم خلال الديار فنهبوا وسبوا ثم جاؤوا مقابل التاج يعتذرون ورددوا الرسل إلى الخليفة سائر يومهم ثم ارتحلوا من الغد إلى النهروان فعاثوا وعاد مسعود من بلاد تكريت إلى بغداد ثم افترق الأمراء وفارقوا العراق ثم عاد البقش كون خر والطرنطاي وابن دبيس سنة أربع وأربعين ومعهم ملك شاه بن محمود وهو ابن أخي السلطان وطلبوا من الخليفة الخطبة لملك شاه فأبى وجمع العساكر وشغل بما كان فيه من أمر عم السلطان سنجار وذلك أن السلطان سنجار بعث إليه يلومه في تقديم ابن خاص بك ويأمره بإبعاده وتهدده فغالطه ولم يفعل فسار إلى الري فبادر إليه مسعود وترضاه فرضي عنه ولما علم البقش كون خر مراسلة المقتفي لمسعود نهب النهروان وقبض على علي بن دبيس وسار السلطان بعد لقاء عمه إلى بغداد فوصلها منتصف شوال سنة أربع وأربعين فهرب الطرنطاي إلى النعمانية ورحل البقش إلى النهروان بعد أن أطلق علي بن دبيس فجاء إلى السلطان واعتذر فرضي عنه.

وفاة السلطان مسعود وولاية ملك شاه ابن أخيه محمود ثم أخيه محمد من بعده

ثم توفى السلطان مسعود بهمذان في رجب منتصف سبع وأربعين لاثنتين وعشرين سنة من طلبه الملك وبه كمل استفحال ملك السلجوقية وركب الخمول دولتهم بعده وكان عهد إلى ملك شاه بن أخيه محمود فلما توفى بايع له الأمير ابن خاص بك وأطاعه العسكر وانتهى خبر موته إلى بغداد فهرب الشحنة بلاك إلى تكريت وأمر المقتفي بالخوطة على داره ودور أصحاب السلطان مسعود ثم بعث السلطان ملك شاه عسكراً إلى الحلة مع ملاذ كرد من أمرائه فملكها وسار إليه بلاك الشحنة فخادعه حتى استمكن منه فقبض عليه وغرقه واستبد بلاك الشحنة بالحلة وجهز المقتفي العساكر مع الوزير عون الدين بن هبيرة إلى الجلّة وبعث عساكر إلى الكوفة وواسط فملكها ووصلت عساكر السلطان ملك شاه فملكوها وسار إليها الخليفة بنفسه فارتجعها منهم وسار منها إلى الجلّة ثم إلى بغداد آخر ذي القعدة من السنة.

ثم إن ابن خاص بك طمع في الانفراد بالأمر فاستدعى محمد بن محمود من خوزستان فأطمعه في الملك ليقبض عليه وعلى أخيه ملك شاه فقبض على ملك شاه أولاً لستة أشهر من ولايته ووصل محمد في صفر من سنة ثمان وأربعين فأجلسه على التخت وخطب له بالسلطنة وحمل إليه الهدايا وقد سعى للسلطان محمد بما انطوى عليه ابن خاص بك فلما باكره صبيحة وصوله فتك به وقتله وقتل معه زنكي الجاندار قاتل طغابرك وأخذ من أموال ابن خاص بك كثيراً وكان صبيّاً كما بينا اتصل بالسلطان مسعود وتنصح له فقدمه على سائر العساكر والأمراء وكان أنوغري التركي المعروف بشملة في جملة ابن خاص بك ومن أصحابه ونهاه عن الدخول إلى السلطان محمد فلما قتل ابن خاص بك نجا شملة إلى خوزستان وكان له بها بعد ذلك ملك وا لله أعلم بغيبه وأحكم.

تغلب الغز على خراسان وهزيمة السلطان سنجار وأسره

كان هؤلاء الغز فيما وراء النهر وهم شعب من شعوب الترك ومنهم كان السلجوقية أصحاب هذه الدولة وبقوا هنالك بعد عبورهم وكانوا مسلمين فلما استولى الخطا على ملك الصين وعلى ما وراء النهر هاجر هؤلاء الغز إلى خراسان وأقاموا بنواحي بلخ وكان لهم من الأمراء محمود ودينار وبختيار وطوطي وأرسلان ومعز وكان صاحب بلخ الأمير قماج فتقدم إليهم أن يبعدوا عن بلخ فصانعوه فتركهم وكانوا يعطون الزكاة ويؤمنون السابلة ثم عاد إليهم في الانتقال فامتنعوا وجمعوا فخرج إليهم في العساكر وبذلوا له مالاً فلم يقبل وقاتلوه فهزموه وقتلوا العسكر والرعايا والفقهاء وسبوا العيال ونجا قماج إلى مرو وبها السلطان سنجار فبعث إليهم يتهددهم ويأمرهم بمفارقة بلاده فلاطفوه وبذلوا له فلم يقبل وسار إليهم في مائة ألف فهزموه وأثخنوا في عسكره وقتل علاء الدين قماج وأسروا السلطان سنجار ومعه جماعة من الأمراء فقتلوا الأمراء واستبقوا السلطان سنجار وبايعوه ودخلوا معه إلى مرو فطلب منه بختيار إقطاعها فقال: هي كرسي خراسان. فسخروا منه.

ثم دخل سنجار خانقاه فقسط على الناس وأطرهم وعسفهم وعلق في الأسواق ثلاث غرائر وطالبهم بملئها ذهباً فقتله العامة ودخل الغز نيسابور ودمروها تدميراً وقتلوا الكبار والصغار وأحرقوها وقتلوا القضاة والعلماء في كل بلد ولم يسلم من خراسان غير هراة وسبستان لحصانتهما.

وقال ابن الأثير عن بعض مؤرخي العجم: إن هؤلاء الغز انتقلوا من نواحي التغرغر من أقاصي الترك إلى ما وراء النهر أيام المقتفي وأسلموا واستظهر بهم المقنع الكندي على مخارقه وشعوذته حتى تم أمره فلما سارت إليه العساكر خذلوه وأسلموه وفعلوا مثل ذلك مع الملوك الخانية ثم طردهم الأتراك القارغلية عن أقطاعهم فاستدعاهم الأمير زنكي بن خليفة الشيباني المستولي على حدود طخارستان وأنزلهم بلاده واستظهر بهم على قماج صاحب بلخ وسار بهم لمحاربته فخذلوه لأن قماج كان استمالهم فانهزم زنكي وأسر هو وابنه وقتلهما قماج وأقطع الغز في بلاده.

فلما سار الحسين بن الحسين الغوري إلى بلخ برز إليه قماج ومعه هؤلاء الغز فخذلوه ونزعوا عنه إلى الغوري حتى ملك بلخ فسار السلطان سنجار إلى بلخ وهزم الغوري واستردها وبقي الغز بنواحي طخارستان وفي نفس قماج حقد عليهم فأمرهم بالانتقال عن بلاده فتألفوا وتجمعوا في طوائف من الترك وقدموا عليهم أرسلان بوقاء التركي ولقيهم قماج فهزموه وأسروه وابنه أبا بكر وقتلوهما واستولوا على نواحي بلخ وعاثوا فيها وجمع السلطان سنجار وفي مقدمته محمد بن أبي بكر بن قماج المقتول والمؤيد ابنه في محرم سنة ثمان وأربعين وجاء السلطان سنجار على أثره وبعثوا إليه بالطاعة والأموال فلم يقبل منهم وقاتلهم فهزموه إلى بلخ ثم عاود قتالهم فهزموه إلى مرو واتبعوه فهرب هو وعسكره من مرو

رعباً منهم ودخلوا البلد وأفشحوا فيه قتلاً ونهباً وقتلوا القضاة والأئمة والعلماء ولما خرج سنجار من مرو وأسروه أجلسوه على التخت على عادته وآتوه طاعتهم ثم عاودوا الغارة على مرو فمنعهم أهلها وقاتلوهم ثم عجزوا واستسلموا فاستباحوها أعظم من الأولى ولما أسر سنجار فارقه جميع أمراء خراسان ووزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك ووصلوا إلى نيسابور واستدعوا سليمان شاه بن السلطان محمود وخطبوا له بالسلطان في منتصف السنة واجتمعت عليه عساكر خراسان وساروا لطلب الغز فبارزوهم على مرو وانهزمت العساكر رعباً منهم وقصدوا نيسابور والغز في اتباعهم ومروا بطوس فاستباحوها وقتلوا حتى العلماء والزهاد وخربوا حتى المساجد.

ثم ساروا إلى نيسابور في شوال سنة تسع وأربعين ففعلوا فيها أفحش من طوس حتى ملأوا البلاد من القتلى وتحصن طائفة بالجامع الأعظم من العلماء والصالحين فقتلوهم عن آخرهم وأحرقوا خزائن الكتب وفعلوا مثل ذلك في جوين وأسفراين فحاصروهما واقتحموهما مثل ما فعلوا في البلاد الأخرى وكانت أفعال الغز في هذه البلاد أعظم وأقبح من أفعال الغز في غيرها ثم إن السلطان سليمان شاه توفي وزيره طاهر بن فخر الملك بن نظام الملك في شوال سنة ثمان وأربعين فاستوزر ابنه نظام الملك وانحل أمره وعجز عن القيام بالملك فعاد إلى جرجان في صفر سنة تسع وأربعين فاجتمع الأمراء وخطبوا للخان محمود بن محمد بن بقراخان وهو ابن أخت سنجار واستدعوه فملكوه في شوال من السنة وساروا معه لقتال الغز وهم محاصرون هراة فكانت حروبه معهم سجالاً وأكثر الظفر للغز ثم رحلوا عن هراة إلى مرو منتصف خمسين وأعادوا مصادرة أهلها وسار الخان محمد إلى نيسابور وقد غلب عليها المؤيد كما يذكر فراسل الغز في الصلح فصالحوه في رجب.

استيلاء المؤيد على نيسابور وغيرها

هذا المؤيد من موالي سنجار واسمه..... وكان من أكابر أوليائه ومطاعاً فيهم ولما كانت هذه الفتنة وافترق أمر الناس بخراسان تقدم..... فاستولى على نيسابور وطوس ونسا وان ورد وشهرستان والدامغان وحصنها ودافع الغز عنها ودانت له الرعية لحسن سيرته فعظم شأنه وكثرت جموعه واستبد بهذه الناحية وطالبه الخان محمود عندما ملكوه بالحضور عنده وتسليم البلاد فامتنع وترددت الرسل بينهما على مال يحمله للخان محمود فضمنه المؤيد وكف عنه محمود واستقر الحال على ذلك والله سبحانه تعالى أعلم.

استيلاء ايتاخ على الري

كان ايتاخ من موالي السلطان سنجار وكانت الري أيضاً من أعمال سنجار فلما كانت فتنة الغز لحق بالري واستولى عليها وصانع السلطان محمد شاه ابن محمود صاحب همذان وأصبهان وغيرهما وبذل له الطاعة فأقره فلما مات السلطان محمد مد يده إلى أعمال تجاوزته وملكها فعظم أمره وبلغت عساكره عشرة آلاف فلما ملك سليمان شاه همذان على ما نذكره وقد كان أنس به عند ولاية سليمان على خراسان سار إليه وقام بخدمته وبقي مستبداً بتلك البلاد والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخبر عن سليمان شاه وحبسه بالموصل

كان سليمان شاه بن السلطان محمد بن ملك شاه عند عمه السلطان سنجار وجعله ولي عهده وخطب له على منابر خراسان فلما وقعت فتنة الغز وأسر سنجار قدمه أمراء خراسان على أنفسهم ثم عجز ومضى إلى خوارزم شاه فزوجه ابنة أخيه ثم سعى به عنده فأخرجه من بلده وجاء إلى أصفهان فمنعه الشحنة من الدخول فمضى إلى قاشان فبعث السلطان محمد شاه ابن أخيه محمود عسكراً ليدفعه عنها فسار إلى خوزستان فمنعه ملك شاه منها فقصد اللحف ونزل وأرسل المقتفي في أثره فطلبه في زوجته رهينة ببغداد فبعث بها مع جواريها وأتباعها فأكرمهم المقتفي وأذن له في القدوم وخرج الوزير ابن هبيرة وقاضي القضاة والفتيان لتلقيه وخلع عليه المقتفي وأقام ببغداد حتى إذا دخلت سنة إحدى وخمسين أحضر بدار الخلافة وحضر قاضي القضاة والأعيان واستحلف على الطاعة والتجافي للخليفة عن العراق وخطب له ببغداد ولقب ألقاب أبيه وأمده بثلاثة آلاف من العسكر وجعل معه الأمير دوران أمير حاجب صاحب الحلة.

وسار إلى بلاد الجبل في ربيع الأول من السنة وسار المقتفي إلى حلوان وبعث إلى ملك شاه بن السلطان محمود يدعوه إلى موافقة عمه سليمان شاه وأن يكون ولي عهده فقدم في ألفي فارس وتحالفا وأمدهما المقتفي بالمال والأسلحة واجتمع معهم ايلدكز صاحب كنجة وأرانية وساروا لقتال السلطان محمد فلما بلغه خبرهم أرسل إلى قطب الدين مودود بن زنكي ونائبه زين الدين

على كوجك في المساعدة والاتفاق فأجابه وسارا للقاء عمه سليمان شاه ومن معه وافتتلوا في جمادى الأولى فهزمهما السلطان محمد وافترقوا وتوجه سليمان شاه إلى بغداد على شهرزور وكانت لصاحب الموصل وبها الأمير بوران من جهة علي كوجك نائب الموصل فاعترضه هنالك كوجك وبوران فاحتمله كوجك إلى الموصل فحبسه بها وبعث إلى السلطان محمد بالخبر وأنه على الطاعة والمساعدة فقبل منه وشكر له.

فرار سنجار من أسر الغز

قد تقدم لنا ما كان من أسر السلطان سنجار بيد الغز وافتراق خراسان واجتماع الأمراء بنيسابور وما إليها على الخان محمود بن محمد وامتنعوا من الغز وامتنع أتسز بن محمد أنوشكين بخوارزم وانقسمت خراسان بينهم وكانت الحرب بين الغز وبينهما سجالاً ثم هرب سنجار من أسر الغز وجماعة من الأمراء كانوا معه في رمضان سنة إحدى وخمسين ولحق بترمذ ثم عبر جيحون إلى دار ملكه بمرو فكانت مدة أسره من جمادى سنة ثمان وأربعين ثلاث سنين وأربعة أشهر ولم يتفق فراره من الأسر إلا بعد موت علي بك مقدم القارغلية لأنه كان أشد شيء عليه فلما توفي انقطعت القارغلية إليه وغيرهم ووجد فسحة في أمره واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

حصار السلطان محمد بغداد

كان السلطان محمد بن محمود لأول ولايته الملك بعد عمه مسعود بعث إلى المقتفي في الخطبة له ببغداد والعراق على عادتهم فمنعه لما رجا من ذهاب دولتهم استفحالهم واستبدادهم فسار السلطان من همذان في العساكر نحو العراق ووعده صاحب الموصل ونائبه بمدد العساكر فقدم آخر إحدى وخمسين وبعث المقتفي في الحشد فجاء خطا وفرس في عسكر واسط وخالفهم مهلهل إلى الحلة فملكها واهتم المقتفي وابن هبيرة بالحصار وقطع الجسر وجمع السفن تحت التاج ونودي في الجانب الغربي بالعبور فعبروا في محرم سنة اثنتين وخمسين وخرب المقتفي ما وراء الخرسة صلاحاً في استبداده وكذلك السلطان محمد من الجهة الأخرى ونصبت المنجنيقات والعرادات وفرق المقتفي السلاح على الجند والعامة.

وجاء زين الدين كجك في عسكر الموصل ولقي السلطان علي أوان واتصلت الحرب واشتد الحصار وفقدت الأقوات وانقطعت المواد عن أهل بغداد وفتر كجك وعسكره في القتال أدباً مع المقتفي وقيل: أوصاه بذلك نور الدين محمود بن زنكي أخو قطب الدين الأكبر ثم جاء الخبر بأن ملك شاه أخا السلطان محمد وايلدكز صاحب أران وربيبه أرسلان بن طغرل قصدوا همذان فسار عن بغداد مسرعاً إلى همذان آخر ربيع الأول وعاد زين الدين إلى الموصل ولما وصل ملك شاه وايلدكز وربيبه أرسلان إلى همذان أقاموا بها قليلاً وسمعوا بمجيء السلطان فأجفلوا وساروا إلى الري فقاتلهم الشحنة انبانج فهزموه وحاصروه وأمده السلطان محمد بعسكر بن سقمس بن قماز فوجدهم قد أفرجوا عنه وقصدوا بغداد فقاتلهم فهزموه ونهبوا عسكره فسار السلطان محمد ليسابقهم إلى بغداد فلما انتهى إلى حلوان بلغه أن ايلدكز بالدينور ثم وافاه رسول انبايج بأنه ملك همذان وخطب له فيها وان شملة صاحب خراسان هرب عن ايلدكز وملك شاه إلى بلاده فعاد إلى أران ورجع السلطان إلى همذان قاصداً للتجهز إلى بلاد ايلدكز بأران.

وفاة سنجار

ثم توفي السلطان سنجار صاحب خراسان في ربيع سنة اثنتين وخمسين وقد كان ولي خراسان منذ أيام أخيه بركيارق وعهد له أخوه محمد فلما مات محمد خوطب بالسلطنة وكان الملوك كلهم بعدها في طاعته نحو أربعين سنة وخطب له قبلها بالملك عشرين سنة وأسره الغز ثلاث سنين ونصف ومات بعد خلاصه من الأسر وقطعت خطبته ببغداد والعراق ولما احتضر استخلف على خراسان ابن أخته محمد بن محمود بن بقراخان فأقام بجرجان وملك الغز مرو وخراسان وملك به المؤيد نيسابور وناحيته من خراسان وبقي الأمر على هذا الخلاف سنة أربع وخمسين وبعث الغز إلى محمود الخان ليحضر عندهم فيملكوه فخافهم على نفسه وبعث ابنه إليهم فأطاعوه مدة ثم لحق هو بهم كما نذكر بعد.

منازعة ايتاق للمؤيد

كان إيتاق هذا من موالي السلطان سنجار فلما كانت الفتنة وافترق الشمل ومات السلطان سنجار وملك المؤيد نيسابور وحصل له التقدم بذلك على عساكر خراسان حسده جماعة من الأمراء وانحرف عنه إيتاق هذا فتارة يكون معه وتارة يكون في مازندران فلما كان سنة اثنتين وخمسين سار من مازندران في عشرة

آلاف فارس من المنحرفين عن المؤيد وقصد نسا وأبيورد وأقام بها المؤيد إيتاق فسار إليه وكبسه وغنم معسكره ومضى إيتاق منهزما إلى مازندران وكان بين ملكها رستم وبين أخيه منازعة علي فتقرب إيتاق إلى رستم بقتال أخيه علي فوجد لذلك غلبة ودفعه عنه وسار يتردد في نواحي خراسان بالعيث والفساد والح على إسفراين فخربها وراسله السلطان محمود الخان والمؤيد في الطاعة والاستقامة فامتنع فساروا إليه في العساكر في صفر سنة ثلاث وخمسين فهرب إلى طبرستان وبعث رستم شاه مازندران إلى محمود والمؤيد بطاعته بأموال جليلة وهدية فقبلوا منه وبعث إيتاق ابنه رهناً على الطاعة فرجعوا عنه واستقر بجرجان ودستان وأعمالها.

منازعة سنقر العزيزي للمؤيد ومقتله

كان سنقر العزيزي من أمراء السلطان سنجار وكان في نفسه من المؤيد ما عند الباقين فلما شغل المؤيد بحرب إيتاق سار سنقر من عسكر السلطان محمود بن محمد إلى هراة فملكها واشترط عليه أن يستظهر بملك الغورية الحسين فأبى وطمع في الاستبداد لما رأى من استبداد الأمراء على السلطان محمود بن محمد فحاصره المؤيد بهراة واستمال الأتراك الذين كانوا معه فأطاعوه وقتلوا سنقر العزيزي غيلة وملك السلطان محمد هراة ولحق الفل من عسكر سنقر بإيتاق وتسلطوا على طوس وقراها واستولى الخراب على البلاد والله تعالى أعلم.

فتنة الغز الثانية بخراسان وخراب نيسابور على يد المؤيد

كان الغز بعد فتنتهم الأولى أوطنوا بلخ ونزعوا عن النهب والقتل بخراسان واتفقت الكلمة بها على طاعة السلطان محمود بن محمد الخان وكان القائم بدولته المؤيد أي أبه فلما كان سنة ثلاث وخمسين في شعبان سار الغز إلى مرو فزحف المؤيد إليهم وأوقع طائفة منهم وتبعهم إلى مرو وعاد إلى سرخس وخرج معه الخان محمود لحربهم فالتقوا خامس شوال وتواقعوا مراراً ثلاثاً انهزم فيها الغز على مرو وأحسنوا السيرة وأكرموا العلماء والأئمة ثم أغاروا على سرخس وطوس واستباحوهما وخربوهما وعادوا إلى مرو وأما الخان محمود بن محمد فسار إلى جرجان ينتظر مآل أمرهم وبعث إليه الغز سنة أربع يستدعونه ليملكوه فاعتذر لهم خشية على نفسه فطلبوا منه جلال الدين عمر فتوثق منهم بالحلف وبعثه إليهم فعظموه وملكوه في ربيع الآخر من سنة أربع.

ثم سار أبوه محمود إلى خراسان وتخلف عنه المؤيد أي أبه وانتهى إلى حدود نسا وأبيورد فولى عليهم الأمير عمر بن حمزة النسوي فقام في حمايتهما المقام المحمود بظاهر نسا ثم سار الغز من نيسابور إلى طوس لامتناع أهلها من طاعتهم فملكوها واستباحوها وعادوا إلى نيسابور فساروا مع جلال الدين عمر بن محمود الخان إلى حصار سارورا وبها النقيب عماد الدين محمد بن يحيى العلوي الحسيني فحاصروه وامتنعت عليهم فرجعوا إلى نسا وأبيورد للقاء الخان محمود بجرجان كما قدمناه فخرج منها سائراً إلى خراسان واعترضه الغز ببعض القرى في طريقه فهرب منه وأسر بعضهم ثم هرب منه ولحق بنيسابور فلما جاء الخان محمود إليها مع الغز فارقها منتصف شعبان ودخلها الغز وأحسنوا السيرة وساروا إلى سرخس ومرو فعاد المؤيد في عساكره إلى نيسابور وامتنع أهلها عليه فحاصرها وافتتحها عنوة وخربها ورحل عنها إلى سبق في شوال سنة أربع وخمسين.

استيلاء ملك شاه بن محمود على خوزستان

ولما رجع السلطان ملك شاه محمد بن محمود من حصار بغداد وامتنع الخليفة من الخطبة له أقام بهمذان عليلاً وسار أخوه ملك شاه إلى قم وقاشان فأفحش في نهبها ومصادرة أهلها وراسله أخوه السلطان محمد في الكف عن ذلك فلم يفعل وسار إلى أصفهان وبعث إلى ابن الجمقري وأعيان البلد في طاعته فاعتذروا بطاعة أخيه فعاث في قراها ونواحيها فسار السلطان إليه من همذان وفي مقدمته كرجان الخادم فافترقت جموع ملك شاه ولحق ببغداد فلما انتهى إلى قوس لقيه موبدان وسنقر الهمذاني فأشارا عليه بقصد خوزستان من بغداد فسار إلى واسط ونزل بالجانب الشرقي وسار أثر عسكره في النواحي ففتحوا عليهم البثوق وغرق كثير منهم ورجع ملك شاه إلى خوزستان فمنعه شملة من العبور فطلب الجوار في بلده إلى أخيه السلطان فمنعه فنزل على الأكراد الذين هنالك فاجتمعوا عليه من الجبال والبسائط وحارب شملة ومع ملك شاه سنقر الهمذاني وموبدان وغيرهما من الأمراء فانهزم شملة وقتل عامة أصحابه واستولى ملك شاه على البلاد وسار إلى فارس والله هو المؤيد بنصره.

وفاة السلطان محمد وولاية عمه سليمان شاه

ثم توفي السلطان محمد بن محمود بن ملك شاه آخر سنة أربع وخمسين وهو الذي حاصر بغداد يطلب الخطبة له من الخليفة ومنعه فتوفي آخر هذه السنة لسبع سنين ونصف من ولايته وكان له ولد صغير فسلمه إلى سنقر الأحديلي وقال: هو وديعة عندك فاوصل به إلى بلادك فإن العساكر لا تطيعه. فوصل به إلى مراغة واتفق معظم الجند على البيعة لعمه سليمان شاه وبعث أكابر الأمراء بهمذان إلى أتابك زين الدين مودود أتابك ووزير مودود وزيره فأطلقه مودود وجهزه بما يحتاج إليه في سلطانه وسار معه زين الدين علي كجك في عساكر الموصل فلما انتهى إلى بلاد الجبل وأقبلت العساكر للقاء سليمان شاه ذكر معاملتهم مع السلطان ودالتهم عليه فخشي على نفسه وعاد إلى الموصل ودخل سليمان شاه همذان وبايعوا له والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة المقتفي وخلافة المستنجد

ثم توفي المقتفي لأمر الله في ربيع الأول سنة خمس وخمسين لأربع وعشرين سنة من خلافته وقد كان استبد في خلافته وخرج من حجر السلجوقية عند افتراق أمرهم بعد السلطان مسعود كما ذكرناه في أخبار الخلفاء ولما توفي بويع بعده بالخلافة لابنه المتسنجد فجرى على سنن أبيه في الاستبداد واستولى على بلاد الماهلي ونزل اللحف وولى عليها من قبله كما كانت لأبيه وقد تقدم ذكر ذلك في أخبارهما انتهى.

اتفاق المؤيد مع محمود الخان

قد كنا قدمنا أن الغز لما تغلبوا استدعوا محمود الخان ليملكوه فبعث إليهم بابنه عمر فملكوه ثم سار محمود من جرجان إلى نسا وجاء الغز فساروا به إلى نيسابور فهرب عنها المؤيد ودخلها محمود والغز ثم ساروا عنها فعاد إليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة وخربها في شوال سنة أربع وخمسين ورحل عنها إلى سرخس فعاد اليها المؤيد فحاصرها وملكها عنوة ورحل عنها إلى بيهق ثم رجع إليها سنة خمس وخمسين وعمر خرابها وبالغ في الإحسان إليها ثم سار لإصلاح أعمالها ومحو آثار المفسدين والثوار من نواحيها ففتح حصن أشقيل وقتل الثوار الزيدية وخربه وفتح حصن خسروجور من أعمال بيهق وهو من بناء كنجرو ملك الفرس أيام حربه مع جراسياق وملكه ورتب فيه الحامية وعاد إلى نيسابور ثم قصد مدينة كندر من أعمال طرسا وفيها متغلب اسمه خرسده يفسد السابلة ويخرب الأعمال ويكثر الفتك وكان البلاء به عظيماً في خراسان فحاصره ثم ملك عليه الحصن عنوة وقتله وأراح البلاد منه ثم قصد في رمضان من السنة مدينة بيهق وكانوا قد عصوا عليه فراجعوا الطاعة وقبلهم واستفحل أمره فأرسل إليه الخان محمود بن محمد وهو مع الغز بالولاية على نيسابور وطوس وما إليها فاتصلت يده به واستحكم الصلح بينه وبين الغز وذهبت الفتن.

الحرب بين عسكر خوارزم شاه والأتراك البرزية

كان هؤلاء الأتراك البرزية من شعوب الترك بخراسان وأميرهم بقراخان بن داود فأغار عليهم جمع من عساكر خوارزم شاه وأوقعوا بهم وفتكوا فيهم ونجا بقراخان في الفل منهم إلى السلطان محمود بخراسان ومن معه من الغز مستصرخاً بهم وهو يظن أن إيتاق هو الذي هيج عليهم فسار الغز معه على طريق نسا وأبيورد وقصدوا إيتاق فلم يكن له بهم قوة فاستنصر.... شاه مازندان فسار لنصره واحتشد في أعماله من الأكراد والديلم والتركمان وقاتلوا الغز والبرزية بنواحي دهستان فهزمهم خمساً وكان إيتاق في ميمنة شاه مازندان وأفحش الغز في قتل عسكرهم ولحق شاه مازندان بسارية وإيتاق شهرزور وخوارزم ثم ساروا إلى دهستان فنهبوها وخربوها سنة ست وخمسين وخربوا جرجان كذلك وافترق أهلها في البلاد ثم سار إيتاق إلى بقراتكين المتغلب على أعمال قزوين فانهزم من بين يديه ولحق بالمؤيد وصار في جملته واكتسح إيتاق سائر أعماله ونهب أمواله فقوي بها.

وفاة ملك شاه بن محمود

قد قدمنا أن ملك شاه بن محمود سار بعد أخيه السلطان محمد من خوزستان إلى أصفهان ومعه شملة التركماني ودكلا صاحب فارس فأطاعه ابن الخجندي رئيس أصفهان وسائر أهلها وجمع له الأموال وأرسل ملك شاه إلى أهل الدولة بأصفهان يدعوهم إلى طاعته وكان هواهم مع عمه سليمان فلم يجيبوه إلى ذلك وبعثوا عن سليمان من الموصل وملكوه وانفرد ملك شاه

بأصفهان واستفحل أمره وبعث إلى المستنجد في الخطبة له ببغداد مكان عمه سليمان شاه وأن تعاد الأمور إلى ما كانت ويتهددهم فوعد الوزير عميد الدين بن هبيرة جارية جاعلها على سمه فسمته في الطعام وفطن المطبب بأنه مسموم وأخبر بذلك شملة ودكلا فأحضروا الجارية وأقرت ومات ملك شاه وأخرج أهل أصفهان أصحابه وخطبوا لسليمان شاه وعاد شملة إلى خراسان فارتجع ما كان ملك شاه تغلب عليه منها.

قتل سليمان شاه والخطبة لأرسلان

كان سليمان لما ملك أقبل على اللّهو ومعاقرة الخمر حتى في نهار رمضان وكان يعاشر الصفاعين والمساخر وعكف على ذلك مع ما كان فيه من الخرق والتهور فقعد الأمراء عن غشيان بابه وشكوا إلى شرف الدين كردبازه الخادم وكان مدبر مملكته وكان حسن التربية والدين فدخل عليه يوماً يعذله على شأنه وهو مع ندمائه بظاهر همذان فأشار إليهم أن يعبثوا بكردبازة فخرج مغضباً واعتذر إليه عندما صحا فأظهر له القبول وقعد عن غشيان مجلسه وكتب سليمان شاه إلى انبانج صاحب الري يدعوه إلى الحضور فوعده بذلك إذا أفاق من مرضه وزاد كردبازه استيحاشاً فاستحلف الأمراء على خلع سليمان وبدأ بقتل جميع الصفاعين الذين كانوا ينادمونه وقال: إنما فعلته صوناً للملك ثم عمل دعوة في داره فحضر سليمان شاه والأمراء وقبض على سليمان شاه ووزيره أبي القاسم محمود بن عبد العزيز الخاقدي وعلى خواصه وذلك في شوال سنة خمس وخمسين وقتل وزيره وخواصه وحبس سليمان شاه قليلاً ثم قتله.

ثم أرسل إلى ايلدكز صاحب أران وأذربيجان يستقدم ربيبه أرسلان بن طغرل ليبايع له بالسلطنة وبلغ الخبر إلى انبانج صاحب الري فسار إلى همذان ولقيه كردبازه وخطب له بالسلطنة بجميع تلك البلاد وكان ايلدكز قد تزوج بأم أرسلان وولدت له ابنه البهلوان محمد ومزد أرسلان عثمان فكان ايلدكز أتابك وابنه البهلوان حاجباً وهو أخو أرسلان لأمه وايلدكز هذا من موالي السلطان مسعود ولما ملك أقطعه أران وبعض أذربيجان وحدثت الفتن والحروب فاعتصم هو بأران ولم يحضر عند أحد من ملوكهم وجاء إليه أرسلان شاه من تلك الفتن فأقام عنده إلى أن ملك ولما خطب له بهمذان بعث ايلدكز أتابك إلى انبانج صاحب الري ولاطفه وصاهره في ابنته لابنه البهلوان وتحالفا على الاتفاق.

وبعث إلى المستنجد بطلب الخطبة لأرسلان في العراق وإعادة الأمور إلى عادتها أيام السلطان مسعود فطرد رسوله بعد الإهانة ثم أرسل ايلدكز إلى أقسنقر الأحمديلي يدعوه إلى طاعة السلطان أرسلان فامتنع وكان عنده ابن السلطان شاه بن محمود المدني أسلمه إليه عند موته فتهدده بالبيعة له وكان الوزير ابن هبيرة يكاتبه من بغداد ويقمعه في الخطبة لذلك الصبي قصداً للنصر من بينهم فجهز ايلدكز العساكر مع البهلوان إلى أقسنقر واستمد أقسنقر شاهر بن سقمان القطبي صاحب خلاط وواصله فمده بالعساكر وسار نحو البهلوان وقاتله فظفر به ورجع البهلوان إلى همذان مهزوماً واللّه تعالى أعلم.

الحرب بين ايلدكز وإينانج

لما مات ملك شاه بن محمود بأصبهان كما قلناه لحق طائفة من أصحابه ببلاد فارس ومعهم ابنه محمود فانتزعه منهم صاحب فارس زنكي بن دكلا السلقدي وأنزله في قلعة إصطخر فلما ملك ايلدكز السلطان أرسلان وطلب الخطبة ببغداد وأخذ الوزير ابن هبيرة في استفساد الأطراف عليهم وبعث لابن أقسنقر في الخطبة لابن السلطان محمد شاه الذي عنده وكاتب صاحب فارس أيضاً يشير عليه بالبيعة للسلطان محمد بن السلطان ملك شاه الذي عنده ويعده بالخطبة له إن ظفر بايلدكز فبايع له ابن دكلا وخطب له بفارس وضرب النوب الخمس على بابه وجمع العساكر وبلغ إلى ايلدكز فجمع وسار في أربعين ألفاً إلى أصفهان يريد فارس فأرسل إلى زنكي في الخطبة لأرسلان شاه فأبى فقال له ايلدكز: إن المستنجد أقطعني بلادك وأنا سائر إليها. وتقدمت طائفة إلى نواحي أرجان فلقيتها سرية لأرسلان بوقا صاحب أرجان فأوقعوا بطائفته وقتلوا منهم وبعثوا بالخبر إلى انبانج فنزل من الري في عشرة آلاف وأمده أقسنقر الأحمديلي بخمسة آلاف فقصد وهرب صاحب ابن البازدان وابن طغايرك وغيرهما من أولياء ايلدكز للقاء انبانج ورد عسكر المدافعة زنكي عن شهيرم وغيرها من البلاد فهزمهم زنكي بن دكلا ورجعوا إليه فاستدعى عساكره من أذربيجان وجاء هبيس بن مزد أرسلان واستمد انبانج وقتل أصحابه ونهب سواده ودخل الري وتحصن في قلعة طبرك ثم ترددت الرسل بينه وبين ايلدكز في الصلح وأقطعه حربادفان وغيرها وعاد ايلدكز إلى همذان واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

الفتنة بنيسابور وتخريبها

وفي ربيع سنة ست وخمسين قبض المؤيد على أحياء نيسابور

وحبسهم وفيهم نقيب العلويين أبو القاسم زيد بن الحسن الحسني وآخذهم على ما فعله آباؤهم بأهل البلد من النهب والاعتداء على الناس في أموالهم وأعراضهم فأخذ هؤلاء الأعيان ينهونهم كأنهم لم يضربوا على أيديهم وقتل جماعة من أهل الفساد فخرب البلد وامتدت الأيدي إلى المساجد والمدارس وخزائن الكتب وأحرق بعضَها ونهب بعضها وانتقل المؤيد إلى الشاذياخ فأصلح سوره وسد ثلمه وسكنه وخرب نيسابور بالكلية وكان الذي اختط هذا الشاذياخ عبد الله بن طاهر أيام ولايته على خراسان ينفرد بسكناه هو وحشمه عن البلد تجافياً عن مزاحمتهم ثم خربت وجددها ألب أرسلان ثم خربت فجددها الآن المؤيد وخربت نيسابور بالكلية ثم زحف الغز والخان محمود معهم وهو ملك خراسان لذلك العهد فحاصروا المؤيد بالشاذياخ شهرين ثم هرب إلخان عنهم إلى شهرستان كأنه يريد الحمام وأقام بها وبقي الغز إلى آخر شوال ثم رجعوا فنهبوا البلاد ونهبوا طوس ولما دخل الخان إلى نيسابور أمهله المؤيد إلى رمضان سنة سبع وخمسين ثم قبض عليه وسمله وأخذ ما كان معه من الذخائر وحبسه وحبس معه جلال محمد فماتا في محبسهما وخطب المؤيد لنفسه بعد المستنجد ثم زحف المؤيد إلى شهرستان وقرب نيسابور فحاصرها حتى نزلوا على حكمه في شعبان سنة تسع وخمسين ونهبها عسكره ثم رفع الأيدي عنها واستقامت في ملكه والله أعلم.

فتح المؤيد طوس وغيرها

ثم زحف المؤيد إلى قلعة دسكرة من طوس وكان بها أبو بكر جاندار ممتنعاً فحاصره بها شهراً وأعانه أهل طوس لسوء سيرته فيهم ثم جهده الحصار فاستأمن ونزل فحبسه وسار إلى كرمان فأطاعوه وبعث عسكراً إلى إسفراين فتحصن بها رئيسها عبد الرحمن بن محمد بالقلعة فحاصره واستنزله وحمله مقيداً إلى الشاذياخ فحبس ثم قتل في ربيع الآخر سنة ثمان وخمسين ثم ملك المؤيد قهندر ونيسابور واستفحل ملكه وعاد إلى ما كان عليه وعمر الشاذياخ وخرب المدينة العتيقة ثم بعث عسكراً إلى بوشنج وهراة وهي في ولاية محمد بن الحسين ملك الغور فحاصرها وبعث الملك محمد عسكراً لمدافعته فأفرجوا عنها وصفت ولاية هراة للغورية.

الحرب بين المسلمين والكرج

كان الكرج قد ملكوا مدينة أنسى من بلاد أران في شعبان سنة ست وخمسين واستباحوها قتلاً وأسراً وجمع لهم شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط جموعاً من الجند والمتطوعة وسار إليهم فقاتلوه وهزموه وأسر كثير من المسلمين ثم جمع الكرج في شعبان سنة سبع وخمسين ثلاثين ألف مقاتل وملكوا دوس من أذربيجان والجبل وأصبهان فسار إليهم ايلدكز وسار معه شاه أرمن بن إبراهيم بن سكمان صاحب خلاط وأقسنقر صاحب مراغة في خمسين ألفاً ودخلوا بلاد الكرج في صفر سنة ثمان وخمسين فاستباحوها وأسروا الرجال وسبوا النساء والولدان وأسلم بعض أمراء الكرج ودخل مع المسلمين وكمن بهم في بعض الشعاب حتى زحف الكرج وقاتلوا المسلمين شهراً أو نحوه ثم خرج الكمين من ورائهم فانهزموا واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون وعادوا ظافرين.

ملك المؤيد أعمال قومس والخطبة للسلطان أرسلان بخراسان

ثم سار المؤيد أي أبه صاحب نيسابور إلى بلاد قومس فملك بسطام ودامغان وولى بسطام مولاه تنكز فجرى بينه وبين شاه مازندان اختلاف أدى إلى الحرب واقتتلوا في ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ولما ملك المؤيد قومس بعث إليه السلطان أرسلان بن طغرل بالخلع والأولية لما كان بين المؤيد ايلدكز من المودة وأذن له في ولاية ما يفتحه من خراسان ويخطب له فيها فخطب له في أعمال قومس وطوس وسائر أعمال نيسابور ويخطب لنفسه بعد أرسلان وكانت الخطب في جرجان ودهستان لخوارزم شاه أرسلان بن أتسز وبعده للامير إيتاق والخطبة في مرو وبلخ وسرخس وهي بيد الغز وهراة وهي بيد الأمير أتيكين وهو مسالم للغز - للسلطان سنجار يقولون: اللّهم اغفر للسلطان السعيد سنجار وبعده لأمير تلك المدينة والله تعالى ولي التوفيق.

إجلاء القارغلية من وراء النهر

كان خان خاقان الصيني ولى على سمرقند وبخارى الخان جغرا بن حسين تكين وهو من بيت قديم في الملك ثم بعث إليه سنة سبعة وخمسين بإجلاء القارغلية من أعماله إلى كاشغر ويشتغلون بالمعاش من الزراعة وغيرها فامتنعوا فألح عليهم فاجتمعوا وساروا إلى بخارى فدس أهل بخارى إلى جغراخان وهو بسمرقند ووعدوا القارغلية بالمصانعة وطاوعوهم إلى أن صبحهم

جغرا في عساكره فأوقع بهم وقطع دابرهم والله تعالى أعلم.

استيلاء سنقر على الطالقان وغرستان

وفي سنة تسع وخمسين استولى الأمير صلاح الدين سنقر من موالي السلطان سنجار على بلاد الطالقان وأغار على غرستان حتى ملكها وصارت في حكمه بحصونها وقلاعها وصالح أمراء الغز وحمل لهم الأتاوة.

قتل صاحب هراة

كان صاحب هراة الأمير أتيكين وبينه وبين الغز مهادنة فلما قتل الغز ملك الغور محمد بن الحسين كما مر في أخباره طمع أتيكين في بلاده فجمع جموعه وسار إليها في رمضان سنة تسع وخمسين وتوغل في بلاد الغور فقاتله أهلها وهزموه وقتل في المعركة وقصد الغز هراة وقد اجتمع أهلها على أثير الدين منهم فاتهموه بالميل للغز وقتلوه واجتمعوا على أبي الفتوح بن علي بن فضل الله الطغرائي ثم بعثوا إلى المؤيد بطاعتهم فبعث إليهم مملوكه سيف الدين تنكز فقام بأمرهم وبعث جيشاً إلى سرخس ومرو وأغاروا على دواب الغز فأفرجوا عن هراة ورجعوا لطاعته والله تعالى أعلم.

ملك شاه مازندران قومس وبسطام ووفاته

قد ذكرنا استيلاء المؤيد على قومس وبسطام وولاية مولاه تنكز عليها ثم إن شاه مازندران وهو رستم بن علي بن هربار بن قاروت جهز إليها عسكرا مع سابق الدين القزويني من أمرائه فملك دامغان وسار إليه تنكز فيمن معه من العسكر فكبسهم القزويني وهزمهم واستولى على البلاد وعاد تنكز إلى المؤيد بنيسابور وجعل يغير على بسطام وقومس ثم توفي شاه مازندران في ربيع سنة ستين فكتم ابنه علاء الدين موته حتى استولى على حصونه وبلاده ثم أظهره وملك مكانه ونازعه إتياق صاحب جرجان ودهستان ولم يرع ما كان بينه وبين أبيه فلم يظفر بشيء والله سبحانه وتعالى أعلم.

حصر عسكر المؤيد نسا

ثم بعث المؤيد عساكره في جمادى سنة ستين لحصار مدينة نسا فبعث خوارزم شاه بك أرسلان بن أتسز في عساكره إليها فأجفلت عنها عساكر المؤيد ورجعوا إلى نيسابور وصارت نسا في طاعة خوارزم شاه وخطب له فيها ثم سار عسكر خوارزم إلى دهستان وغلبوه عليها وأقام فيها بطاعته والله أعلم.

الحرب بين البهلوان وصاحب مراغة

ثم بعث أقسنقر الأحمديلي صاحب مراغة سنة ثلاث وستين إلى بغداد في الخطبة للملك الذي عنده وهو ابن السلطان محمد شاه على أن يتجافى عن العراق ولا يطلب الخطبة منه إلا إذا أسعف بها فأجيب بالوعد الجميل وبلغ الخبر إلى ايلدكز صاحب البلاد فبعث ابنه البهلوان في العساكر لحرب أقسنقر فحاربه وهزمه وتحصن بمراغة فنازله البهلوان وضيق عليه وتردد بينهما الرسل واصطلحوا وعاد البهلوان إلى أبيه بهمذان.

ملك شملة فارس وإخراجه عنها

كان زنكي بن دكلا قد أساء السيرة في جنده فأرسلوا إلى شملة صاحب خوزستان واستدعوه ليملّكوه فسار ولقي زنكي وهزمه ونجا إلى الأكراد الشوابكار وملك شملة بلاد فارس فأساء السيرة في أهلها ونهب ابن أخيه خرسنكا البلاد ففر أهل فارس عنه ولحق بزنكي بعض عساكره فزحف إلى فارس وفارقها شملة إلى بلاده خوزستان وذلك كله سنة أربع وستين وخمسمائة.

ملك إيلدكز الري

كان اينانج قد استولى على الري واستقر فيها بعد حروبه مع ايلدكز على جزية يؤديها إليه ثم منع الضريبة واعتذر بنفقات الجند فسار إليه إيلدكز سنة أربع وستين وحاربه اينانج فهزمه ايلدكز وحاصره بقلعة طبرك وراسل بعض مماليكه ورغبهم فغدروا به وقتلوه واستولى ايلدكز على طبرك وعلى الري وولى عليها علي بن عمر باغ ورجع إلى همذان وشكر لموالي اينانج الذين قتلوه ولم يف لهم بالوعد فافترقوا عنه وسار الذي تولى قتله إلى خوارزم شاه فصلبه لما كان بينه وبين إينانج من الوصلة والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة صاحب كرمان والخلف بين أولاده

ثم توفي سنة خمس وستين الملك طغرل بن قاروت بك صاحب كرمان وولي ابنه أرسلان شاه مكانه ونازعه أخوه الأصغر بهرام شاه فحاربه أرسلان وهزمه فلحق بالمؤيد في نيسابور فأنجده بالعساكر وسار إلى أخيه أرسلان فهزمه وملك كرمان ولحق أرسلان بأصبهان مستنجداً بالدكز فأنجده بالعساكر وارتجع كرمان ولحق بهرام بالمؤيد وأقام عنده ثم هلك أرسلان فسار بهرام إلى كرمان وملكها ثم توفي المستنجد وولي ابنه المستضيء ولم نترجم لوفاة الخلفاء ههنا لأنها مذكورة في أخبارهم وإنما ذكرناها قبل هؤلاء لأنهم كانوا في كفالة السلجوقية وبني بويه قبلهم فوفاتهم من جملة أخبار الدولتين وهؤلاء من لدن المقتفي قد استبدوا بأمرهم وخلافتهم من بعد ضعف السلجوقية بوفاة السلطان مسعود وافترقت دولتهم في نواحي المشرق والمغرب واستبد بها الخلفاء ببغداد ونواحيها ونازعوا من قبلهم أنهم كانوا يخطبون لهم في أعمالهم ونازعهم فيها مع ذلك حرصاً على الملك الذي سلبوه وأصبحوا في ملك منفرد عن أولئك المنفردين مضافاً إلى الخلافة التي هي شعارهم وتداول أمرهم إلى أن انقرضوا بمهلك المستعصم على يد هلاكو.

وفاة خوارزم شاه وولاية ابنه سلطان شاه ومنازعته مع أخيه الأكبر علاء الدين تكش

لما انهزم خوارزم شاه أرسلان أمام الخطا رجع إلى خوارزم فمات سنة ثمان وستين وولي ابنه سلطان شاه فنازعه أخوه الأكبر علاء الدين تكش واستنجد بالخطا وسار إلى خوارزم فملكها ولحق سلطان شاه بالمؤيد صريخاً فسار معه بجيوشه ولقيهم تكش فانهزم المؤيد وجيء به أسيراً إلى تكش فقتل بين يديه صبراً وعاد أصحابه إلى نيسابور فولوا ابنه طغان شاه أبو بكر ابن المؤيد وكان من أخبار طغان شاه وتكش ما نذكره في أخبار دولتهم وفي كيفية قتله خبر آخر نذكره هنالك ثم سار خوارزم شاه سنة تسع وستين إلى نيسابور وحاصرها مرتين ثم هزم في الثانية طغان شاه بن المؤيد وأخذه أسيراً وحمله إلى خوارزم وملك نيسابور وأعمالها وجميع ما كان لبني المؤيد بخراسان وانقرض أمرهم والبقاء لله وحده واللّه تعالى أعلم.

وفاة الأتابك شمس الدين إيلدكز وولاية ابنه محمد البهلوان

ثم توفي الأتابك شمس الدين إيلدكز أتابك أرسلان شاه بن طغرل صاحب همذان وأصبهان والري وأذربيجان وكان أصله مملوك الكمال الشهير ابن وزير السلطان محمود ولما قتل الكمال صار السلطان وترقى في كتب الولاية فلما ولي السلطان مسعود ولاه أرانية فاستولى عليها وبقيت طاعته للملوك على البعد واستولى على أكثر أذربيجان ثم ملك همذان وأصبهان والري وخطب لربيبه أرسلان بن طغرل وبقي أتابك وبلغ عسكره خمسين ألفاً واتسع ملكه من تفليس إلى مكران وكان متحكماً على أرسلان وليس له من الدولة إلا جراية تتصل إليه.

ولما هلك إيلدكز قام بالأمر بعده ابنه محمد البهلوان وهو أخو السلطان أرسلان لأمه فسار أول ملكه لإصلاح أذربيجان وخالفه ابن سنكي وهو ابن أخي شملة صاحب خوزستان إلى بلد نهاوند فحاصرها ثم تأخر ابن سنكي من تستر وصحبهم من ناحية أذربيجان يوهمهم أنه مدد البهلوان ففتحوا له البلد ودخل فطلب القاضي والأعيان ونصبهم وتوجه نحو ماسبذان قاصداً العراق ورجع إلى خوزستان ثم سار شملة سنة سبعين وقصد بعض التركمان فاستنجدوا البهلوان بن إيلدكز فأنجدهم وقاتلوه فهزموه وأسر شملة جريحا وولده وابن أخيه وتوفي بعد يومين وهو من التركمان الأتسزية وملك ابنه من بعده وسار البهلوان سنة سبعين إلى مدينة تبريز وكان صاحبها أقسنقر الأحمديلي قد هلك وعهد بالملك بعده لابنه ملك الدين فسار إلى بلاده وحاصر مراغة وبعث أخاه فنزل وعاد عن مراغة إلى همذان واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة السلطان أرسلان بن طغرل

ثم توفي السلطان أرسلان بن طغرل مكفول البهلوان بن إيلدكز وأخوه لأمه بهمذان سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وخطب بعده لابنه طغرل.

وفاة البهلوان محمد بن إيلدكز وملك أخيه قزل

ثم توفي البهلوان محمد بن إيلدكز أول سنة اثنتين وخمسمائة

وكانت البلاد والرعايا في غاية الطمأنينة فوقع عقب موته بأصبهان بين الحنفية والشافعية وبالري بين أهل السنة والشيعة فتن وحروب آلت إلى الخراب وملك البلاد بعد البهلوان أخوه قزل أرسلان واسمه عثمان وكان البهلوان كافلاً للسلطان طغرل وحاكماً عليه ولما هلك قزل لم يرض طغرل بتحكمه عليه وفارق همذان ولحق به جماعة من الأمراء والجند وجرت بينه وبين قزل حروب ثم غلبه طغرل إلى الخليفة فأمره بعمارة دار السلطان فطرد رسوله وهدمت دار السلطنة وألحقت بالأرض وبعث الخليفة الناصر لدين الله سنة أربع وثمانين عسكراً مع وزيره جلال الدين عبيد الله بن يونس لإنجاده قزل على طغرل قبل همذان وهزمهم ونهب جميع ما معهم وأسر الوزير ابن يونس.

قتل قزل أرسلان قطلغ وولاية أخيه

قد تقدم لنا ما كان بين السلطان طغرل وبين قزل بن إيلدكز من الحروب ثم إن قزل غلبه واعتقله في بعض القلاع ودانت له البلاد وأطاعه ابن دكلا صاحب فارس وخوزستان وعادا إلى أصفهان والفتن بها متصلة فأخذ جماعة من أعيان الشافعية وصلبهم وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة سنة سبعة وثمانين ثم قتل غيلة على فراشه ولم يعرف قاتله وأخذ جماعة من غلمانه بالظنة وكان كريماً حليماً يحب العدل ويؤثره ولما هلك ولي من بعده قطلغ بن أخيه البهلوان واستولى على الممالك التي كانت بيده.

قتل السلطان طغرل وملك خوارزم شاه الري ووفاة أخيه سلطان شاه

ولما توفي قزل وولي قطلغ بن أخيه البهلوان كما قلناه أخرج السلطان طغرل من محبسه بالقلعة التي كان بها واجتمع إليه العساكر وسار إلى همذان فلقيه قطلغ بن البهلوان فانهزم بين يديه ولحق بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش ليستنجده فسار إليه سنة ثمان وثمانين وندم قطلغ على استدعائه فتحصن ببعض قلاعه وملك خوارزم شاه الري وملك قلعة طبرك وصالح السلطان طغرل وولى على الري وعاد إلى خوارزم سنة تسعين فأحدث أحدوثة السلطان شاه نذكره في أخبارهم وسار السلطان طغرل إلى الري فأغار عليها وفر منه قطلغ بن البهلوان وبعث إلى خوارزم شاه يستنجده ووافق ذلك وصول منشور من الخليفة إليه بإقطاعه البلاد فسار من نيسابور إلى الري وأطاعه قتلغ وسار معه إلى همذان وخرج طغرل للقائهم قبل أن يجمع العساكر ولقيهم قريباً من الري في ربيع الأول فحمل عليهم وتورط بينهم فصرع عن فرسه وقتل وملك خوارزم شاه همذان وتلك البلاد جميعاً وانقرضت مملكة بني ملك شاه وولي خوارزم شاه على همذان وملك الأعمال فبلغ إينانج بن البهلوان وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدم عليهم مساحق منهم ثم استولى وزير الخليفة ابن العطاف على همذان وأصبهان والري من يد مواليه وانتزعها منهم خوارزم كما ذكرناه في أخبار الخلفاء وجاءت العساكر من قبل الخليفة إلى همذان مع أبي الهيجاء الشمس من أمراء الأيوبية وكان أميراً على القدس فعزلوه عنها وسار إلى بغداد فبعثه الناصر سنة ثلاث وتسعين بالعساكر إلى همذان ولقي عندها أزبك بن البهلوان مطيعاً فقبض عليه وأنكر الخليفة ذلك وبعث بإطلاقه وخلع عليه وعاد إلى بلاد أذربيجان.

ملك الكرج الدويرة

كان أزبك بن البهلوان قد استولى على أذربيجان بعد موته وكان مشغولاً بلذاته فسار الكرج إلى مدينة دويرة وحاصروها وبعث أهلها إليه بالصريخ فلم يصرخهم حتى ملكها الكرج عنوة واستباحوها والله تعالى أعلم.

قتل كوجه ببلاد الجبل وملك ايدغمش

كان كوجه من موالي البهلوان قد تغلب على الري وهمذان وبلاد الجبل واصطنع صاحبه ايدغمش ووثق به فنازعه الأمر وحاربه فقتله واستولى ايدغمش على البلاد وبقي أزبك بن البهلوان مغلباً ليس له من الحكم شيء.

قصد صاحب مراغة وصاحب إربل أذربيجان

قد ذكرنا أن أزبك كان مشغولاً بلذاته مهملاً لملكه ثم حدثت بينه وبين صاحب إربل وهو مظفر الدين كوكبري سنة اثنتين وستمائة فتنة حملت مظفر الدين على قصده فسار إلى مراغة واستنجد صاحبها علاء الدين بن قراسنقر الأحمديلي فسار معه لحصار تبريز وبعث أزبك الصريخ إلى إيدغمش بمكانه من بلاد

الجبل فسار إليه وأرسل مظفر الدين بالفتن والتهديد فعاد إلى بلده علاء الدين بن قراسنقر إلى بلاد مراغة فسار ايدغمش وأزبك وحاصروه بمراغة حتى سلم قلعة من قلاعه ورجعوا عنه والله تعالى أعلم.

وفاة صاحب مازندران والخلف بين أولاده

ثم توفي حسام الدين أزدشير صاحب مازندان وولي ابنه الأكبر وأخرج أخاه الأوسط عن البلاد فلحق بجرجان وبها علي شاه برتكش نائباً عن أخيه خوارزم فاستنجده على شرط الطاعة له وأمره أخوه تكش بالمسير معه فساروا من جرجان وبلغهم في طريقهم مهلك صاحب مازندران المتولي بعد أبيه وأن أخاه الأصغر استولى على الكراع والأموال فساروا إليه وملكوا البلاد ونهبوها مثل سارية وآمد وغيرها وخطب لخوارزم شاه فيها وعاد علي شاه إلى خراسان وأقام ابن صاحب مازندران وهو الأوسط الذي استصرخ به وقد امتنع أخوه الأصغر بقلعة كوري ومعه الأموال والذخائر وأخوه الأوسط فراسله واستعطف وقد ملك البلاد جميعاً والله ولي التوفيق.

ملك ابن البهلوان مراغة

ثم توفي سنة أربع وستمائة علاء الدين بن قراسنقر الأحمديلي صاحب مراغة وأقام بأمرها من بعده خادمه ونصب ابنه طفلاً صغيراً وعصى عليه بعض الأمراء وبعث العسكر لقتاله فانهزموا أولاً ثم استقر ملك الطفل ثم توفي سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته فسار أزبك بن البهلوان من تبريز إلى مراغة واستولى على مملكة آل قراسنقر ما عدا القلعة التي اعتصم بها الخادم وعنده الخزائن والذخائر.

استيلاء منكلي على بلاد الجبل وأصفهان وغيرها وهرب إيدغمش وقتله

لما تمكن إيدغمش في بلاد الجبل بهمذان وأصبهان والري وما إليها عظم شأنه حتى طلب الأمر لنفسه وسار لحصار أزبك بن مولاه الذي نصبه للأمر وكان بأذربيجان فخرج عليه مولى من موالي البهلوان اسمه منكلي وكثر جمعه واستولى على البلاد وقدم إيدغمش إلى بغداد واحتفل الخليفة لقدومه وتلقاه وذلك سنة ثمان وأقام بها كان ايدغمش قد وفد سنة ثمان وستمائة إلى بغداد وشرفه الخليفة بالخلع والألوية وولاه على ما كان بيده ورجع إلى همذان ووعده الخليفة بمسير العساكر فأقام ينتظرها عند سليمان بن مرحم أمير الإيوانية من التركمان فدس إلى منكلي يخبره ثم قتل إيدغمش وحمل أصحابه إلى منكلي وافترق أصحابه واستولى منكلي وبعث إليه الخليفة بالنكير فلم يلتفت إليه فبعث إلى مولاه أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يحرضه عليه وإلى جلال الدين الإسماعيلي صاحب قلعة لموت لمساعدته على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأزبك بعضها ولجلال الدين بعضها وبعث الخليفة العساكر مع مولاه سنقر الملقب بوجه السبع وأمره بطاعة مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي كجك صاحب إربل وشهرزور وهو مقدم العساكر جميعاً فسار لذلك وهرب منكلي وتعلق بالجبل ونزلوا بسفحه قريباً من كوج فناوشهم الحرب فانهزم أزبك ثم عاد ثم أسرى من ليلته منهزماً وأصبحوا فاقتسموا البلاد على الشريطة وولي أزبك فيما أخذ منها مولى أخيه فاستولى عليها ومضى منكلي إلى ساوة وبها شحنة كان صديقاً له فقتله وبعث برأسه إلى أزبك واستقر في بلاد الجبل حتى قتله الباطنية سنة أربع عشرة وستمائة وجاء خوارزم شاه فملكها كما نذكر في أخباره ودخل أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان وأران في طاعته وخطب له على منابر أعماله وانقرض أمر بني ملك شاه ومواليهم من العراقين وخراسان وفارس وجميع ممالك المشرق وبقي أوزبك ببلاد أذربيجان ثم استولى التتر على أعمال محمد بن تكش فيما وراء النهر وخراسان وعراق العجم سنة ثماني عشرة وستمائة وموالي الهند وسار جنكزخان فأطاعه أزبك بن البهلوان سنة إحدى وعشرين وأمره بقتل من عنده من الخوارزمية ففعل ورجع عنه إلى خراسان ثم جاء جلال الدين بن محمد بن تكش من الهند سنة اثنتين وعشرين فاستولى على عراق العجم وفارس وسار إلى أذربيجان فملكها ومر من أزبك إلى كنجة من بلاد أران ثم ملك كنجة وبلاد أران ومر أزبك إلى بعض القلاع هنالك ثم هلك وملك جلال الدين على جميع البلاد وانقرض أمر بني أزبك واستولى التتر على البلاد وقتلوا جلال الدين سنة ثمان وعشرين كما يأتي في أخبارهم جميعاً.

وانتهى الكلام في دولة السلجوقية فلنرجع إلى أخبار الدول المتشعبة عنها واحدة بعد واحدة والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

بنو أنوشتكين

كان أنوشتكين جدهم تركياً مملوكاً لرجل من غرشتان ولذلك يقال له: أنوشتكين غرشة ثم صار لرجل من أمراء السلجوقية وعظمائهم اسمه ملكابك وكان مقدماً عنده لنجابته وشجاعته ونشأ ابنه محمد على مثل حاله من النجابة والشجاعة وتحلى بالأدب والمعارف واختلط بأمراء السلجوقية وولي لهم الأعمال واشتهر فيهم بالكفاية وحسن التدبير.

ولما ولي بركيارق ابن السلطان ملك شاه وانتقض عليه عمه أرسلان أرغون واستولى على خراسان بعث وإليه العساكر سنة تسعين وأربعمائة مع أخيه سنجار وسار في أثره ولقيهم في طريقهم خبر مقتل أرغون عمهم وأن بعض مواليه خلفه فعدا عليه فقتله كما مر قبل فسار بركيارق في نواحي خراسان وما وراء النهر حتى دوخها وولي عليها أخاه سنجار وانتقض عليه أمير أميران من قرابته اسمه محمد بن سليمان فسار إليه سنجار وظفر به وسمله وعاد بركيارق إلى العراق بعد أن ولى على خوارزم إكنجي شاه ومعنى شاه بلسانهم: السلطان فأضيف إلى خوارزم على عادتهم في تقديم المضاف إليه على المضاف

ولما انصرف بركيارق إلى العراق تأخر من أمرائه قودز وبارقطاش وانتقضا على السلطان ووثبا بالأمير أكنجي صاحب خوارزم وهو بمرو ذاهباً إلى السلطان شاه فقتلاه وبلغ الخبر إلى السلطان وقد انتقض عليه بالعراق الأمير أنزو مؤيد الملك بن نظام الملك فمضى لحربهما وأعاد الأمير داود حبشي بن إيتاق في عسكر إلى خراسان لقتالهما فسار إلى هراة وعاجلاه قبل اجتماع عساكره فعبر جيحون وسبق إليه بأرقطاش فهزمه داود وأسره وبلغ الخبر إلى قودز فثار به عسكره وفر إلى بخارى فقبض عليه نائبها ثم أطلقه ولحق بالملك سنجار فقبله وأقام بارقطاش أسيراً عند الأمير داود وصفت خراسان من الفتنة والثوار واستقام أمرها للأمير داود حبشي فاختار لولاية خوارزم محمد بن أنوشتكين فولاه وظهرت كفايته وكان محباً لأهل الدين والعلم مقرباً لهم عادلاً في رعيته فحُسن ذكره وارتفع محله ثم استولى الملك سنجار على خراسان فأقر محمد بن أنوشتكين وزاده تقديماً وجمع بعض ملوك الترك وقصد خوارزم وكان محمد غائباً عنها ولحق بالترك محمد بن أكنجي الذي كان أبوه أميراً على خوارزم واسمه طغرل تكين محمد فحرض الترك على خوارزم وبلغ الخبر إلى محمد بن أنوشتكين فبعث إلى سنجار بنيسابور يستمده وسبق إلى خوارزم فافترق الترك وطغرل تكين محمد وسار كل منهما إلى ناحية ودخل محمد بن أنوشتكين إلى خوارزم فازداد بذلك عند سنجار ظهوراً والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق لا رب سواه.

وفاة محمد بن أنوشتكين وولاية ابنه أتسز

ثم هلك محمد بن أنوشتكين خوارزم ولي بعده ابنه أتسز وسار بسيرة أبيه وكان قد قاد الجيوش أيام أبيه وحارب الأعداء فلما ولي افتتح أمره بالاستيلاء على مدينة مقشلاغ وظهرت كفايته في شأنها فاستدعاه السلطان سنجار فاختصه وكان يصاحبه في أسفاره وحروبه وكلما مر يزيد تقدُّماً عنده والله تعالى أعلم بغيبه وأحكم.

الحرب بين السلطان سنجار وأتسز خوارزم شاه

ثم كثرت السعاية عند السلطان سنجار في أتسز خوارزم شاه وإنه يحدث نفسه بالامتناع فسار سنجار إليه لينتزع خوارزم من يده فتجهز أتسز للقائه واقتتلوا فانهزم أتسز وقتل ابنه وخلق كثير من أصحابه واستولى سنجار على خوارزم وأقطعها غياث الدين سليمان شاه ابن أخيه محمداً ورتب له وزيراً وأتابك وحاجباً وعاد إلى مرو منتصف ثلاث وثلاثين وكان أهل خوارزم يستغيثون لأتسز فعاد إليهم بعد سنجار فأدخلوه البلد ورجع سليمان شاه إلى عمه سنجار واستبد أتسز بخوارزم والله أعلم.

انهزام السلطان سنجار من الأتراك الخطا وملكهم ما وراء النهر

ثم سار سنجار سنة ست وثلاثين لقتال الخطا من الترك فيما وراء النهر لما رجعوا للملك تلك البلاد فيقال: إن أتسز أغراهم بذلك ليشغل السلطان سنجار عن بلده وأعماله ويقال: إن محمود بن محمد بن سليمان بن داود بقراخان ملك الخانية في كاشغر وتركستان وهو ابن أخت سنجار زحفت إليه أمم الخطا من الترك ليتملكوا بلاده فسار إليهم وقاتلهم فهزموه وعاد إلى سمرقند وبعث بالصريخ إلى خاله سنجار فعبر النهر إليه في عساكر المسلمين وملوك خراسان والتقوا في أول صفر سنة ست وثلاثين فانهزم سنجار والمسلمون وفشا القتل فيهم يقال: كان القتلى مائة ألف رجل وأربعة آلاف امرأة وأسرت زوجة السلطان سنجار

وعاد منهزماً وملك الخطا ما وراء النهر وخرجت عن ملك الإسلام وقد تقدم ذكر هذه الواقعة مستوفى في أخبار السلطان سنجار.

ولما انهزم السلطان سنجار قصد أتسز خوارزم شاه خراسان فملك سرخس ولقي الإمام أبا محمد الزيادي وكان يجمع بين العلم والزهد فأكرمه وقبل قوله ثم قصد مرو الشاهجان فخرج إليه الإمام أحمد الباخوري وشفع في أهل مرو وأن لا يدخل لهم أحد من العسكر فشفعه وأقام بظاهر البلد فثار عامة مرو وأخرجوا أصحابه وقتلوا بعضهم وامتنعوا فقاتلهم اتسز وملكها عليهم غلاباً أول ربيع من سنة ست وثلاثين وقتل الكثير من أهلها وكان فيهم جماعة من أكابر العلماء وأخرج كثيراً من علمائها إلى خوارزم منهم: أبو بكر الكرماني ثم سار في شوال إلى نيسابور وخرج إليه جماعة من العلماء والفقهاء متطارحين أن يعفيهم مما وقع بأهل مرو فأعفاهم واستصفى أموال أصحاب السلطان وقطع الخطبة لسنجار وخطب لنفسه ولما صرح باسمه على المنبر همّ أهل نيسابور بالثورة ثم ردهم خوف العواقب فأقصروا وبعث جيشاً إلى أعمال بيهق فحاصرها خمساً ثم ساروا في البلاد ينهبون ويكتسحون والسلطان سنجار خلال ذلك متغافل عنه فيما يفعله في خراسان لما وراءه من مدد الخطا وقوتهم.

ثم أوقع الغز سنة ثمان وأربعين بالسلطان سنجار واستولوا على خراسان وكان هؤلاء الغز مقيمين بما وراء النهر منذ فارقهم ملوك السلجوقية وكانوا يدينون بالإسلام فلما استولى الخطا على ما وراء النهر أخرجوهم منها فأقاموا بنواحي بلخ وأكثروا فيها العيث والفساد وجمع لهم سنجار وقاتلهم فظفروا به وهزموه وأسروه وانتثر سلك دولته فلم يعد انتظامه وافترقت أعمالها على جماعة من مواليه واستقل حينئذ أتسز بملك خوارزم وأعماله وأورثها بنيه ثم استولوا على خراسان والعراق عندما ركدت ريح السلجوقية وكانت لهم بعد ذلك دولة عظيمة نذكر أخبارها مفصلة عند دول أهلها والله تعالى ولي التوفيق بمنه وكرمه.

وفاة أتسز وملك ولده أرسلان

ثم توفي أتسز بن محمد بن أنوشتكين في منتصف إحدى وخمسين وخمسمائة لستين سنة من ولايته وكان عادلاً في رعيته حسن السيرة فيهم ولما توفي ملك بعده أرسلان بن أتسز فقتل جماعة من عماله وسمل أخاه ثم بعث بطاعته للسلطان سنجار عندما هرب من أسر الغز فكتب له بولاية خوارزم وقصد الخطا خوارزم وجمع أرسلان للقائهم وسار غير بعيد ثم طرقه المرض فرجع وأرسل الجيوش لنظر أمير من أمرائه فقاتله الخطا وهزموه وأسروه ورجع إلى ما وراء النهر والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفاة خوارزم شاه أرسلان وملك ولده سلطان شاه وبعده ولده الآخر تكش وملك طغان شاه بن المؤيد ثم موته وملك ابنه سنجار شاه

ثم توفي خوارزم شاه أرسلان بن أتسز من مرضه الذي قعد به عن لقاء الخطا وملك بعده ابنه الأصغر سلطان شاه محمود في تدبير أمه وكان ابنه الأكبر علاء الدين تكش مقيماً في إقطاعه بالجند فاستنكف من ولاية أخيه الأصغر وسار إلى ملك الخطا مستنجداً ورغبه في أموال خوارزم وذخائرها فأنجده بجيش كثيف وجاء إلى خوارزم ولحق سلطان شاه وأمه بالمؤيد أنه صاحب نيسابور والمتغلب عليها بعد سنجار وأهدى له ورغبه في الأموال والذخائر فجمع وسار معه إذا كان على عشرين فرسخاً من خوارزم سار إليه تكش وهزمه وجيء بالمؤيد أسيراً إلى تكش فأمر بقتله وقتل بين يديه صبراً ولحق أخوه سلطان شاه بدهستان وتبعه تكش فملكها عنوة وهرب سلطان شاه وأخذت أمه فقتلها تكش وعاد إلى خوارزم ولحق سلطان شاه بنيسابور وقد ملكوا طغان شاه أبا بكر بن ملكهم المؤيد

ثم سار سلطان شاه من عنده إلى غياث الدين ملك الغورية فأقام عنده وعظم تحكم الخطا على علاء الدين تكش صاحب خوارزم واشتطوا عليه وبعثوا يطلبونه في المال فأنزلهم متفرقين على أهل خوارزم ودس إليهم فبيتوهم ولم ينج منهم أحد ونبذ إلى ملك الخطا عهده وسمع ذلك أخوه سلطان شاه فسار من غزنة إلى ملك الخطا يستنجده على أخيه تكش وادعى أن أهل خوارزم يميلون إليه فبعث معه جيشاً كثيفاً من الخطا وحاصروا خوارزم فامتنعت وأمر تكش بإجراء ماء النهر عليهم فكادوا يغرقون وأفرجوا عن البلاد ولاموا سلطان شاه فيما غرهم فقال لقائدهم: ابعث معي الجيش لمرو لأنتزعها من دينار الغزي الذي استولى عليها من حين فتنتهم مع سنجار فبعث معه الجيش وسار إلى سرخس واقتحمها على الغز الذين بها وأفحش في قتلهم واستباحهم ولجأ دينار إلى القلعة فتحصن بها ثم سار سلطان شاه إلى مرو وملكها وأقام بها ورجع الخطا إلى ما وراء النهر وأقام

سلطان شاه بخراسان يقاتل الغز فيصيب منهم كثيراً وعجز دينار ملك الغز عن سرخس فسلمها لطغان شاه بن المؤيد صاحب نيسابور فولى عليها مراموش من أمرائه.

ولحق دينار بنيسابور فحاصر دينار سلطان شاه وعاد إلى نيسابور ولحق به مراموش وترك قلعة سرخس ثم ملك نطوش والتم وضاقت الأمور على طغان شاه بنيسابور إلى أن مات في محرم سنة اثنتين وثمانين وملك ابنه سنجار شاه واستبد عليه منكلي تكين مملوك جده المؤيد وأنف أهل الدولة من استبداده وتحكمه فلحق أكثرهم بسلطان شاه في سرخس وسار الملك دينار من نيسابور في جموع الغز إلى كرمان فملكها ثم أساء منكلي تكين السيرة بنيسابور في الرعية بالظلم وفي أهل الدولة بالقتل فسار إليه خوارزم شاه علاء الدين تكش في ربيع سنة اثنتين وثمانين فحاصره بنيسابور شهرين فامتنعت عليه فعاد إلى خوارزم ثم رجع سنة ثلاث وثمانين فحاصرها وملكها على الأمان وقتل منكلي تكين وحمل سنجار شاه إلى خوارزم فأنزله بها وأكرمه ثم بلغه أنه يكاتب أهل نيسابور فسلمه وبقي عنده إلى أن مات سنة خمس وتسعين

قال ابن الأثير: ذكر هذا أبو الحسن بن أبي القاسم البيهقي في كتاب «مسارب التجارب» وذكر غيره أن تكش بن أرسلان لما أخرج أخاه سلطان شاه من خوارزم وقصد سلطان شاه إلى مرو فملكها من يد الغز ثم ارتجعوها منه ونالوا من عساكره فعبر إلى الخطا واستنجدهم وضمن لهم المال وجاء بجيوشهم فملك مرو وسرخس ونسا وأبيورد من يد الغز وصرف الخطا فعادوا إلى بلادهم ثم كاتب غياث الدين الغوري وله هراة وبوشنج وباذغيس وأعمالها من خراسان يطلب الخطبة له ويتوعده فأجابه غياث الدين بطلب الخطبة منه بمرو وسرخس وما ملكه من بلاد خراسان

ثم ساءت سيرة سلطان شاه في خراسان وصادر رعاياها فجهز غياث الدين العساكر مع صاحب سجستان وأمر ابن أخته بهاء الدين صاحب باميان بالمسير معه فساروا إلى هراة وخاف سلطان شاه من لقائهم فرجع من هراة إلى مرو حتى انصرم فصل الشتاء ثم أعاد مراسلة غياث الدين فامتعض وكتب إلى أخيه شهاب الدين بالخبر وكان بالهند فرجع مسرعاً إليه وساروا إلى خراسان واجتمعوا بعسكرهم الأول على الطالقان وجمع سلطان شاه جموعه من الغز وأهل الفساد ونزل بجموع الطالقان وتواقفوا كذلك شهرين وترددت الرسل بين سلطان شاه وغياث الدين حتى جنح غياث الدين إلى النزول عن بوشنج وباذغيس وشهاب الدين ابن أخته وصاحب سجستان يجنحان إلى الحرب وغياث الدين يكفهم حتى حضر رسول سلطان شاه عند غياث الدين لإتمام العقد والملوك جميعاً حاضرون فقام الدين العلوي الهودي وكان يختصه وهو يدل عليه فوقف في وسط المجمع ونادى بفساد الصلح وصرخ ومزق ثيابه وحثى التراب على رأسه وأفحش لرسول سلطان شاه وأقبل على غياث الدين وقال: كيف تعمد إلى ما ملكناه بأسيافنا من الغز والأتراك والسنجارية فتعطيه هذا الطريد إذ لا يقنع منا أخوه وهو الملك بخوارزم ولا بغزنة والهند فأطرق غياث الدين ساكتا فنادى في عسكره بالحرب والتقدم إلى مرو الروذ وتواقع الفريقان فانهزم سلطان شاه وأخذ أكثر أصحابه أسرى ودخل إلى مرو في عشرين فارساً

ولحق الفل من عسكره وبلغ الخبر إلى أخيه تكش فسار من خوارزم لاعتراضه وقدم العساكر إلى جيحون يمنعون إلى الخطا وسمع أخوه سلطان شاه بذلك فرجع عن جيحون وقصد غياث الدين ولما قدم عليه أمر بتلقيه وأنزله معه في بيته وأنزل أصحابه عند نظرائهم من أهل دولته وأقام إلى انصرام الشتاء وكتب أخوه علاء الدين خوارزم إلى غياث الدين في رده إليه ويعدد فعلاته في بلاده وكتب مع ذلك إلى نائب غياث الدين بهراة يتهدده فامتعض غياث الدين لذلك وكتب إلى خوارزم شاه بأنه مجير له وشفيع في التجافي عن بلاده وإنصافه من وراثة أبيه ويطلب مع ذلك الخطبة له بخوارزم والصهر مع أخيه شهاب الدين فامتعض خوارزم شاه وكتب إليه يتهدده ببعض بلاده فجهز غياث الدين إليه العساكر مع ابن أخته أبو غازي إلى بهاء الدين سامي صاحب سجستان وبعثهما مع سلطان شاه إلى خوارزم وكتب إلى المؤيد أبيه صاحب نيسابور يستنجده وكانت ابنته تحت غياث الدين فجمع المؤيد عساكره وخيم بظاهر نيسابور.

وكان خوارزم شاه عزم على لقاء أخيه والغورية وسار عن خوارزم فلما سمع خبر المؤيد عاد إلى خوارزم واحتمل أمواله وذخائره وعبر جيحون إلى الخطا وترك خوارزم وسار أعيانها إلى أخيه سلطان شاه والبوغازي ابن اخت غياث الدين فآتوا طاعتهم وطلبوا الوالي عليهم وتوفي سلطان شاه منسلخ رمضان سنة تسع وعاد البوغازي إلى خاله غياث الدين ومعه أصحاب سلطان شاه فاستخدمهم غياث الدين وأقطعهم وبلغ وفاة سلطان شاه إلى أخيه خوارزم تكش فعاد إلى خوارزم وعاد الشحنة إلى بلاد سرخس ومرو فجهز إليهم نائب الغورية بمرو عمر المرغني عسكراً ومنعهم منها حتى يستأذن غياث الدين وأرسل خوارزم شاه إلى غياث في الصلح والصهر في وفد من فقهاء خراسان والعلوية يعظمونه

ويستجيرون به من خوارزم شاه أن يجيز إليهم الخطا ويستحثهم ولا يحسم ذلك إلا صلحه أو سكناه بمرو فأجابهم إلى الصلح وعقدوه ورد على خوارزم تكش بلاد أخيه وطمع الغز فيها فعاثوا في نواحيها وجاء خوارزم شاه إليها ودخل مرو وسرخس فسار البورد وتطرق إلى طوس وهي للمؤيد ابنه فجمع وسار إليها وعاد خوارزم شاه إلى بلده وأفسد الماء في طريقه واتبعه المؤيد فلم يجد ماء ثم كر عليه خوارزم شاه وقد جهد عسكره العطش فأوقع بهم وجيء إليه بالمؤيد أسيراً فقتله وعاد إلى خوارزم وقام بنيسابور بعد المؤيد ابنه طغان شان ورجع إليه خوارزم شاه من قابل فحاصره بنيسابور وبرز إليه فأسره وملك نيسابور واحتمل طغان شاه وعياله وقرابته فأنزلهم بخوارزم قال ابن الأثير: هذه الرواية مخالفة للأولى وإنما أوردتها ليتأمل الناظر ويستكشف أيهما أوضح فيعتمدها والله تعالى أعلم.

وفاة ايلدكز وملك ابنه محمد البهلوان

قد تقدم لنا في أخبار الدولة السلجوقية ولاية أرسلان شاه بن طغرل في كفالة ايلدكز وابنه محمد البهلوان من بعده ثم أخيه أزبك أرسلان بن ايلدكز وأنه اعتقل السلطان طغرل ثم توفي فولى مكانه قطلغ ابن أخيه البهلوان فخرج السلطان من محبسه وجمع لقتاله سنة ثمان وثمانين فهزمه ولحق قطلغ بالري وبعث إلى خوارزم شاه علاء الدين تكش فسار إليه وندم قطلغ على استدعائه فتحصن منه ببعض قلاعه وملك خوارزم شاه الري وقلعة طبرك ورتب فيها الحامية وعاد إلى خوارزم لما بلغه أن أخاه سلطان شاه خالفه إليها ولما كان ببعض الطريق لقيه الخبر بأن أهل خوارزم منعوا سلطان شاه وعاد خائباً فتمادى إلى خوارزم وأقام إلى انسلاخ فصل الشتاء ثم سار إلى أخيه سلطان شاه بمرو سنة تسع وثمانين وترددت الرسل بينهما في الصلح ثم استأمن إليه نائب أخيه بقلعة سرخس فسار إليها ومات أخوه سلطان شاه سنة تسع فسار خوارزم شاه إلى مرو وملكها وملك أبيورد ونسا وطوس وسائر مملكه أخيه واستولى على خزائنه وبعث على ابنه علاء الدين محمد فولاه مرو وولي ابنه الكبير ملك شاه نيسابور وذلك آخر تسع وثمانين.

ثم بلغه أن السلطان طغرل أغار على أصحابه بالري قطلغ اينانج فبعث إليه بابنه يستنجده ووصل إليه رسول الخليفة يشكو من طغرل وأقطعه أعماله فسار من نيسابور إلى الري وتلقاه قطلغ اينانج بطاعته وسار معه ولقيهم السلطان طغرل قبل استكمال تعبيته وحمل عليهم بنفسه وأحيط به فقتل في ربيع سنة تسعين وبعث خوارزم شاه برأسه إلى بغداد وملك همذان وبلاد الجبل أجمع وكان الوزير مؤيد الدين بن القصاب قد بعثه الخليفة الناصر مدداً لخوارزم شاه في أمره فرحل إليه واستوحش ابن القصاب فامتنع ببعض الجبال هنالك وعاد خوارزم شاه إلى همذان وسلمها وأعمالها إلى قطلغ اينانج وأقطع كثيراً منها مماليكه وقدم عليهم مناجي وأنزل معه ابنه وعاد إلى خوارزم ثم اختلف مناجي وقطلغ اينانج واقتتلوا سنة إحدى وتسعين فانهزم قطلغ.

وكان الوزير ابن القصاب قد سار إلى خوزستان فملكها وكثيراً من بلاد فارس وقبض على بني شملة وأمرائها وبعث بهم إلى بغداد وأقام هو يمهد البلاد فلحق به قطلغ أينانج هنالك مهزوماً سليباً واستنجده على الري فأزاح علله وسار معه إلى همذان فخرج مناجي وابن خوارزم شاه إلى الري وملك ابن القصاب همذان في سنة إحدى وتسعين وسار إلى الري فأجفل الخوارزميون أمامهم وبعث الوزير العساكر في اثرهم حتى لحقوهم بالدامغان وبسطام وجرجان ورجعوا عنهم واستولى الوزير على الري ثم انتقض قطلغ اينانج على الوزير وامتنع بالري فحاصره الوزير وغلبه عليها ولحق اينانج بمدينة ساوة ورحل الوزير في اتباعه حتى لحقه على دربنكرخ فهزمه ونجا أينانج بنفسه.

وسار الوزير إلى همذان فأقام بظاهرها ثلاثة أشهر وبعث إليه خوارزم شاه بالنكير على ما فعل ويطلب إعادة البلاد فلم يجب إلى ذلك وسار خوارزم إليه وتوفي قبل وصوله فقاتل العساكر بعده في شعبان سنة اثنتين وتسعين فهزمهم وأثخن فيهم وأخرج الوزير من قبره فقطع رأسه وبعث به إلى خوارزم لأنه كان قتل في المعركة واستولى على همذان وبعث عسكره إلى أصفهان فملكها وأنزل بها ابنه وعاد إلى خوارزم وجاءت عساكر الناصر اثر ذلك مع سيف الدين طغرل فقطع بلاد اللحف من العراق فاستدعاه أهل أصفهان فملكوا البلد ولحق عسكر خوارزم شاه بصاحبهم ثم اجتمع مماليك البهلوان وهم أصحاب قطلغ وقدموا على أنفسهم كركجة من أعيانهم وساروا إلى الري فملكوها ثم إلى أصفهان كذلك وأرسل كركجة إلى الديوان ببغداد يطلب أن يكون الري له مع جوار الري وساوة وقم وقاشان وما ينضاف إليها وتكون أصفهان وهمذان وزنجان ومرو من الديوان فكتب له بذلك والله أعلم.

وفاة ملك شاه بن خوارزم شاه تكش

قد تقدم لنا أن خوارزم شاه تكش ولى ابنه ملك شاه على نيسابور سنة تسع وثمانين وأضاف إليه خراسان وجعله ولي عهده في الملك فأقام بها إلى سنة ثلاث وتسعين ثم هلك في ربيع منها وخلف ابناً اسمه هندوخان وولى خوارزم شاه على نيسابور ابنه الآخر قطب الدين الذي كان ولاه بمرو الخطا.

انهزام الخطا من الغورية

كان خوارزم شاه تكش لما ملك الري وهمذان وأصبهان وهزم ابن القصاب وعساكر الخليفة بعث إلى الناصر يطلب الخطبة ببغداد فامتعض الناصر لذلك وأرسل إلى غياث الدين ملك غزنة والغور فقصد بلاد خوارزم شاه فكتب إليه غياث الدين يتهدده بذلك فبعث خوارزم شاه إلى الخطا يستنجدهم على غياث الدين ويحذرهم أن يملك البلاد كما ملك بلخ فسار الخطا في عساكرهم ووصلوا بلاد الغور وراسلوا بهاء الدين سام ملك باميان وهو ببلخ يأمرونه بالخروج عنها وعاثوا في البلاد وخوارزم شاه قد قصد هراة وانتهى إلى طوس واجتمع أمراء الغورية بخراسان مثل محمد بن بك مقطع الطالقان والحسين بن مرميل وحروس وجمعوا عساكرهم وكبسوا الخطا وهزموهم وألحقوهم بجيحون فتقسموا بين القتل والغرق وبعث ملك الخطا إلى خوارزم شاه يتجنى عليه في ذلك ويطلب الدية على القتلى من قومه ويجعله السبب في قتلهم فراجع غياث الدين واستعطفه ووافقه على طاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام وأجاب ملك الخطا بأن قومه إنما جاؤوا لانتزاع بلخ من يد الغورية ولم يأتوا لنصرتي وأنا قد دخلت في طاعة غياث الدين فجهز ملك الخطا عساكره إليه وحاصروه فامتنع فرجعوا عنه بعد أن فني أكثرهم بالقتل وسار في أثرهم وحاصر بخارى وأخذ بمخنقها حتى ملكها سنة أربع وتسعين فأقام بها مدة وعاد إلى خوارزم والله تعالى ولي التوفيق.

ملك خوارزم شاه تكين الري وبلاد الجبل

ثم سار خوارزم شاه تكين لارتجاع الري وبلاد الجبل من يد مناجق والبهلوانية الذين انتقضوا عليه فهرب مناجق عن البلاد وتركها وملكها خوارزم شاه واستدعاه فامتنع من الحضور وابتعه فاستأمن أكثر أصحابه ورجعوا عنه ولحق هو بقلعة من أعمال مازندران فامتنع بها فبعث خوارزم شاه إلى الخليفة الناصر فبعث بالخلع له ولولده قطب الدين وكتب له تقليداً بالأعمال التي بيده ثم سار خوارزم شاه لقتال الملاحدة فافتتح قلعة لهم قريبة من قزوين وانتقل إلى حصار قلعة الموت من قلاعهم فقتل عليها رئيس الشافعية بالري صدر الدين محمد بن الوزان وكان مقدماً عنده ولازمه ثم عاد إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه فجهز ابنه قطب الدين لقتالهم فسار إلى قلعة ترشيش من قلاعهم فحاصرها حتى سألوه في الصلح على مائة ألف دينار يعطونها فامتنع أولاً ثم بلغه مرض أبيه فأجابهم وأخذ منهم المال المذكور وعاد والله أعلم.

وفاة خوارزم شاه

ثم توفي خوارزم شاه تكش بن ألب أرسلان بن أتسز بن محمد أنوشتكين صاحب خوارزم بعد أن استولى على الكثير من خراسان وعلى الري وهمذان وغيرها من بلاد الجبل وكان قد سار من خوارزم إلى نيسابور فمات في طريقه إليها في رمضان سنة ست وتسعين وخمسمائة وكان عندما اشتد مرضه بعث لابنه قطب الدين محمد يخبره بحاله ويستدعيه فوصل بعد موته فبايع له أصحابه بالملك ولقبوه علاء الدين لقب أبيه وحمل شلو أبيه إلى خوارزم فدفنه بالمدرسة التي بناها هنالك وكان تكش عادلاً عارفاً بالأصول والفقه على مذهب أبي حنيفة ولما توفي ابنه علاء الدين محمد كان ولده الآخر علي شاه بأصبهان فاستدعاه أخوه محمد فسار إليه ونهب أهل أصفهان فخلعه وولاه أخوه على خراسان فقصد نيسابور وبها هندوخان ابن أخيهما ملك شاه منذ ولاه جده تكش عليها بعد أبيه ملك شاه وكان هندوخان يخاف عمه محمداً لعداوة بينه وبين أبيه ملك شاه ولما مات جده تكش نهب الكثير من خزائنه ولحق بمرو وبلغ وفاة تكش إلى غياث الدين ملك غزنة فجلس للعزاء على ما بينهما من العداوة إعظاماً لقدره ثم جمع هندوخان جموعاً وسار إلى خراسان فبعث علاء الدين محمد بن تكش العساكر لدفاعه مع جنقر التركي فخام هندوخان عن لقائه ولحق بغياث الدين مستنجداً فأكرمه ووعده النصر ودخل جنقر مدينة مرو وبعث بام هندوخان وولده إلى خوارزم مكرمين فأرسل غياث الدين صاحب غزنة إلى محمد بن خربك نائبه بالطالقان أن ينبذ إلى جنقر العهد ففعل وسار من الطالقان إلى مرو الروذ فملكها وبعث إلى جنقر يأمره بالخطبة في مرو لغياث الدين أو يفارقها فبعث إليه جنقر يتهدده ظاهراً ويساله سراً أن يستأمن له غياث الدين فقوي طمعه في البلاد بذلك وأمر أخاه شهاب الدين بالمسير إلى خراسان والله أعلم.

استيلاء ملوك الغورية على أعمال خوارزم شاه محمد تكش بخراسان وارتجاعه إياها منهم ثم حصاره هراة من أعمالهم

ولما استأمن جنقر نائب مرو إلى غياث الدين طمع في أعمال خوارزم شاه بخراسان كما قلناه واستدعاه أخوه شهاب الدين للمسير إليها فسار إلى غزنة واستشار غياث الدين نائبه بهراة عمر بن محمد المرغني في المسير إلى خراسان فنهاه عن ذلك ووصل أخوه شهاب الدين في عساكر غزنة والغور وسجستان وساروا منتصف سبع وتسعين ووصل كتاب جنقر نائب مرو إلى شهاب الدين وهو بقرب الطالقان يحثه للوصول وأذن له غياث الدين فسار إلى مرو وقاتل العساكر الذين بها من الخوارزمية فغلبهم وأحجرهم بالبلد وسار بالفيلة إلى السور فاستأمن من أهل البلد وأطاعوا وخرج جنقر إلى شهاب الدين ثم جاء غياث الدين بعد الفتح إلى هراة مكرماً وسلم مرو إلى هندوخان بن ملك شاه كما وعده ثم سار إلى سرخس فملكها صلحاً وولى عليها زنكي بن مسعود من بني عمه وأقطعه معها نسا وأبيورد ثم سار إلى طوس وحاصرها ثلاثا واستأمن إليه أهلها فملكها وبعث إلى علي شاه علاء الدين محمد بن تكش بنيسابور في الطاعة فامتنع فسار إليه وقاتل نيسابور من جانب وأخوه شهاب الدين من الجانب الآخر إليه سقوطه ودخلوا نيسابور وملكوها ونادوا بالأمان وجيء بعلي شاه من خوارزم إلى غياث الدين فأمنه وأكرمه وبعثه بالأمراء الخوارزمية إلى هراة وولى على خراسان ابن عمه وصهره على ابنته ضياء الدين محمد بن علي الغوري ولقبه علاء الدين وأنزله نيسابور في جمع من وجوه الغورية وأحسن إلى أهل نيسابور وسلم علي شاه إلى أخيه شهاب الدين ورحل إلى هراة ثم سار شهاب الدين إلى قهستان وقيل له عن قرية من قراها أنهم إسماعيلية فأمر بقتلهم وسبى ذراريهم ونهب أموالهم وخرب القرية ثم سار إلى حصن من أعمال قهستان وهم إسماعيلية فملكه بالأمان بعد الحصار وولى عليه بعض الغورية فأقام بها الصواب وشعار الإسلام وبعث صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو من أخيه شهاب الدين ويقول: إن هذا نقض العهد الذي بيني وبينكم فما راعه إلا نزول أخيه شهاب الدين على حصن آخر للإسماعيلية من أعمال دهستان فحاصره فبعث بعض ثقاته إلى شهاب الدين يأمره بالرحيل فامتنع فقطع أطناب سرادقه ورحل مراغماً وقصد الهند مغاضباً لأخيه.

ولما اتصل بعلاء الدين محمد بن تكش مسيرهما عن خراسان كتب إلى غياث الدين يعاتبه عن أخذه بلاده ويطلب إعادتها ويتوعده باستنجاد الخطا عليه فماطله بالجواب إلى خروج أخيه شهاب الدين من الهند لعجزه عن الحركة لاستيلاء مرض النقرس عليه فكتب خوارزم شاه إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بنيسابور يأمره بالخروج عنها فكتب بذلك إلى غياث الدين فأجابه يعده بالنصر وسار اليه خوارزم شاه محمد بن تكش آخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة فلما قرب أبيورد هرب هندوخان من موالي غياث الدين وملك محمد بن تكش مدينة مرو ونسا وأبيورد وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصرها وأطال حصارها حتى استأمنوا إليه واستحلفوه وخرجوا إليه فأحسن إليهم وسأل من علاء الدين الغوري السعي في الإصلاح بينه وبين غياث الدين فضمن ذلك وسار إلى هراة وبها أقطاعه وغضب على غياث الدين لقعوده عن إنجاده، فلم يسر إليه.

وبالغ محمد بن تكش في الإحسان إلى الحسن بن حرميل من أمراء الغورية ثم سار إلى سرخس وبها الأمير زنكي من قرابة غياث الدين فحاصرها أربعين يوماً وضيق مخنقها بالحرب وقطع الميرة ثم سأله زنكي الافراج ليخرج عن الأمان فأفرج عنه قليلاً ثم ملأ البلد من الميرة بما احتاج إليه وأخرج العاجزين عن الحصار وعاد إلى شأنه فندم محمد بن تكش ورحل عنها وجهز عسكراً لحصارها وجاء نائب الطالقان مدداً لمحمد بن خربك واحس بعد أن أرسل إليه بأنه عساكر الخوارزمية المجمرة عليه وأشاع ذلك فأفرجوا عنه وجاء إليه زنكي من الطالقان فخرج معه ابن خربك إلى مرو الروذ وجبي خراجها وما يجاورها وبعث إليه محمد بن تكش عسكراً نحواً من ثلاثة آلاف مع خاله فلقيهم محمد بن خربك في تسعمائة فارس فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وأسراً وغنم سوادهم وعاد خوارزم شاه محمد بن تكش إلى خوارزم.

وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابه مع الحسن بن محمد المرغني من كبراء الغورية وغالطه في القول ولما وصل الحسن المرغني إلى خوارزم شاه وأطلع على أمره قبض على الحسن وسار إلى هراة فحاصرها وكتب الحسن إلى أخيه عمر بن محمد المرغني أمير هراة بالخبر فاستعد للحصار وقد كان لحق بغياث الدين أخوان من حاشية سلطان شاه عم محمد بن تكش المتوفى في سرخس فأكرمهما غياث الدين وأنزلهما بهراة فكاتبا محمد بن تكش وداخلاه في تمليكه هراة فسار لذلك وحاصر البلد وأميرها عمر المرغني مر إلى الاخوين وعندهما مفاتيح البلد وأطلع أخوه

الحسن في محبسه على شأن الأخوين في مداخلة محمد بن تكش فبعث إلى أخيه عمر بذلك فلم يسعفه فبعث إليه بخط أحدهما فقبض عليهما وعلى أصحابهما واعتقلهم.

وبعث محمد بن تكش عسكراً إلى الطالقان للغارة عليها فظفر بهم ابن خربك ولم يفلت منهم أحد ثم بعث غياث الدين ابن أخته البوغاني في عسكر من الغورية فنزلوا قريباً من عسكر خوارزم شاه محمد بن تكش وقطع عنهم الميرة ثم جاء غياث الدين في عسكر قليل لأن أكثرها مع أخيه شهاب الدين بالهند وغزنة فنزل قريباً من هراة ولم يقدم على خوارزم فلما بلغ الحصار أربعين يوماً وانهزم أصحاب خوارزم شاه بالطالقان ونزل غياث الدين وابن أخته البوغاني قريباً منه وبلغه وصول أخيه شهاب الدين من الهند إلى غزنة أجمع الرحيل عن هراة وصالح عمر المرغني على مال حمله إليه وارتحل إلى مرو منتصف ثمان وتسعين.

وسار شهاب الدين من غزنة إلى بلخ ثم إلى باميان معتزماً على محاربة خوارزم شاه والتقت طلائعهما فقتل بين الفريقين خلق ثم ارتحل خوارزم شاه عن مرو فجفلا إلى خوارزم وقتل الأمير سنجار صاحب نيسابور لاتهامه بالمخادعة وسار شهاب الدين إلى طوس وأقام بها إلى انسلاخ الشتاء معتزماً على السير لحصار خوارزم فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فرجع إلى هراة واستخلف بمرو محمد بن خربك فسار إليه جماعة من أمراء خوارزم شاه سنة تسع وتسعين ابن خربك ولم ينج منهم إلا القليل فبعث خوارزم شاه الجيوش مع منصور التركي لقتال ابن خربك ولقيهم على عشرة فراسخ من مرو وقاتلهم فهزموه ودخل مرو منهزماً فحاصروه خمسة عشر يوماً ثم استأمن إليهم وخرج فقتلوه وأسف ذلك شهاب الدين وترددت الرسل بينه وبين وخوارزم شاه في الصلح فلم يتم وأراد العود إلى غزنة فاستعمل على هراة ابن اخته البوغاني وملك علاء الدين بن أبي علي الغوري مدينة مرو وزكورة وبلد الغور وأعمال خراسان وفوض إليه في مملكته وعاد غزنة سنة تسع وتسعين وخمسمائة ثم عاد خوارزم شاه إلى هراة منتصف سنة ستمائة وبها البوغاني ابن أخت شهاب الدين الغوري وكان شهاب الدين قد سار عن غزنة إلى لهاوون غازياً فحصر خوارزم شاه هراة إلى منسلخ شعبان وهلك في الحصار بين الفريقين خلق وكان الحسن بن حرميل مقيماً بخوزستان وهي إقطاعه فأرسل إلى خوارزم شاه يخادعه ويطلب منه عسكراً يستلمون الفيلة وخزانة شهاب الدين فبعث إليه ألف فارس فاعترضهم هو والحسن بن محمد المرغني فلم ينج منهم إلا القليل فندم خوارزم شاه على إنفاذ العسكر وبعث إلى البوغاني أن يظهر بعض طاعته ويفرج عنه الحصار فامتنع ثم أدركه المرض فخشي أن يشغله المرض عن حماية البلد فيملكها عليه خوارزم شاه فرجع إلى إجابته واستحلفه وأهدى وخرج له ليلقاه ويعطيه بعض الخدمة فمات في طريقه وارتحل خوارزم شاه عن البلد وأحرق المجانيق وسار إلى سرخس فأقام بها.

حصار شهاب الدين خوارزم شاه وانهزامه أمام الخطا

ولما بلغ شهاب الدين بغزنة ما فعل خوارزم شاه بهراة وموت نائبه بها البوغاني ابن أخته وكان غازياً إلى الهند فانثنى عزمه وسار إلى خوارزم وكان خوارزم شاه قد سار من سرخس وأقام بظاهر مرو فلما بلغه خبر مسيره أجفل راجعاً إلى خوارزم فسبق الدين إليها وأجرى الماء في السبخة حواليها وجاء شهاب الدين فأقام أربعين يوماً يطرق المسالك حتى أمكنه الوصول ثم التقوا واقتتلوا وقتل بين الفريقين خلق كان منهم الحسن المرغني من الغورية وأسر جماعة من الخوارزمية فقتلهم شهاب الدين صبراً وبعث خوارزم شاه إلى الخطا فيما وراء النهر يستنجدهم على شهاب الدين فجمعوا وساروا إلى بلاد الغور وبلغ ذلك شهاب الدين فسار اليهم فلقيهم بالمفازة فهزموه وحصروه في أيدحوى حتى صالحهم وخلص إلى الطالقان وقد كثر الإرجاف بموته فتلقاه الحسن بن حرميل صاحب الطالقان وأزاح علله.

ثم سار إلى غزنة واحتمل ابن حرميل معه خشية من شدة جزعه أن يلحق بخوارزم شاه ويطيعه فولاه حجابته وسار معه ووجد الخلاف قد وقع بين أمرائه لما بلغهم من الإرجاف بموته حسبما مر في أخبار الغورية فأصلح من غزنة ومن الهند وتأهب للرجوع لخوارزم شاه وقد وقع في خبر هزيمته أمام الخطا بالمفازة وجه آخر ذكرناه هنالك وهو أنه فرق عساكره في المفازة لقلة الماء فأوقع بهم الخطا منفردين وجاء في الساقة فقاتلهم أربعة أيام مصابراً وبعث اليه صاحب سمرقند من عسكر الخطا وكان مسلماً وأشار عليه بالتهويل عليهم فبعث عسكراً من الليل وجاؤوا من الغد متسائلين وخوفهم صاحب سمرقند بوصول المدد لشهاب الدين فرجعوا إلى الصلح وخلص هو من تلك الواقعة وذلك سنة إحدى وستمائة ومات شهاب الدين أثر ذلك.

استيلاء خوارزم شاه على بلاد الغورية بخراسان

كان نائب الغورية بهراة من خراسان الحسن بن حرميل ولما قتل شهاب الدين الغوري في رمضان سنة اثنتين وستمائة قام بأمرهم غياث الدين محمود ابن أخيه غياث الدين واستولى على الغور من يد علاء الدين محمد بن أبي علي سروركاه ولما بلغ وفاة شهاب الدين إلى الحسن بن حرميل نائب هراة جمع أعيان البلد وقاضيهم واستحلفهم على الامتناع من خوارزم شاه ظاهراً ودس إلى خوارزم شاه بالطاعة ويطلب عسكراً يمتنع به من الغورية وبعث ابنه رهينة في ذلك فأنفذ إليه عسكراً من نيسابور وأمرهم بطاعة ابن حرميل وغياث الدين خلال ذلك يكاتب ابن حرميل ويطلبه في الطاعة فيراوغه بالمواعدة وبلغه خبره مع خوارزم شاه فاعتزم على النهوض إليه واستشار ابن حرميل بهراة أعيان البلد يختبر ما عندهم فقال: له علي بن عبد الخالق مدرس أمية وناظر الأوقاف: الرأي صدق الطاعة لغياث الدين فقال إن ما أخشاه فسر إليه وتوثق لي منه ففعل وسار إلى غياث الدين فأطلعه عن الجلي من أمر ابن حرميل ووعده الثورة به.

وكتب غياث الدين إلى نائبه بمرو يستدعيه فتوقف وحمله أهل مرو على المسير فسار فخلع عليه غياث الدين وأقطعه واستدعى غياث الدين أيضاً نائبه بالطالقان أميران قطر فتوقف فأقطع الطالقان سونج مملوك ابنه المعروف بأمير شكار وبعث إلى ابن حرميل مع ابن زياد بالخلع ووصل معه رسوله يستنجز خطبته له فمطله أياماً حتى وصل عسكر خوارزم شاه من نيسابور ووصل في أثرهم خوارزم شاه وانتهى إلى بلخ على أربعة فراسخ فندم ابن حرميل عندما عاين مصدوقة الطاعة وعرف عسكر خوارزم شاه بأن صاحبهم قد صالح غياث الدين وترك له البلاد فانصرفوا إلى صاحبهم وبعث إليه معهم بالهدايا ولما سمع غياث الدين بوصول عسكر خوارزم شاه إلى هراة أخذ اقطاع ابن حرميل وقبض على أصحابه واستصفى أمواله وما كان له من الذخيرة في حروبان وتبين ابن حرميل في أهل هراة الميل إلى غياث الدين والانحراف عنه وخشي من ثورتهم به فأظهر طاعة غياث الدين وجمع أهل البلد على مكاتبته بذلك فكتبوا جميعاً وأخرج الرسول بالكتاب ودس إليه بأن يلحق عسكر شاه خوارزم فيردهم إليه فوصل الرسول بهم لرابع يومه ولقيهم ابن حرميل وأدخلهم البلد وسمل ابن زياد الفقيه وأخرج صاعداً القاضي وشيع الغورية فلحقوا بغياث الدين وسلم البلد لعسكر خوارزم شاه.

وبعث غياث الدين عسكره مع علي بن أبي علي وسار معه أميران صاحب الطالقان وكان منحرفاً عن غياث الدين بسبب عزله فدس إلى ابن حرميل بأن يكبسه وواعده الهزيمة وحلف له على ذلك فكبسه ابن حرميل فانهزم عسكر غياث الدين وأسر كثير من أمرائه وشن ابن حرميل الغارة على بلاد باذغيس وغيرها من البلاد واعتزم غياث الدين على المسير بنفسه إلى هراة ثم شغل عن ذلك بأمر غزنة ومسير صاحب باميان إلى الدوس فأقصر واستظهر خوارزم شاه إلى بلخ وقد كان عند مقتل شهاب الدين أطلق الغورية الذين كان أسرهم في المصاف على خوارزم وخيرهم في المقام عنده أو اللحاق بقومهم واستصفى من أكابرهم محمد بن بشير وأقطعه فلما قصد الآن بلخ قدم إليها أخوه علي شاه في العساكر وبرز إليه عمر بن الحسن أميرها فدافعه عنها ونزل على أربعة فراسخ وأرسل إلى أخيه خوارزم شاه بذلك فسار إليه في ذي القعدة من السنة ونزل على بلخ وحاصرها وهم ينتظرون المدد من صاحبهم باميان بن بهاء الدين وقد شغلوا بغزنة فحاصرها خوارزم شاه أربعين يوماً ولم يظفر فبعث محمد بن بشير الغوري إلى عماد الدين عمر بن الحسن نائبها يستنزله فامتنع فاعتزم خوارزم شاه على المسير إلى هراة.

ثم بلغه أن أولاد بهاء الدين أمراء باميان ساروا إلى غزنة وأسرهم تاج الدين الذر فأعاد محمد بن بشير إلى عمر بن الحسين فأجاب إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له وخرج إليه فأعاده إلى بلده وذلك في ربيع سنة ثلاث وستمائة ثم سار خوارزم شاه إلى جوزجان وبها علي بن علي فنزل له عنها وسلمها خوارزم شاه إلى ابن حرميل لأنها كانت من أقطاعه وبعث إلى غياث الدين عمر بن الحسين من بلخ يستدعيه ثم قبض عليه وبعث به إلى خوارزم شاه وسار إلى بلخ فاستولى عليها واستخلف عليها جغري التركي وعاد إلى بلاده.

استيلاء خوارزم شاه علي ترمذ وتسليمها للخطا

ولما أخذ خوارزم شاه بلخ سار عنها إلى ترمذ وبها عماد الدين عمر بن الحسين الذي كان صاحب بلخ وقدم إليه محمد بن علي بن بشير بالعذر عن شأن أبيه وأنه إنما بعثه لخوارزم مكرماً وهو أعظم خواصه ويعده بالاطلاع فاتهم على صاحبها أمره واجتمع عليه خوارزم شاه والخطا من جميع جوانبه وأسر أصحابه ملوك باميان بغزنة فاستأمن إلى خوارزم شاه وملك منه البلد ثم

سلمها إلى الخطا وهم على كفرهم ليسالموه حتى يملك وينتزعها منهم فكان كما قدره والله سبحانه وتعالى أعلم.

استيلاء خوارزم شاه على الطالقان

ولما ملك خوارزم شاه ترمذ سار إلى الطالقان وبها سونج واستناب على الطالقان أمير شكار نائب غياث الدين محمود وبعث إليه يستميله، فامتنع وبرز للحرب حتى تراءى الجمعان فنزل عن فرسه ونبذ سلاحه وجاء متطارحاً في العفو عنه فأغرض عنه وملك الطالقان واستولى على ما فيها وبعث إليه سونج واستناب الطالقان على بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالومين ومهوار وبها حسام الدين علي بن علي فقاتله ودفعه على ناحيته وسار إلى هراة وخيم بظاهرها وجاء رسول غياث الدين بالهدايا والتحف ثم جاء ابن حرميل في جمع من عساكر خوارزم شاه إلى أسفراين فملكها على الأمان في صفر من السنة وبعث إلى صاحب سجستان وهو حرب بن محمد بن إبراهيم من عقب خلف الذي كان ملكها منذ عهد ابن سبكتكين في الطاعة لخوارزم والخطبة له فامتنع وقصد خوارزم شاه وهو على هراة القاضي صاعد بن الفضل الذي أخرجه ابن حرميل ولحق بغياث الدين فلما جاء إلى خوارزم شاه رماه ابن حرميل بالميل إلى الغورية فحبسه بقلعة زوزن وولي القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي وكان ينوب عن صاعد وابنه في القضاء.

استيلاء خوارزم شاه على مازندران وأعمالها

ثم توفي صاحب مازندران حسام الدين أزدشير وولي ابنه الأكبر وطرد أخاه الأوسط فقصد جرجان وبها الملك علي شاه ينوب عن أخيه خوارزم شاه محمد بن تكش واستنجده فاستأذن أخاه وسار معه من جرجان سنة ثلاث وستمائة ومات الأخ الذي ولي على مازندران وولي مكانه أخوهما الأصغر ووصل علي شاه ومعه أخو صاحب مازندران فعاثوا في البلاد وامتنع الملك بالقلاع مثل سارية وآمد فملكوها من يده وخطب فيها لخوارزم شاه وعاد علي شاه إلى جرجان وترك ابن صاحب مازندران الذي استجار به ملكا في تلك البلاد وأخوه بقلعة كورة.

استيلاء خوارزم شاه على ما وراء النهر وقتاله مع الخطا وأسره وخلاصه

قد تقدم لنا كيف تغلب الخطا على ما وراء النهر منذ هزموا سنجار بن ملك شاه وكانوا أمة بادية يسكنون الخيام التي يسمونها الخركاوات وهم على دين المجوسية كما كانوا وكانوا موطنين بنواحي أوزكندة وبلاد ساغون وكاشغر وكان سلطان سمرقند وبخارى من ملوك الخانية الأقدمين عريقاً في الإسلام والبيت والملك ويلقب خان خاقان بمعنى سلطان السلاطين وكان الخطا وضعوا الجزية على بلاد المسلمين فيما وراء النهر وكثر عيثهم وثقلت وطأتهم فأنف صاحب بخارى من تحكمهم وبعث إلى خوارزم شاه يستصرخه لمحاربتهم على أن يحمل اليه ما يحملونه للخطا وتكون له الخطبة والسكة وبعث في ذلك وجوه بخارى وسمرقند فحلفوا له ووضعوا رهائنهم عنده فتجهز لذلك وولى أخاه علي شاه على طبرستان مع جرجان وولى على نيسابور الأمير كزلك خان من أخواله وأعيان دولته وندب معه عسكراً وولى على قلعة زوزن أمين الدين أبا بكر وكان أصله حمالاً فارتفع وترقى في الرتب إلى ملك كرمان وولى على مدينة الجام الأمير جلدك وأقر على هراة الحسن بن حرميل وأنزل معه ألفاً من المقاتلة واستناب في مرو وسرخس وغيرهما وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور وكرمسين وجمع عساكر وسار إلى خوارزم فتجهز منها وعبر جيحون واجتمع بسلطان بخارى وسمرقند وزحف إليه الخطا فتواقعوا معه مرات وبقيت الحرب بينهم سجالاً.

ثم انهزم المسلمون وأسر خوارزم شاه ورجعت العساكر إلى خوارزم معلولة وقد أرجف بموت السلطان وكان كزلك خان نائب نيسابور محاصراً لهراة ومعه صاحب زوزن فرجعا إلى بلادهما وأصلح كزلك خان سور نيسابور واستكثر من الجند والأقوات وحدثته نفسه بالاستبداد وبلغ خبر الإرجاف إلى أخيه علي شاه بطبرستان فدعا لنفسه وقطع خطبة أخيه وكان مع خوارزم شاه حين أسر أمير من أمرائه يعرف بابن مسعود فتحيل للسلطان بأن أظهر نفسه في صورته واتفقا على دعائه باسم السلطان وأوهما صاحبهما الذي أسرهما أن ابن مسعود هو السلطان وأن خوارزم شاه خديمه فأوجب ذلك الخطائي حقه وعظمه لاعتقاده أنه السلطان وطلب منعبعد أيام أن يبعث ذلك الخديم لأهله وهو خوارزم شاه في الحقيقة ليعرف أهله بخبره ويأتيه بالمال فيدفعه إليه فأذن له الخطائي في ذلك وأطلقه بكتابه ولحق بخوارزم ودخل إليها

في يوم مشهود وعلم بما فعله أخوه علي شاه بطبرستان وكزلك خان بنيسابور وبلغهما خبر خلاصه فهرب كزلك خان إلى العراق ولحق علي شاه بغياث الدين محمود فأكرمه وأنزله وسار خوارزم شاه إلى نيسابور فأصلح أمورها وولى عليها وسار إلى هراة فنزل عليها وعسكره محاصر دونها وذلك سنة أربع وستمائة والله أعلم.

مقتل ابن حرميل ثم استيلاء خوارزم شاه على هراة

كان ابن حرميل قد تنكر لعسكر خوارزم شاه الذين كانوا عنده بهراة لسوء سيرتهم فلما عبر خوارزم شاه جيحون واشتغل بقتال الخطا قبض ابن حرميل على العسكر وحبسهم وبعث إلى خوارزم شاه يعتذر ويشكو من فعلهم فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بإنفاذ ذلك العسكر إليه ينتفع بهم في قتال الخطا وكتب إلى جلدك بن طغرل صاحب الجام أن يسير إليه بهراة ثقة بفعله وحسن سريرته وأعلم ابن حرميل بذلك ودس إلى جلدك بالتحيل على ابن حرميل بكل وجه والقبض عليه فسار في ألفي مقاتل وكان يهوى ولاية هراة لأن أباه طغرل كان والياً بها لسنجار فلما قارب هراة أمر ابن حرميل الناس بالخروج لتلقيه وخرج هو في أثرهم بعد أن أشار عليه وزيره خواجا الصاحب فلم يقبل فلما التقى جلدك وابن حرميل ترجلا عن فرسيهما للسلام وأحاط أصحاب جلدك بابن حرميل وقبضوا عليه وانهزم أصحابه إلى المدينة فأغلق الوزير خواجا الأبواب واستعد للحصار وأظهر دعوة غياث الدين محمود.

وجاء جلدك فناداه من السور وتهدده بقتل ابن حرميل وجاء بابن حرميل حتى أمره بتسليم البلد لجلدك فأبى وأساء الرد عليه وعلى جلدك فقتل ابن حرميل وكتب إلى خوارزم شاه بالخبر فبعث خوارزم شاه إلى كزلك خان نائب نيسابور وإلى أمين الدين أبي بكر نائب زوزن بالمسير إلى جلدك وحصار هراة معه فسار لذلك في عشرة آلاف فارس وحاصروها فامتنعت وكان خلال ذلك ما قدمناه من انهزام خوارزم شاه أمام الخطا وأسرهم إياه ثم تخلص ولحق بخوارزم ثم جاء إلى نيسابور ولحق بالعساكر الذين يحاصرون هراة فأحسن إلى أمرائهم لصبرهم وبعث إلى الوزير خواجا في تسليم البلد لأنه كان يعد عسكره بذلك حين وصوله فامتنع وأساء الرد فشد خوارزم في حصاره وضجر أهل المدينة وجهدهم الحصار وتحدثوا في الثورة فبعث جماعة من الجند للقبض عليه فثاروا بالبلد وشعر جماعة العسكر من خارج بذلك فرجعوا إلى السور واقتحموه وملك البلد عنوة وجيء بالوزير أسيراً إلى خوارزم شاه فأمر بقتله فقتل وكان ذلك سنة خمس وستمائة وولى على هراة خاله أمير ملك وعاد وقد استقر له أمر خراسان.

استيلاء خوارزم شاه على بيروزكوه وسائر بلاد خراسان

لما ملك خوارزم شاه هراة وولى عليها خاله أمير ملك وعاد إلى خوارزم بعث إلى أمير ملك يأمره بيروزكوه وكان بها غياث الدين محمود بن غياث الدين وقد لحق به أخوه علي شاه وأقام عنده فسار أمير ملك وبعث إليه محمود بطاعته ونزل إليه فقبض عليه أمير ملك وعلى علي شاه أخي خوارزم شاه وقتلهما جميعاً سنة خمس وستمائة وصارت خراسان كلها لخوارزم شاه محمد بن تكش وانقرض أمر الغورية وكانت دولتهم من أعظم الدول وأحسنها والله تعالى ولي التوفيق.

هزيمة الخطا

ولما استقر أمر خراسان لخوارزم شاه واستنفر وعبر نهير جيحون وسار إليه الخطا وقد احتفلوا للقائه وملكهم يومئذ طانيكوه ابن مائة سنة ونحوها وكان مظفراً مجرباً بصيراً بالحرب واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وبخارى وتراجعوا سنة ست وستمائة ووقعت بينهم حروب لم يعهد مثلها ثم انهزم الخطا وأخذ فيهم القتل كل مأخذ وأسر ملكهم طانيكوه فأكرمه خوارزم شاه وأجلسه معه على سريره وبعث به إلى خوارزم وسار هو إلى ما وراء النهر وملكها مدينة مدينة إلى أوركند وأنزل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فأصهر إليه خوارزم شاه بأخته ورده إلى سمرقند وبعث معه شحنة يكون بسمرقند على ما كان أيام الخطا والله تعالى يؤيد بنصره من يشاء.

انتقاض صاحب سمرقند

ولما عاد صاحب سمرقند إلى بلده أقام شحنة خوارزم شاه وعسكره معه نحواً من سنة ثم استقبح سيرتهم وتنكر لهم وأمر أهل البلاد فثاروا بهم وقتلوهم في كل مذهب وهم بقتل زوجته أخت خوارزم شاه فغلقت الأبواب دونه واسترحمته فتركها وبعث إلى ملك الخطا بالطاعة وبلغ الخبر إلى خوارزم شاه فامتعض وهمّ